الثقافة الجديدة



237





مجلة شهرية يصدرها الحزب الشيوعي العراقي

237

العدد 11 السنة 38 أيلول 1991

فهرست

■ نحو المؤتمر الخامس لحزبنا ـ آراء ومناقشات

■ أدب وفن

ملف سعدي يوسف

■ ثقافة كردية

■ العراق في الصحافة الاجنبية

■ مقتطفات ومعالجات

الغلاف الأول للفنان نعمان هادي
الغلاف الثاني للفنان حسن المسعود

اغلق تحرير هذا العدد في ١٧ آب

قضايا فكرية اولية للنقاش*

فالح عبد الجبار

ان صياغة أي برنامج لابد أن ترتكز على أساس تحديد واضح المعالم للمرحلة التاريخية بمستوييها العالمي (الشامل) والوطني (الاقليمي - المحلي).

وتحديد المرحلة التاريخية يستند أساساً إلى منهجية ماركس، وبالتحديد مفهوم التشكيلات الاجتماعية - الاقتصادية، وتعاقبها كضرورة ناشئة عن طبيعة سير وتطور التشكيلات ذاتها، كما أن تحديد المرحلة يستند إلى الخبرة التاريخية والمعاصرة لما بعد ماركس، والتي أسهم فيها عمالقة الفكر الماركسي: لينين، بليخانوف، روزا لوكسمبورغ، كاوتسكي، بوخارين، غرامشي، وغيرهم.

ان استيعاب النظرية الماركسية، والاضافات النظرية الغنية التي تلتها، واستخدام المنهج لدراسة حركة الواقع نفسه، تتيح تدقيق فهمنا لطبيعة المرحلة.

من المتعارف عليه في أدبيات الحركة الشيوعية منذ الثلاثينات، بل حتى قبلها، استخدام مفهوم مرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية لمنطقة حركة التحرر الوطني، وهو مفهوم يغطي طوراً تاريخياً مديداً، من تطور البلدان التي دخلت عالم الرأسمالية متأخرة، ومنها بلداننا العربية.

ولفترة طويلة «الاربعينات، الخمسينات» كان مركز الثقل في هذا المفهوم، جانبه الأول وهو طور: ثورة التحرر الوطني، التحرر من النير الكولونيالي المباشر وغير المباشر.

* كتب هذا المقال قبل اجتياح الكويت.

ومنذ بداية الستينات انتقل مركز الثقل في هذا المفهوم إلى جانبه الثاني، وهو طور: الثورة الوطنية الديمقراطية.

ان الاحداث التاريخية في مطلع الستينات تبرر هذا الانتقال، أي بعد نيل الغالبية الساحقة من المستعمرات لاستقلالها الوطني (هذه العملية استكملت في اواسط السبعينات باستقلال المستعمرات البرتغالية وتحرر زيمبابوي. وتستكمل اليوم في جنوب افريقيا).

ان الانتقال من طور التحرر الوطني إلى طور مرحلة الوطنية الديمقراطية، طرح، بعد فترة وجيزة، مشكلات نظرية وعملية تتعلق بخصائص هذا الطور، ودور الطبقة العاملة فيه، وآفاقه، أي علاقته بالأفق الاشتراكي، أو بتحديد أدق إمكان التداخل بين مهمات المرحلتين.

وجرت صياغة عدة فرضيات أو تصورات مبنية على أساس خبرة تجربة اكتوبر وخبرة وصول احزاب الطبقة العاملة للسلطة في بلدان «الديمقراطيات الشعبية» (رومانيا، بلغاريا، المجر، بولندا، الخ) وايضاً نجاحات الاحزاب الشيوعية في قيادة النضال الوطني التحرري الديمقراطي في عدد من بلدان حركة التحرر (فيتنام، كوريا، الصين، ثم كوبا).

هذه الفرضيات هي في حدها الأقصى:

١ ـ اقامة ديمقراطية شعبية، ذات أفق اشتراكي (بوسائل متعددة: انقلاب عسكري حركة جماهيرية، حرب عصابات غيفارية).

وفي حدها الأقصى الأخر:

٢ ـ اعتبار التحولات الرأسمالية ذات الطابع الدولتي (قيام الدولة بخلق قطاع عام + تأميمات معينة) بانها تحولات ذات طابع اشتراكي.

وفي حدها الوسطي

٣ ـ اعتبار هذه التحولات ذات طابع لا رأسمالي يقود إلى الاشتراكية.

الفرضية الأولى تنطلق من القفز على مراحل التطور الطبيعي للتشكيلات، وترى امكانية الانتقال إلى الاشتراكية، في جانب، وهي تعبر عن ادراك محدودية الرأسمالية المحلية وتناقضاتها في جانب آخر. واذا كان وجهها الأول مغامراً وغير واقعي فان وجهها الثاني واقعي وينبغي ارساؤه على أساس نظري عميق.

الفرضية الثانية تنطلق من المماثلة الشكلية بين دور الدولة في بلداننا و«البلدان الاشتراكية»، مع نسيان التباين الجوهري. فالدور المركزي للدولة معقد ومتعدد المستويات. وهذه الفرضية قادت وتقود إلى استسلام وتهميش سياسي لحزب الطبقة العاملة.

الفرضية الثالثة تنطلق من وهم نظري كبير، هو الآخر، يشترك في الكثير من خصائصه مع أوهام الفرضية الثانية، ولا يختلف كثيراً في نتائجه السياسية الفعلية. فهو يرى في شكل محدد من الرأسمالية انه نفي للرأسمالية.

ان هذه الفرضيات جميعاً تنسى الأمور التالية اجمالاً:

١ ـ ان التطور الرأسمالي في منطقتنا ضرورة موضوعية، وانه جوهر مرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية.

٢ ـ ان هذا التطور الرأسمالي يتخذ صوراً عديدة، أبرزها هو قطاع الدولة أو الدور المركزي للدولة كمنتج ومالك وضامن رأسمالي جماعي.

٣ ـ ان هذا التطور ينطوي على مهمات اجتماعية (تغيير علاقات الانتاج التقليدية) ومهمات سياسية (= الديمقراطية)، ومهمات وطنية فك التبعية (الكولونيالية ثم، الآن، التبعية البنيوية الجديدة)، وان هذه المهمات تمتلىء بمضامين متباينة بتباين الطبقات الاجتماعية المتصارعة.

٤ ـ ان هذا التطور تناقضي ـ تناحري، بحكم طبيعته بالذات (طبيعة التشكيلة الرأسمالية). ونحن نمثل فيه القطب المضاد الذي ينبغي ان يطوّر بديلاً تاريخياً.

٥ ـ ان الانتقال إلى الأفق الاشتراكي مرحلة بعيدة تاريخياً، ليس فقط بالنسبة لنا، بل بالنسبة للبلدان التي استولت فيها الطبقة العاملة على السلطة، وهي عملية عالمية، شاملة، وليست محلية جزئية.

ان التأويل النظري الخاطيء لما جرى في الثلاثينات وما جرى بعد الحرب العالمية الثانية في بلدان اوربا الشرقية، وأيضاً في الصين وفيتنام وكوريا، ثم كمبوديا ولاوس... الخ، ان هذا التأويل النظري الخاطيء اسهم في عدة أمور:

أ ـ صياغة نظرية خاطئة لمفهوم الاشتراكية وطبيعة شروطها العالمية والمحلية...

ب ـ صياغة نظرية خاطئة لسبل ووسائل بناء المقدمات المادية للاشتراكية (السوق، الادارة الذاتية، العلاقات السلعية النقدية، الملكية الخاصة، دورها، حدودها).

ج ـ صياغة نظرية زائفة لأشكال تحقق دكتاتورية البروليتاريا سياسياً (الحزب الواحد، عبادة الشخصية، الخ).

د ـ صياغة نظرية زائفة لآفاق تطور وأزمة الرأسمالية العالمية، والتلويح بقرب سقوطها السياسي...

لقد جرت قراءة ماركس وانجلس ولينين بعيون ستالين وبعيون الآخرين، وليس مباشرةً. وجرى تشويه فرضياتهم العلمية المبنية على تحليل دقيق للتاريخ بمنهجية ديناميكية.

ولا يجد المرء لوصف هذا الواقع المؤسي خيراً من شهادة عدو طبقي أصلي هو بريجنسكي الذي قال ان «النظرة الماركسية هي المع نظرية ثورية عرفتها اوربا»، و«اننا نشكر» والكلام له، السوفييت على تحويل هذه النظرية العميقة إلى «منظومة سياسية ارثوذكسية بليدة». هدفها التبرير لسلوك النخب الحاكمة والتغطية على الوقائع بدل كشفها.

ان الوضع الراهن يتميز بأزمة بنيوية عميقة في العالم «الاشتراكي»، وفي الحركة الشيوعية، ترافقها أزمة فكرية أعمق. وكلمة الأزمة، هنا، تروم التعبير عن واقع مضطرب تساقط فيه القديم دون ان يتبلور فيه الجديد بكامل غناه المفترض. بل ان عملية الانتقال من القديم إلى الجديد تمر بتعرجات تنطوي على تراجع (فقدان السلطة في بولونيا والمانيا والمجر. . . الخ، وامكان فقدانها في بلدان أخرى) ويجري صراع حاد حول مفهوم الاشتراكية قوامه :

١ ـ الغاء السوق، الخطة المركزية، دولة الحزب الواحد، وهو المفهوم القديم الذي تدافع عنه قوى اجتماعية (تحديداً قطاع واسع من البيروقراطيين و(التكنوقراط) كانت تملك حرية التصرف بالفائض الاقتصادي وحرية التصرف بالسلطة السياسية دون حسيب أو رقيب، وتقوم منظومتها الفكرية على لغو فكري، على دوغما شكلية، كانت تنادي، إلى وقت قريب، بقرب الانتقال للشيوعية وانتفاء الفوارق الطبقية، وتآخي الشعوب والقوميات على أحسن ما يكون، وسعادة الانسان الاشتراكي (الذي لا يجد حتى اللحم).

٢ ـ العودة لآليات السوق، الجمع بين الخطة والسوق، دولة التعددية، وهو المفهوم الجديد الذي تدافع عنه قوى اجتماعية من قلب النخبة. غير ان الانتقال يصحبه فقدان ثقة بالاشتراكية كنمط حياة وكمنهج علمي في ان، ويصحبه ضغط وعرقلة من المحافظين، كما اقترن، حتى في الاتحاد السوفييتي بانبعاث قوى تدافع عن الخيار الرأسمالي، سواء كانت على شكل احزاب قومية (في الاتحاد السوفييتي) أو احزاب ليبرالية ومسيحية كما في المانيا د. والمجر وبولونيا. . . الخ.

وهذا هو التيار الثالث، التيار الرأسمالي، الذي يجد مرتعاً خصباً في الأزمة الراهنة.

ان نقد ومراجعة الفكر الاشتراكي، وبالذات تشوهه النظري والعملي، لا يقترنان، حتى الآن، بنقد الرأسمالية العالمية التي أخذت مجالاً رحباً للتنفس والتستر على تناقضاتها العميقة.

وللأسف لا نجد بين نقاد الرأسمالية المعاصرين سوى أسماء على عدد الاصابع: سمير امين (ماوي سابق)، ارنست ماندل (تروتسكي)، آدم شاف (ماركسي خرج من الحزب البولوني).

ان تبني النقد الراهن للاشتراكية من داخلها لابد ان يكتمل بنقد الرأسمالية، المسؤولة عن ايصال العالم إلى شفا هاوية، بحيث أصبح أمامه خياران لا ثالث لهما، حسب رأي الكثير من المنظرين: أما العودة للبربرية أو التقدم إلى الاشتراكية.

لقد خلقت الرأسمالية، كنمط انتاج، ثروات وافرة، ووسائل متطورة لانتاج هذه الثروات، أي خلقت معظم الأسس الفعلية للوفرة المادية التي تتيح بناء مجتمع يسير إلى الاتساق، ولكنها تعيق هذا الانتقال في آن واحد، وتهدد الانسان والبيئة في آن واحد.

ان الأفق الاشتراكي، منذ أيام ماركس وحتى يومنا هذا، ينطلق من انجازات وتناقضات التشكيلة الرأسمالية التي غزت العالم كله. وهي عملية عالمية وليست جزئية، أولاً. وهي تقوم على قاعدة تقدّم حضاري ـ صناعي ووفرة مادية هائلة، ومستوى عال من الطابع الاجتماعي للانتاج برمّته. وهي لن تبنى حسب تعبير لينين إلا بجهود البروليتاريا العالمية، وكل محاولة (قومية) هي جزئية، ناقصة، الخ، حسب تعبيره أيضاً.

واذا كانت البروليتاريا الصناعية هي منتج الثروة المادية، أساساً، وكان المطلوب منها، تاريخياً، القيام بالثورة السياسية للانتقال إلى المرحلة الجديدة، الأرقى، فان التغيرات البنيوية التي طرأت عليها في البلدان المتطورة، والضعف البنيوي لها في البلدان المتخلفة، يستدعيان جملة تحالفات تجمع سائر المنتجين، وسائر القوى الاجتماعية ذات المصلحة في انتقال كهذا.

واذا كان مستوى تطور القوى المنتجة في البلدان المتطورة يقربها من خط الانتقال فان مستوى بلداننا أبعد من أن يكون مؤهلاً لانتقال كهذا.

وعليه ينبغي لاستراتيجية احزابنا في المنطقة العربية ان تأخذ في الاعتبار ما يلي:

١ ـ ان بناء الاشتراكية عملية عالمية وإنها ما تزال في مستهل اطوارها الأولى الدنيا حتى في الاتحاد السوفييتي.

٢ ـ ان نُضج هذه العملية انما هو عملية تاريخية مديدة، ومتعرجة.

٣ ـ وبدون توفر شرط أو محيط عالمي لا يمكن التفكير بانجاز هذا الانتقال في بلداننا.

٤ ـ حتى يتوفر هذا الشرط لا بديل لنا سوى المضي في تطوير الرأسمالية المحلية، والتصدي لميولها المعادية للانسان والبيئة بحدود ما يسمح به نمط الانتاج الرأسمالي نفسه.

٥ ـ يمكن لهذا النمطً ان يتخلص من طابعه الطفيلي ويكتسي طابعاً منتجاً إلى حد غير قليل. كما يمكن له أن يتجلى باشكال سياسية عديدة: فاشية أو ديمقراطية، من هنا ينبغي وضع الديمقراطية السياسية شرطاً أساسياً وعنواناً عريضاً للنضال.

٦ ـ في ظل التشابك العالمي الراهن، يمكن حماية التطور المستقل استناداً إلى انقسام السوق العالمي (الذي تهيمن عليه قوانين رأسمالية) إلى كتل عدة تسمح بمجال رحب نسبياً للحركة.

٧ ـ ان **تطوير القوى المنتجة** (أو التنمية اذا شئتم) + **الديمقراطية السياسية** + **تخفيف قيود التبعية**، هي العناوين الرئيسية للنضال في هذه المرحلة.

٨ ـ ان القبول بنمط الانتاج الرأسمالي ضرورة موضوعية. ولكن ذلك لا يعني القبول أو السكوت على تناقضاته ونتائجه المدمرة للمنتجين (للعمال وصغار المنتجين) وللبيئة، بل نحن نمثل، داخل هذا النمط، **القطب المضاد للرأسمال**، القطب الذي ينبغي له ان يلجم، بحدود الممكن (حدود القوى الفعلية) ميول الرأسمال في مجال: **الاستثمار** الاجور، وجهة التطور، حدود السلطة، الخ الخ).

ان الانتقال إلى برنامج كهذا يتطلب شجاعة كبيرة هي مُضمَرة في برنامجنا السابق.

ان مرحلة الثورة الديمقراطية ليست سوى مرحلة رأسمالية. ويمكن للطبقة العاملة في ضوء الخبرة التاريخية، والمنهجية الماركسية، ان تدرك، بعمق أكبر من أية طبقات اجتماعية أخرى، طبيعة وأشكال وحدود تناقضات نمط الانتاج هذا، وان تسهم في تطويره وان تناضل، في الوقت نفسه، من أجل **اقصى لجمٍ ممكن لميوله المعادية للانسان والبيئة**.

ان الرأسمالية، كطور، هي بمثابة المطهّر الذي لابد منه. كأس الدواء المر الذي ينبغي تجرعه لتحضير بلداننا، هذه الكسور الصغيرة، للعملية التمهيدية المفضية إلى عالم الاشتراكية.

ان الصياغة الصائبة لبرنامج كهذا يستدعي اجراء مراجعة جريئة ايضاً لمصادرنا الايديولوجية وتوسيعها لتشمل ليس فقط ماركس، انجلز، لينين، بل ايضاً روزا لكسمبورغ، بليخانوف، كاوتسكي، غرامشي، بوخارين، لابريولا، مهرنغ، لابيكنخت (من الكلاسيكيين) وان تتوسع راهناً لتنفتح على كل انجازات المفكرين الماركسيين من الاتحاد السوفييتي إلى المجر والمانيا والصين، وفرنسا، وايطاليا وغيرها.

ان هذا يستدعي اعادة النظر بالتثقيف السياسي والفكري ومصادره. سيلاقي ذلك معارضة شديدة، خصوصاً وان وضع حزبنا ينطوي على صعوبات بالغة.



الشيوعيون في معترك العصر

د. سعاد خيري

تجتاز البشرية منعطفاً حاداً بفضل الثورة العلمية التكنولوجية التي أخذت تحطم جميع العوائق التي تقف في طريقها من أنظمة متحجرة وحدود دول سفكت سيولاً من الدماء لتثبيتها عبر الاجيال ومفاهيم ترسخت بفضل صحتها في زمانها أو بسبب القصور الذاتي لدى الانسان وتشبثه بالماضي، وتقضي على تقاليد الرضى بالنفس والاقتناع بالحدود الحالية في تلبية الحاجات اليومية، وتهدم أساليب اعادة انتاج طريقة الحياة السائدة... انها تهدم كل ذلك وتعمل على تثويره وتمزق العقبات التي تعيق انتشار منجزاتها والتطوير الكلي لجميع جوانب الحياة لعموم البشرية.

ان الطابع الثوري لتعميم استيعاب الثورة العلمية التكنولوجية تشوبه اندفاعات تدميرية بسبب التخلف الذي أصاب النظرية والتطبيق في البلدان الاشتراكية الذي أدى إلى تقويض هذه النظم من ناحية وترك منجزات الثورة العلمية التكنولوجية رهناً بطموحات الرأسمال وفوضويته مما يعرض البشرية إلى هزات الأزمات ومخاطر الحروب التي قد تؤدي بالحياة على الكرة الأرضية. ويتوقف تمتع البشرية عموماً بنعم هذه الثورة على مدى نضج وادراك الجماهير لحقائق العصر واستعدادها للنضال من أجل تحقيق اهدافه ويتحمل الشيوعيون المسؤولية الأساسية في ذلك.

ان أعظم انجاز قدمته الحركة الشيوعية في مرحلتها الثانية (مرحلتها الأولى بدأت بنشوئها حتى ثورة اكتوبر والثانية منذ ثورة اكتوبر حتى اواسط الثمانينات حيث بدأت

مرحلتها الثالثة) ان أعظم انجازاتها بعد ثورة اكتوبر هو مبادرتها إلى تجديد الأنظمة الاشتراكية المتحجرة التي أصبحت أشبه بالاشتراكية الاقطاعية التي تحدث عنها ماركس والتي اساءت إلى مثل الاشتراكية وكبلت الفكر واعاقت استخدام الثورة العلمية التكنولوجية إلا في مجالات محدودة فساعدت الحركة الشيوعية بذلك على انهاء وانقسام العالم إلى معسكرات متناحرة في عصر اسلحة الدمار الشامل الذي لا يزال يهدد البشرية، واطلقت العنان للفكر وحررته من الستر الحديدية التي شيدتها داخل وعي وعقل الانسان الشيوعي ليس في البلدان الاشتراكية فقط بل وفي العالم أجمع، وهيأت الاجواء لانتقال الحركة الشيوعية إلى مرحلتها الثالثة، مرحلة النضوج لتسهم وتعجل في نقل العالم بأمان إلى المرحلة النوعية الجديدة، إلى حضارة انسانية جديدة تقوم على الوفرة التي تهيؤها الثورة العلمية التكنولوجية وتحرر الانسان من قيود الحاجة والاغتراب وعندئذ لن تعود هناك حاجة للحركة الشيوعية فتضمحل اسوة بجميع الحركات السياسية المعاصرة التي فرضت وجودها علاقات الانتاج التي تتناسب مع مستوى قوى الانتاج لما قبل الثورة العلمية التكنولوجية.

لقد درأت عملية التحويل الجارية الآن رغم كل سلبياتها احتمال استمرار تلك الأنظمة في تدهورها في ظروف الحرب الباردة والتوتر العالمي مما كان يغري البلدان الرأسمالية المتطورة بالحرب... صحيح انها لم تستطع ان تهيء البديل الأفضل لأن ذلك مستحيل بدون تهديم العوائق القديمة... وصحيح ان ما يجري مؤلم للجميع لأنه مع القديم السيء يذهب الكثير من المنجزات الرائعة وما نعتقد بأنها رائعة لأنها كانت تساعدنا على التمسك بما كنا نؤمن به وما كنا نمجده ونعتمد عليه ويخفف الاعباء عنا ويرسخ أوهامنا بقرب انتصارنا.

ان ما يحدث الآن انتصار مؤقت للرأسمالية بقربها من نهايتها أسوة بكل انتصار حققته منذ نشوئها. فاستيعاب الثورة العلمية التكنولوجية على النطاق العالمي بدون عوائق وخنادق وانتفاء الحاجة إلى سباق التسلح وفي ظروف المنافسة الرأسمالية يهيء القاعدة المادية للقضاء على الرأسمالية وانتقال العالم أجمع إلى مرحلة حضارية أعلى.. ومن أقرب الأمثلة على ذلك استخدام الطاقة النووية للاغراض السلمية فقد عرقلت الشركات الاحتكارية النفطية استغلال الطاقة النووية للاغراض السلمية زهاء نصف قرن كان بامكان البشرية خلالها ان تتقدم بخطوات أسرع نحو مجتمع الرفاه بفضل الطاقة النووية الرخيصة وتطوير استخداماتها. ولكن في الفترة الأخيرة ومع انتهاء الحرب الباردة وتلكؤ سباق التسلح اشتدت المنافسة بين الرأسمال الامريكي من جهة وكل من الرأسمال الياباني والالماني من جهة أخرى. وميدان الطاقة هو أكثر الميادين حيوية وتأثيراً. وإذ تحدّ جميع مصادر الطاقة الأخرى حدود كمية أو ظروف معينة فالطاقة النووية سواء في الانشطار أو الاندماج ليس لها

حدود. وبدأ السباق بين العمالقة في هذا الميدان. . . وبعد ان هول الرأسمال الامريكي من مخاطر الطاقة النووية عشرات السنين أخذ يشحذ كل وسائل دعائيه ليس للتخفيف من هذه المخاطر فقط بل ولتحويلها إلى منافع للانسانية. فالفضلات النووية كما تلهج شركة C. N. N التلفزيونية الامريكية أقل خطراً على البيئة من فضلات احتراق النفط وغيره من مصادر الطاقة. . . بل ان الفضلات النووية هي منتجات ثانوية يمكن الاستفادة منها في الصناعات الأخرى بما فيها صناعة المعلبات! لا نناقش في ذلك. . . فالمهم بالنسبة للبشرية هو ان الدخول في العصر النووي السلمي بشكل واسع وشامل سينقلها إلى مستوى حضاري جديد تفوق قوته التحويلية دخول البشرية عصر الكهرباء.

ان حقائق العصر تضع أمام الشيوعيين مهمات جديدة وتفرض كفاءات عالية وتتطلب أساليب جديدة وليس الانغماس في التفجع بما يحدث والبكاء على الاطلال والكفر بكل ما آمنوا به والتشكيك بكل المبادىء والسخرية بالمنجزات السابقة والندم على التضحيات التي قدموها افراداً وحركات وشعوباً. . . فلكل تلك الميادين والمنجزات والتضحيات دورها فيما حققته البشرية من تقدم ومهدت لهذه المرحلة بايحابياتها وسلبياتها. . . وكان من الممكن ان تجتاز البشرية هذا المنعطف التاريخي بأقل التضحيات لولا الجمود النظري والاخطاء التطبيقية التي أدت إلى فشل الأنظمة الاشتراكية في تحقيق الانتاجية الأعلى والنظام الاجتماعي الأرقى والحرية والعدالة الاجتماعية الأوفر التي لا تقوم إلا على القاعدة المادية التي يهيؤها استيعاب الثورة العلمية التكنولوجية في بلدانها وبلدان العالم الثالث.

ان الجماهير الديمقراطية من عمال ومثقفين لم تواجه الاحداث الدراماتيكية الجارية في العالم بنفس المرارة وخيبة الأمل التي يواجهها به بعض الشيوعيين فقد استجاب الكثيرون للتحولات الجارية وانغمر في حركات جماهيرية واسعة متعددة الأشكال والأهداف الانسانية وأخذت هذه المنظمات تلعب دورها في السياسة الوطنية والدولية. . . فما على الشيوعيين إلا ادراك حقائق العصر والعمل بثقة لاعداد نفسهم لتحمل مسؤولياتهم التي اختاروها بانفسهم تجاه احزابهم وشعوبهم والانسانية فالزمن لا ينتظر وذلك يتطلب منهم :-

١ - الثقافة الشمولية إلى جانب الاختصاص التي تمكن الشيوعي من النظرة العلمية المتحررة من قيود الايمانية العمياء والتحجر الفكري كما تمكنه من تطوير شخصيته وتعزيز ثقته بنفسه وبقدراته. . ان مواكبته للتطور الهائل في العلوم والتكنولوجيا تجعله أهلاً لاتخاذ المواقف الصحيحة واختيار أساليب ووسائل الكفاح الملائمة لهذا العصر وليس الانطلاق من مقولات وتجارب سابقة ملائمة لعصر آخر، كما تمكنه من رفع انتاجية كفاحه بعض

منجزات الثورة العلمية التكنولوجية ولاسيما في ميدان الاتصالات والاعلام.

٢ ـ تنظيم علاقاته السياسية والاجتماعية والخاصة. فلا يمكن لأي انسان دع عنك الشيوعي ان يعيش ويتطور بدون هذه العلاقات. واذ يحكم هذه العلاقات الترابط والتكامل فضلاً عن التناقض، فان العلاقات السياسية تحتل لدى الشيوعيين المرتبة الأولى. والتنظيم ليس بدعة شيوعية وانما ضرورة حياتية حضارية تطورت مع تطور المجتمع الانساني. فمن خلال التنظيم يجري تطوير المجموعات والأفراد على السواء. حيث يجري تبادل المعلومات والخبر والتجارب وتنسيق الطاقات وتطوير المبادرات والأفكار وتبلور المفاهيم وتنضيج الخطط واستخلاص العبر. فلا حركة سياسية بدون تنظيم سياسي. ولا زالت الحركة الشيوعية ضرورة تاريخية تفرضها المهام التي تواجهها البشرية في مرحلتها الحاسمة هذه. فليس من الصحيح التخلي عن التنظيم الشيوعي وانما يجب العمل على ايجاد أشكال التنظيم الملائمة في الزمان والمكان المعينيين وعدم الجمود على أي شكل بل التطوير الدائب للعملية التنظيمية لتكون عملية ديناميكية محركة لجميع أعضائه ومطلقة طاقاتهم ومبادراتهم. واذ تصاغ الخطوط العريضة لقواعد التنظيم في النظام الداخلي لكل تنظيم فان من مسؤولية المنظمات الابداع في اكساب التنظيم الحيوية المتجددة أبداً بل إنها من مسؤولية كل شيوعي باعتبار التنظيم وسيلته الأساسية لتحقيق أهدافه وتطوير نفسه في نفس الوقت. فقد انتهت تلك المرحلة التي تعوّد فيها الشيوعي على التلقي والامتثال كما يجب ان تنتهي مرحلة التذمر والقاء المسؤولية على الآخرين والانتقال إلى مرحلة النضوج والشعور بالمسؤولية الجماعية والفردية عن الماضي والحاضر والمستقبل.

واذ تشكل دمقرطة الحياة الحزبية مقدمة أساسية لتطوير التنظيم ورفع فعاليته فان ذلك يتطلب قبل كل شيء ان يتمرن الشيوعي بغض النظر عن موقعه الحزبي على ممارسة الديمقراطية والتخلق بها ولاسيما التعود على ابداء رأيه بحرية والاستماع لأراء الآخرين مهما كانت مخالفة لرأيه وان يطبق قرار الأكثرية مع الاحتفاظ بحقه في الدفاع عن رأيه حتى تحسم الحياة موضوع الخلاف أو تتجاوزه وان يمارس حق النقد وان يتقبل النقد. . . انه بذلك يضع الأساس لدمقرطة الحياة الحزبية ويسد الطريق أمام التكتلات والانشقاقات التي يُغذيها ضعف الديمقراطية وسيادة البيروقراطية في الحياة الحزبية.

٣ ـ كانت الجماهير وستبقى مجال نشاط الشيوعي يرفع وعيها كتابةً ودعاية وتحريكاً يتفهم مشاكلها، يعبئها وينظمها، يعلمها ويتعلم منها لأنها هي التي تصنع التاريخ ويتعاظم دورها مع تطور وعيها وتطور الحياة. واذ فرضت الحياة الاجتماعية والسياسية في تطورها تواجد مختلف أشكال التنظيمات السياسية والاجتماعية والمهنية والدينية فلابد للشيوعي من التعامل الديمقراطي معها وتطوير قابلياته في استعمال وسيلة الاقناع وتقديم

المثل في الحرص على القيم الانسانية والاستعداد للتضحية في سبيلها وبذلك يستطيع ان يفيدها ويستفيد منها لما يخدم القضايا العامة الوطنية والدولية والانسانية .

ولا شك بأن الشيوعي يطمح للعيش في محيطه والعمل بين جماهيره ولكن عندما تضطره الظروف للحياة في محيط آخر وبين جماهير أخرى، فان ذلك لا يعفيه من العمل في هذا المحيط الجديد والجماهير الجديدة لأن أهداف الشيوعيين هي أهداف الانسانية جميعاً وفي كل مكان فضلاً عن مهمته في كسب هذه الجماهير للتضامن والتفاعل مع قضايا شعبه ووطنه وبالاضافة إلى تبادل الخبر والتجارب والاغتناء بثقافة الآخرين .

ان الشيوعي بهذه المتطلبات وغيرها وما يتفرع منها يسهم في تجديد حزبه وتجديد الحركة الشيوعية لتنهض بمسؤولياتها في انقاذ البشرية من الدمار وانتقالها إلى مرحلة حضارية جديدة .

براغ ٤/ ٧/ ١٩٩١

تبرعوا لحزبنا دعماً لكفاحه
من اجل
العيش الكريم لشعبنا في
ظل حقوق الانسان وحرياته



دراسة مقارنة لمصر والعراق*

البرجوازية المعاصرة والدولة المشرقية

عصام الخفاجي

النقـاش المتصـاعد حول «التخصيص»[1] (Privatisation) في البلدان العربية منذ النصف الثاني من عقد الثمانينات يعكس حقيقة موضوعية محلية، ساهمت العوامل الدولية في إبرازها.

البعـد الـدولي حظي حتى الآن بمئـات المعـالجات الصحفية والأكاديمية، ومن منطلقات مختلفة ومتباينة، يتمثل بوصول نموذج التطور السوفييتي، الذي جرى التعامل معه كنقيض طبيعي للتطور الرأسمالي على امتداد ستة عقود ونصف، إلى طريق مسدود بعد أن حقق جملة انجازات في ميادين التصنيع والتحديث، واندفاع اللبرالية الحديثة في الاقتصاد والسياسة لتستعيد بريقها بالاستفادة من أزمة النموذج السوفييتي التي بدت واضحة للعيان منذ النصف الثاني من عقد السبعينات. وفضلاً عن ذلك، تجدر الاشارة إلى ظرف مواتٍ آخـر سرّع في استعـادة اللبرالية الحديثة لبريقها في المجتمعات الغربية، هو أن سياسـات دولـة الرفاه الكنزية، بالمعنى الواسع، أي السياسات التي استندت إلى دور تدخلي للدولة الرأسمالية في الحياة الاقتصادية، والتي ارتبطت عموماً بالاحزاب والتيارات الاشتراكية الديمقراطية، أخذت بالتعثر والاخفاق بعد أن تفجرت تناقضاتها الداخلية. لقد حققت تلك السياسـات نجاحات باهرة على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي. لكن استمرار تطبيقها على امتداد أربعة عقود أخذ يهدد بتصاعد التضخم والركود والبطالة، فضلاً عن تفشي البيروقراطية والعسكرة (كأحد منافذ التدخل الحكومي في الاقتصاد).

لَكن هذا الظرف الدولي لم يكن ليؤدي، بحد ذاته، إلى تصاعد حديث «التخصيص» في العالم العربي أو لم

يستند إلى أرضية محلية خصبة يمكن أن نجملها بالفشل الذريع الذي قادت إليه سياسات رأسمالية الدولة (وهي البعد الاقتصادي ـ الاجتماعي المحوري لسياسات المدرسة القومية العربية التي قادت أبرز الاقطار المشرقية العربية طوال العقود الثلاثة الماضية).بدهي أن معايير الفشل قابلة للنقاش وربما كان استخدامنا للتعبير منذ البدء استباقاً لما سيتناوله البحث. لذا سنستعيض عن هذا الحكم بالفشل، موقتاً بالقول أن أنصار التجربة وخصومها على حد سواء يدركون اليوم أنها لا يمكن أن تستمر بوضعها الحالي، وهذا وحده دليل على أن رأسمالية الدولة في البلدان العربية تمر بأزمة سرّعت الحديث عن «التخصيص» ويكفي أن نسوق دليلاً على ذلك، هو أن تجربة الانفتاح واللبرالية الاقتصادية الساداتية في مصر بدأت قبل نضوج الظرف الدولي الذي أشرنا له بسنوات عدة.

غير أن إثارة موضوع «التخصيص» تتطلب شرطاً إضافياً عدا دخول الطريق السابق في أزمة، هو ان امكانية «التخصيص» قائمة في البلدان محل البحث، أي أن تراكماً نقدياً كافياً قد توافر بأيدي مجموعة من كبار المالكين يتيح لهم امكانية الاستحواذ على ما كان ملكية للدولة و / أو الشروع بكل أو بعض النشاطات التي يراد للدولة التوقف عن ادائها.

هذان الشرطان ليسا متطابقين. ان انسداد الطريق الأول هو شرط ضروري، إذا استخدمنا تعبير المنطق الرياضي. لكنه ليس شرطاً كافياً، على عكس حالة الرأسماليات المتقدمة إذ يدور حديث التخصيص هناك حول التوازن الأمثل أو الأكفأ بين نشاط الدولة ونشاط رأس المال الخاص ، انطلاقاً من التسليم بأن الاخير قادر على ولوج الميادين كلها. وعليه فان النقاش يدور حول معايير الأفضلية، من وجهة نظر المجتمع، لإناطة هذا الدور أو ذاك به. أما في البلدان التي تعارفنا على تسميتها بالتابعة أو المتخلفة فان النقاش يدور حول امكانية رأس المال الخاص بمعنيين سنتناولهما تحت عنوانين مستقلين، الأول هو القدرة بمعناها المجرّد العام، أي توافر رؤوس الاموال الكافية بيد الافراد، والثاني القدرة بمعنى أكثر تحديداً ، أي توافر الشروط التي تجعل رأس المال الخاص يتجه إلى نشاطات الانتاج، بحيث يحقق مالم تستطع رأسمالية الدولة، كنظام اقتصادي ـ اجتماعي (انتقالي) تحقيقه .

والأمر الذي يستدعي الانتباه والدهشة، هو أن المتابع للنقاشات الدائرة حول «التخصيص» في سياقه العربي يندر أن يجد معطى وضعياً (امبيريقياً) واحداً يتناول حالة ملموسة. فعدا النقاشات العامة المكتفية بعرض ايجابيات أو سلبيات رأس المال الخاص، أو عروض الافكار المطروحة في حالات الرأسماليات المتقدمة يندر أن تقع العين على دراسة تتساءل، قبل أن تنظر، عن تركيب البرجوازية الخاصة، وأصولها، ومجالات نشاطها وطبيعة تداخل نشاطها مع رأس المال الحكومي، كمدخل إلى التساؤل عن وجود امكانية تحول في الاداء الاقتصادي ـ الاجتماعي[٢] لهذا البلد أو ذاك، إذ يمكن اللجوء إلى منهج وظيفي Functional (عفا عليه الزمن) يقرر، انطلاقاً من محاججة عامة، ايجابية هذا الشكل أو ذاك، انما لا يقود هذا، حتى لو صح أسلوب البرهان، على أن ثمة منطقاً داخلياً يحوّل الشكل الايجابي إلى امكانية قائمة فعلاً[٣] .

إذن يحاول هذا البحث التساؤل عن طابع البرجوازية الخاصة في بلدين عربيين، ربما كانا الأكثر ثقلاً وتأثيراً على محيطها، هما مصر والعراق (قبل الكارثة). كيف نشأت برجوازية «مابعد الثورات»؟ أين

تشكلت؟ ماعلاقتها برأس المال الحكومي؟ ما طبيعة نشاطاتها؟ وصولا إلى التساؤل عن امكانياتها، وبالتالي امكانية أن تقود إلى بديل أكثر عقلا نية وكفاءة من رأسمالية الدولة التي نشأت هذه البرجوازية، كما سنلاحظ في كنفها.

مقارنة أوليـــة:

الانطباع الذي يسود لدى معظم العرب هو أن مصر تعيش تجربة مختلفة كلياً عن البلدان العربية الاخرى التي لم يعلن حكامها رسمياً التخلي عن «اشتراكياتهم» الخاصة. ويعود هذا إلى جملة أسباب، منها ان الانفتاح الساداتي جاء في صورة انقلاب سياسي على بعض رموز النظام الناصري، وترافق مع حملة اعلامية وايديولوجية مضخّمة ضد الاشتراكية، ومنها انه جرى في وقت كان التخلي فيه عن عبارات الاشتراكية يعادل في أعين الكثيرين، الخيانة الوطنية، يضاف إلى ذلك كله أن مصر كانت، في ذلك الوقت، أول بلدٍ رفع شعاراً اشتراكياً (أياً كانت مصداقية الشعار) ثم تراجع عنه.

لهذا ولأسباب اخرى منها العلنية النسبية التي تتمتع بها مصر توحي النقاشات الدائرة في صحافتها عن «القطط السمان» و«البرجوازية الطفيلية» بواقع يبدو مختلفاً ظاهرياً عن البلدان الأخرى، ولاسيما العراق الذي تسيطر الدولة فيه على موارد نفطية ضخمة، وبالتالي على امكانيات تمويل كبيرة لمشاريع تابعة للقطاع الحكومي.

ولكن بعد حوالي خمسة عشر عاماً على الانفتاح المصري قد يفاجأ القارىء بأن القطاع الحكومي لايزال يسيطر على مايقرب من ٧٠٪ من الناتج المحلي الاجمالي[٤] وان مساهمة قطاع الدولة لا تزال تمثل ٦٥٪ من اجمالي انتاج الصناعة التحويلية المصري[٥]، ولا يزال هذا القطاع يمتلك ويدير ١٣٥ شركة ومؤسسة كبيرة. أما في العراق فقد بلغت مساهمة الدولة في الناتج المحلي الاجمالي بحدود ٦١,٧٪ في آخر عام تتوافر عنه الاحصاءات (١٩٨٧)، علماً ان اجراءات تصفية التدخل الحكومي في الاقتصاد ابتدأت في ذلك العام فقط لتتسارع في الأعوام اللاحقة، أما مساهمة القطاع الحكومي في الصناعة التحويلية فقد بلغت حوالي ٨٠٪ في ذلك العام[٦]، علماً ان هذه النسبة لا تعكس توزع الملكية الفعلية، نظراً لتوقف كثير من معامل القطاع الخاص عن العمل خلال عامي ١٩٨٦ ـ ١٩٨٧ بسبب عدم توافر المواد الأولية وقطع الغيار بعد أن شحت العملات الصعبة، ولو تناولنا هذه النسبة الاخيرة لفترة مبكرة لا تعكس التقلبات الناجمة عن الحرب العراقية ـ الايرانية من جهة، وتمثل ذروة الحديث عن التطبيق الاشتراكي من جهة أخرى، لظهرت مساهمة قطاع الدولة في الانتاج الصناعي التحويلي ٦٨,٨٪ عام ١٩٨١ و٥٩,٢٪ في عام ١٩٨٢[٧].

تقدم هذه المعطيات صورة مقارنة أولية، لكنها تدل على مواطن ضعف البرجوازية العربية وحدودها من خلال حالتي مصر والعراق، وهو ما سيتضح في مجرى بحثنا. ففي كلتا الحالتين، لا يمكن التشكيك بالتزام الدولة بتشجيع الرأسمالية المحلية الذي عبّرت عنه وثائقها الرسمية، فضلاً عن القوانين والتشريعات والتصريحات. ومع هذا لا تزال الدولة تستحوذ على ثلثي الناتج المحلي الاجمالي. وفي كلتا الحالتين نجد القطاع الذي تتحدد عبره هيمنة رأس المال، أي الصناعة التحويلية، خاضعاً بنسبة أكبر

إلى ملكية الدولة، مما يعني أن رأس المال الخاص يحقق ثرواته وسطوته في ميادين اخرى بالدرجة الأولى، وهنا علينا التساؤل عما إذا كان ثمة مسار محدد يحكم حركة رأس المال الخاص؟ ولماذا يتجه في هذا المسار، إن وجدنا الجواب موجباً على التساؤل الأول؟ من هذه الأسئلة الجزئية، يمكن أن نصل إلى مقاربة لسؤال أكثر أهمية وشمولاً، هو ما الفرق بين ما يجري في ظل راسماليات الدولة وبين ما جرى في ظل النظم الملكية؟ أو ان أردنا صياغة السؤال بشكل أكثر دقة : ما الذي حققته الثورات على النظم الملكية؟ وما طبيعة النظم التي أقامتها؟

مقاربة سوسيولوجية:

سنبدأ أولاً بتحليل المعطيات المتوافرة عن المتنفذين الكبار في الحياة الاقتصادية في كل من مصر والعراق خلال عقدي السبعينات والثمانينات، ثم نسعى لمقارنة هذه التشكيلة مع طبيعة نشاط «قدامى الاثرياء» في العهدين الملكيين، من حيث الحجم، ومجالات النشاط، والعلاقة مع الدولة وجهازها، فضلاً عن مقارنة الأصول الطبقية لكلتا المجموعتين.

وبودنا تحذير القاريء سلفاً، من أن مهمة كهذه لايمكن أن تتحقق بدقة كاملة، وبخاصة في الظروف القائمة التي تجعل معطيات كهذه محاطة بسرية كبيرة من جهة، ويتعذر حصرها فعلاً من جهة أخرى لأسباب تتعلق بالطابع المضارب وغير القانوني (أو غير المسجل رسمياً) لكثير من النشاطات، لاسيما حين يتعلق الأمر بالعوائل المتحكمة في الحياة السياسية .

بالنسبة للطبقات والفئات القديمة المتنفذة في مصر والعراق تتوافر لدينا مادة قابلة للتحليل بدرجة معقولة من الدقة[8] . أما بالنسبة «للطبقات الحديثة» فثمة عملان رئيسيان يتعلقان بمصر[9] (مع أن الاسلوب الذي سيلجأ له هذا البحث قد يخضع منهج التصنيف المتبع فيهما إلى التساؤل) في حين تطلّب إعداد حصر مماثل لحالة العراق جهداً أكثر تفصيلاً بدأ منذ حوالى العقد، وتم عرض بعض نتائجه الأولية قبل سبع سنوات[10] . (انظر الملحق حول وسائل ومصادر إعداد حصر الفئات المتنفذة الحديثة في العراق) .

في حالة مصر الحديثة، أي مابعد الانفتاح، قامت الباحثة سامية إمام بالتركيز على حالة الشركات المساهمة التي تم تسجيلها منذ عام ١٩٧٥ بالاستفادة من قانون رقم ٤٣ لسنة ١٩٧٤ ، وهو القانون الذي يعد أحد معالم سياسة الانفتاح الإقتصادي الساداتية، وقد استطاعت الباحثة حصر ٥٣٤ مشروعاً تأسست خلال الفترة ١٩٧٥ ـ نهاية ١٩٨٢ بلغ اجمالي رؤوس الأموال المستثمرة فيها ١٩٥٢,٦ مليون جنية مصري . وبرغم أن هدف قوانين الانفتاح كان جذب رأس المال العربي والعالمي للمساهمة في تطوير الاقتصاد المصري، إلا أننا نفاجأ بأن مساهمة رأس المال المصري في هذه الاستثمارات بلغت ١٣٦٣ مليون جنيه، أي بنسبة ٦٩,٨٪. وأكثر من ذلك ففي حين نتوقع ان دور قطاع الدولة آخذ بالاضمحلال وان رأس المال الخاص هو المبادر بعملية الاستثمار نكتشف أن أكثر من نصف رؤوس الأموال المصرية (٥٣,٢٪) المستثمرة في هذه الشركات تعود إلى قطاع الدولة (٧٢٥,٥ مليون جنيه). والمعلومات المتاحة عن الفترة اللاحقة تميل إلى تأكيد دور رأس المال المصري، مع تراجع لحصة مساهمة

الشركات العامة. فخلال ١٩٨٣ ـ ١٩٨٤ كانت مساهمة رؤوس الأموال المصرية في الشركات الجديدة تبلغ ٧٧,٦٪، لكن حصة رأس المال العام من الأموال المصرية لم تتجاوز ٣١٪[١١].

بالطبع، لا تمثل كمية رؤوس الأموال التي استثمرها رأس المال المصري الخاص (٦٣٧,٥ مليون جنيه) سوى جزء من سطوته الاقتصادية ـ الاجتماعية على حياة المجتمع المصري منذ السبعينات، فبرغم توافر الاطار السياسي والقانوني والمؤسسي المواتي للنشاط المنظم من جانب الرأسمالية المصرية، تميل الاخيرة إما إلى الاحجام عن المساهمة في هذه الاشكال أو إلى توظيف جزء يسير من رؤوس أموالها فيها إلى الحد الذي يمكنها من التحرك بحرية لممارسة نشاطات أخرى، ولعل هذا النوع من النشاطات هو الذي يكمن وراء النقاش المزدهر في الأدب الاقتصادي (والسياسي) المصري حول البرجوازية الطفيلية[١٢].

أدب اقتصادي مزدهر، لكنه لم يقدم معرفتنا، كما سنبين في مجرى البحث، بطابع التشكيلات السائدة في منطقتنا، برغم الجهد المبذول في محاولة فهم هذا الواقع، إذ لا نزال في إطار وصف الواقع المعاش، ولم نتقدم إلا قليلاً نحو تحليل وتفسير وتنظير هذا الواقع، برغم. ان الدراسات الوضعية باتت تسمح بالتقدم نحو التفسير وسنبين أدناه نقاط التقدم التي تحققت والحدود التي توقف البحث عندها.

يتوصل بحث سامية إمام إلى أن «رأسمالية السبعينات رأسمالية مهجنة ذات روافد وأصول متعددة... بعضها ينتمي إلى ماقبل ثورة يوليو (رأسمالية تقليدية) والبعض الآخر تمخض عن فترة الستينات (البرجوازية البيروقراطية) والبعض الثالث أفرزته حقبة السبعينات (الرافد الطفيلي)» (ص ٢٢٣). لكن المشكلة تكمن في تحديد معنى كل من المصطلحات الواردة في الاستنتاج أعلاه ولاسيما معنى «الطفيلية» هل تشمل نشاطاً دون آخر، أو بتعبير أدق هل تعني النشاط الذي لا يساهم في عمليات الانتاج المادي؟ وثانياً هل «الطفيلية» وصف لفئة دون اخرى؟

ان كل الباحثين الذين قدموا تحديداً لمفهوم الطفيلية كانوا مضطرين إلى إضافة جملة من الاستدراكات والتحفظات على تحديداتهم، بسبب هلامية التعبير. ولأننا هنا في معرض حصر فئة من الاسماء والجماعات التي تخضع إلى هذه الفئة أو تلك يصبح تحديد المفهوم شديد الأهمية، وعلى هذا يعرض البحث ما يسميه «الخصائص العامة للانشطة الطفيلية» بالشكل التالي (ص ١٢٤ ـ ١٢٥):

١ ـ السعي إلى الربح السريع والتركيز على الانشطة قصيرة الأجل والميل إلى تراكم رؤوس الأموال تراكماً سريعاً.

٢ ـ هذا السعي يستخدم كافة الطرق المشروعة أو شبه المشروعة.

٣ ـ التركيز على الأنشطة الخدمية... وعدم ربط رأس المال بأصول ثابتة انتاجية...

٤ ـ الارتباط بالمصالح الاجنبية وبصفة خاصة في إطار الوكالات التجارية والسمسرة والوساطة.

٥ ـ إن العناصر الطفيلية لا تكتفي بالضمانات والتسهيلات والمزايا التي منحها قانون استثمار رأس المال العربي والأجنبي.... بل انها تتفنن في كيفية الاستفادة من كل الثغرات التي تضمنها هذا القانون بل ويمخالفته أحياناً.

من الصعب اعتبار الخصائص المعروضة أعلاه تعريفاً. فمن وجهة نظر رأس المال تعد هذه النقاط قواعد السلوك الاقتصادي الذكي أو الرشيد، انما ينبغي أن يدور السؤال حول الشروط التاريخية والبنيوية التي تجعل النشاطات الأكثر ربحية مرتبطة بمصالح أجنبية، أو ذات طابع خدمي لا يربط رأس المال بأصول انتاجية ثابتة. إن الأصول الثابتة، والتوجه نحو النشاط المنتج، ليست أهدافاً بحد ذاتها من وجهة نظر رأس المال اينما كان، بل الهدف هو تحقيق الربح، وعليه فان الخصائص المعروضة هي في الواقع عرض للنشاطات الأكثر ربحية في المجتمع المصري خلال عقدي السبعينات والثمانينات. وهو ما سنؤجل مناقشة اسبابه إلى نهاية البحث.

وعلى المستوى الوضعي تبرز مشكلة اضافية في تحديد هؤلاء الطفيليين باستثناء بضعة أسماء شديدة الشهرة بحكم الفضائح التي أثارتها مثل توفيق عبد الحي ورشاد عثمان وآخرين. ومن المؤكد أن خصائص النشاط الطفيلي المعروضة سابقاً لا تمثل نقطة انطلاق صالحة لتحديد الطفيليين، أي للقول بأن الرأسمالي س ينتمي إلى الرافد الطفيلي لأنه يمارس السمسرة، ذلك أن حصة كبيرة من التوكيلات التجارية للمؤسسات الاجنبية، على سبيل المثال، استحوذ عليها المنحدرون من الرأسمالية التقليدية، وفضلاً عن ذلك، فان هذا الرافد هو بالتعريف، رافد «الاثرياء الجدد» الذين حققوا صعوداً سريعاً خلال فترة لا تتجاوز العقد، الأمر الذي يجعل العودة إلى مواقع سابقة لهم في الحياة الاقتصادية أو السياسية أمر غير ممكن، وأخيراً فان طبيعة هذه النشاطات تقوم على الاحتفاظ بكم نقدي سائل، لذا فان اسماء القائمين بها لا تظهر في شركات، وهي إن ظهرت لا توظف رؤوس أموال ضخمة فيها. من هنا كانت أحكام القضاء مصدراً ومثلا للتعرف على «الطفيليين» ونشاطهم، وسنلاحظ ان هذه القضية أكثر تعقيداً بكثير في حالة العراق.

تتجه هذه الفئة، كما تشير الدراسة إلى تسجيل نشاطاتها في صورة شركات أشخاص (أي شركات التضامن أو شركات التوصية البسيطة أو شركات المحاصة) ولا تتجه إلى شركات الأموال (الشركات المساهمة، أو شركات التوصية بالأسهم أو الشركات ذات المسؤولية المحدودة) وحتى حين تتجه إلى شركات الأموال فانها تنشؤها كشركات عائلية مغلقة لحفظ أسرار العمل. ولهذا كله تورد الكاتبة خمسة نظم أساسية فقط لشركات يساهم فيها رأس المال الطفيلي. ونلاحظ من خلال هذه النظم أن بعض الشركات المؤسسة ذات أهداف سياسية أكثر منها اقتصادية بمعنى انها قد لا تكون شركات تحقق ربحاً (دار مايو للنشر مثلاً) بل تسعى لتوثيق العلاقات مع قمة الهرم السياسي (يساهم أنور السادات والرئيس بارك بسهم واحد لكل منهما في هذه المؤسسة).

ولكن هل نجحت الدراسة في ابراز وجود رافد متميز في الرأسمالية المصرية اسمه الرافد الطفيلي؟ لا تكمن أهمية اثارة السؤال في التقليل من قيمة الانجاز الذي قامت به الباحثة، بل في أنه يفسح المجال مام مناقشة قضية شديدة الخطورة هي العلاقة بين الطبقة المسيطرة اقتصادياً وبين السلطة السياسية جهاز الدولة في بلداننا، وفي العالم الثالث بوجه عام. كيف؟

من بين ٤١٤ شركة مساهمة تمت دراستها، اتضح ان ٥٩٪ منها (٢٤٤ شركة) شركات عائلية منها ١٤٠ شركة تسيطر عائلة أو اثنتان على أكثر من ٢٠٪ من اسهمها لكل عائلة (ص٢٠٧). ومن الطبيعي

والحالة هذه الا تكون الصفة العائلية مميزة لجناح دون آخر من هذه البرجوازية، بل سمة تميز النشاط الرأسمالي عموماً في هذا الظرف.

من جهة أخرى، نلاحظ أن استخدام وصف «الطفيلي» لايراد منه تمييز طبيعة النشاط الحالي الذي يقوم به هذا الرافد، بل الأساس الذي انطلق منه وكون تراكمه النقدي تمييزاً له عن الرافد الرأسمالي التقليدي وعن البرجوازية البيروقراطية التي عرفتها الدراسة (ص ٨٢) بأنها «تلك العناصر التي تقلّدت مناصب ومراكز ووظائف داخل جهاز الدولة والقطاع العام واستفادت من التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي انتابت المجتمع المصري في فترة الستينات واستطاعت ان تحقق من ورائها ثروات طائلة إلى أن أصبحت ركيزة اجتماعية ضاغطة من أجل التحول نحو فلسفة الاقتصاد الحر والمطالبة بفتح المجال أمام رأس المال الخاص».

قد تبدو فئة «البرجوازية البيروقراطية» أكثر قابلية للحصر بحكم هذا التعريف. لكن قائمة بـ ٢٩ اسماً أو عائلة ممن يُفترض انتماؤهم إليها تقود إلى طمس امكانية رسم الحدود بينها وبين الرافد الطفيلي، لأسباب لا تتعلق بقدرة الباحثة، بل بغموض موضوعي يحيط بمفهوم «الطفيلية» نفسه. فعدا عن وجود اسمين لم نتعرف على المناصب التي تقلداها خلال الستينات، ثمة خمسة أسماء ترتبط بعلاقة عائلية مع موظفين كبار (ابناء أو اخوة) وبالتالي فمن الصعب التعرف على المعيار الذي يجعل عصمت السادات (شقيق أنور السادات) ضمن الرافد الطفيلي في حين يصنف آخرين ضمن الرافد البيروقراطي. وفضلاً عن ذلك، إذا كان المقصود بالبرجوازية البيروقراطية، أولئك المستفيدون من مواقعهم الوظيفية في جهاز الدولة، فاننا ازاء ظاهرة أكثر تعقيداً. ففي القائمة المشار لها ثمة أساتذة جامعيون مهندسون يمتلكون مكاتب استشارية وهو واحد من فروع النشاط عالية الربحية (أو المردود) في مصر والعراق وكل البلدان التي شهدت حركة بناء واسعة، ومن المتعذر اعتبار الانتماء إلى سلك التدريس الجامعي مدخلاً إلى الثروة، أو موقعاً بيروقراطياً[١٣].

لا يكمن الخلل، كما نظن في أسلوب التصنيف الذي يتبعه هذا الكاتب أو ذاك، بل في الاطار المفاهيمي الذي تقيد به التيار الأوسع من الباحثين الماركسيين العرب بوجه عام، والمصريين بوجه خاص، والذي ينطلق من أن خللاً ما أصاب ثورة يوليو (والثورات المشابهة الاخرى في البلدان العربية) هو المسؤول عن ولادة رأسمالية جديدة من صلب هذه الثورات وبالتالي فيجب البحث عن هذا الخلل إما في استغلال المسؤولين لمواقعهم الوظيفية (وهو بالطبع حاصل فعلاً) أو في دس الرأسماليين القدامى لابنائهم في المؤسسات السياسية والاقتصادية والادارية الجديدة للتأثير عليها... الخ وحتى حين يتم الحديث عن أن هذه الثورات افسحت المجال أمام نمو الرأسمالية، فان هذا الحديث يترافق في العادة مع افتراض، مضمر أو صريح بأن ثمة مساراً كان على هذه الثروات أن تقطعه، لكنها إما انحرفت عنه أو توقفت في منتصفه. نشير على سبيل المثال، إلى عمل أوبرايان المبكر[١٤] الذي انتقد من يستخدمون مصطلحات «تقليدية» لوصف النظام المصري، وكان مجمل تحليله قائماً على افتراض استمرار التحول التدريجي في المجتمع، أما محمود عبد الفضيل، الذي كتب بعد عقد من وفاة عبد الناصر، فانه يفتتح

الفصل السابع من كتابه باستشهاد ذي دلالة من سانت جوست «من يقود الثورة إلى منتصف الطريق يحفر قبره بيديه»[١٥] .

حين نتجاوز نوايا وأهداف قادة الثورات وخطابهم الايديولوجي، وننطلق من أن الحصيلة الموضوعية للثورات تمثلت في نشر التطور الرأسمالي وتوسيع قاعدته، بمعنى جعل جمهرة أوسع من الناس ذات مصلحة فيه، فبوسعنا اعادة صياغة أسئلة «روافد» الرأسمالية الجديدة على النحو التالي: ما الشكل الذي اتخذته عملية التطور وكيف تم توسيع السوق الداخلية؟ الاجابة على هذا السؤال تقودنا إلى التعرف على الفئات الاجتماعية التي توسع الطلب على خدماتها. فمن خلال التوسع في حركة البناء، والاستثمارات الضخمة التي قامت بها الدولة، وعملية النمو التي تحققت لصالح المدينة على حساب الريف عموماً، باسم التصنيع، كان الطلب يتزايد على نشاطات المقاولين والمهندسين والاستشاريين وقد انتقل مركز الثقل في نشاط الرأسمالية إلى هذا الجناح بالضبط. كما أن دولنة النشاطات الاقتصادية واتساع الملكية الحكومية للوحدات الصناعية جعل الطلب على الوظائف الهندسية في الجهاز البيروقراطي يتصاعد بحدة (بعد ان كان الحقوقي هو البيروقراطي النموذجي في ظل الدولة المكتفية بوظائف إدارية) .

خلال فترة تنفيذ الخطة الخمسية الاولى ارتفعت النفقات العامة في مصر من ٥٠٠ مليون جنيه عام ١٩٦٠ إلى ١٢٠٠ مليون جنيه عام ١٩٦٦ .وترافق مع ذلك ارتفاع عدد الموظفين مرتين ونصف خلال الفترة ذاتها[١٦] . ويلاحظ عادل غنيم ارتفاع عدد الوظائف العليا في قطاعي الخدمات والأعمال الحكومية أي من دون حساب شركات القطاع العام خلال الفترة ١٩٦١ ـ ١٩٦٧ بنسبة ٦١٪ وقد أدى ذلك إلى ارتفاع عدد الوظائف التخصصية (وظائف الكادر الفني العالي) والفنّية (الكادر الفني المتوسط) والتنظيمية والمكتبية بنسبة ٤٥٪[١٧] . وهكذا ففي نهاية الستينات شكل المهندسون أكثر من نصف عدد المديرين على رأس الشركات العاملة في مجالات الصناعة والاسكان والمرافق العامة والنقل.

هذا التوسع بحد ذاته لا ينشيء برجوازية، بالمعنى الدقيق للكلمة، بل فئة بيروقراطية متميزة إذا لم يترافق مع إطار أوسع في المجتمع يسمح بتكثير التراكم النقدي المتاح للبيروقراطية (سواء بطرق قانونية أو غير قانونية) أو يسمح لها بتحويل نفوذها الاقتصادي والسياسي في جهاز الدولة إلى موقع اقتصادي خارجها، وقد تمثل هذا بالضبط في أن «القطاع الخاص المصري قام بتنفيذ ٧٠٪ من اجمالي عمليات التشييد التي تبلغ قيمها ٧٠٠ مليون جنيه وتكون ٤٧٪ من اجمالي استثمارات الخطة الخمسية الأولى ١٩٦١ / ١٩٦٥»[١٨] . اما في عام ١٩٨٠ فينقل غنيم عن محمد حسنين هيكل أن قيمة مجمل مشروعات خطة ذلك العام بلغت ٣٩٠٠ مليون جنيه، شكلت قيمة الانشاءات والتشييد منها ١٥٠٠ مليون جنيه وإن نصف المبلغ تماماً أحيل إلى شركات «المقاولون العرب» (عثمان أحمد عثمان) بدون عطاءات وبأوامر تكليف أو أوامر من «الجهات العليا»[١٩] .

في العراق كان المسار الذي اتخذته عملية التطور المدولن متطابقاً مع المسار المصري، بفارق أن حصة القطاع الخاص في عملية البناء كانت أكبر من ذلك بكثير. فطوال عقد السبعينات تسارع معدل الاستثمارات الحكومية المركزية من متوسط ٧١,٧ مليون دينار خلال ١٩٦٨ / ١٩٦٩ إلى ١٢١٤,٦

مليون دينار سنوياً خلال الفترة ١٩٧٥ ـ ١٩٧٧[٢٠] وارتفع تكوين رأس المال الثابت الاجمالي من ٢٨٨,٦ مليون دينار عام ١٩٧٣ إلى ١٥٣٧,٥ مليون دينار عام ١٩٧٨ وبرغم ظروف الحرب مع ايران، والكساد الذي ابتدأ منذ أواسط الثمانينات استمر هذا المعدل بالارتفاع ليبلغ ١٩٧٧,٤ مليون دينار عام ١٩٨٧[٢١]. وفي حين كان متوسط مساهمة القطاع الخاص في قطاع البناء والتشييد يبلغ ٩١٪ حتى عام ١٩٨١ ارتفعت حصته لتبلغ ٩٣,٥٪ عام ١٩٨٣.

في هذه العملية بالضبط ينشأ التحالف الاجتماعي المميز لرأسمالية الدولة، الذي يسمح لنا تحليل مكوّناته بفهم علاقته بالرأسمالية السابقة (المسماة تقليدية) والرأسمالية اللاحقة (الانفتاحية بالتعبير الجاري).

عقدان من الرسملة:

لاتتبين سعة وتعمق التطور الرأسمالي من خلال معاينة أو تحليل كبار الرأسماليين في هذه الفترة أو تلك، إنما يبرز كبار الرأسماليين من داخل الوسط الأكثر استفادة من عملية التطور في كل فترة، وهو وسط قد لا تستفزنا مظاهر ثرواته أو نفوذه، لكنه ينتشر أفقياً ليغزو معظم مسامات المجتمع، وهنا بالضبط يكمن الفارق الجوهري بين المجتمع الرأسمالي والمجتمع قبل الرأسمالي. ففي المجتمع الأخير، سواء أكان عالماً ثالثياً أم أوروبياً ثمة رأسماليون كبار، لكن نشاطهم لا يمتد لرسملة قطاعات أخرى خارج حدود منشآتهم، وهذا ما يعطي مجتمعاً كهذا مظهر الاستقطاب الحاد بين اغنياء وفقراء لا ينتظمهم هرم اجتماعي يتوسط بين القمة والقاعدة، أما المجتمع الرأسمالي المتقدم أو المتخلف، فيتميز بهذا الحراك الاجتماعي الواسع الذي تنتقل فيه فئات من قعر الهرم إلى وسطه، وأخرى من الوسط إلى القمة. وهنا يثار السؤال، كيف جرت هذه العملية في مصر والعراق؟ وما الشكل الذي اتخذته؟

كان هاجس كل الثورات التي قامت في بلداننا خلال الخمسينات والستينات هو التصنيع والتحديث والقضاء على البنى قبل الرأسمالية، ولاسيما في الزراعة. ولم تكن هذه مجرد آراء نخب حاكمة، بل جاءت تعبيراً عن سياق تاريخي محدد تمثل في أزمة الاشكال قبل الرأسمالية، أزمة تمثلت في تدهور شروط معيشة الفلاحين، والهجرات الهائلة التي شهدتها أرياف مصر والعراق عشية الثورات. هكذا ارتفع عدد سكان الحضر في مصر من ٢٨,٢٪ من اجمالي السكان عام ١٩٣٧ إلى ٣٣,٥٪ عام ١٩٤٧ و٣٨٪ عام ١٩٦٠ في حين ارتفعت نسبة سكان القاهرة إلى اجمالي السكان خلال الفترة ذاتها من ٨,٦٪ إلى ١٢,٤ و١٤,٥٪[٢٢]. أما في العراق فقد ارتفع عدد سكان ثلاث محافظات فقط من مجموع ١٤ محافظة هي بغداد والبصرة وكركوك من ١,٤ مليوناً عام ١٩٤٧ إلى ٢,٢ مليونا عام ١٩٥٧ (علماً ان عدد سكان العراق بلغ ٤,٨ مليوناً و٦,٣ مليوناً على التوالي)، وبلغ سكان مدينتي بغداد والبصرة وحدهما ٨٩٠ ألفاً عام ١٩٥٧[٢٣]. من هذا الوسط ومن الحراك الناجم عن اتساع التعليم واتساع جهاز الدولة (وبخاصة المؤسسة العسكرية)، من نشوء فئات اجتماعية تشعر بأن طريق صعودها اقتصادياً و / أو سياسياً واجتماعياً مسدود بفعل احتكار قمم الاقتصاد والسياسة العليا من مجموعة لاتترك مجالاً لغيرها،

ولا تستطيع توسيع إطار نشاطاتها بما يدمج هذه الفئات ضمن دائرته، من هذا الوسط او في هذا السياق تنشأ الضغوط من أجل التصنيع والتحديث.

ويغض النظر عن المآل الذي قادت إليه جهود التصنيع فإن الاتساع المذهل في أعداد الحرفيين وصغار الصناعيين من جهة، وفي أعداد المقاولين من جهةأخرى مؤشر مهم على النجاح المتحقق في خلق فرص ربح وتوظيف متسعة لفئات كان مأزق التطور السابق يهمشها. وجاء احتكار التجارة الخارجية (جزئياً أو كلياً) بيد الدولة ليدفع رأس المال الخاص باتجاهات اخرى. هكذا نفهم كيف أن البلد العربي الأكثر تطوراً صناعياً، أي مصر، شهد اتساعاً في الصناعات الصغيرة بحيث مثلت هذه المنشآت الصغيرة عام ١٩٧٩ نحو ٩٦٪ من اجمالي عدد المنشآت في قطاع الصناعة، يعمل بها أكثر من ٤٥٪ من العاملين في مجمل الصناعة التحويلية وتحقق قيمة مضافة تساوي ٣٠٪ من اجمالي القيمة المضافة المتحققة في الصناعة[٢٤]. وتتقارب هذه النسب بشكل مذهل مع مثيلتها في العراق عام ١٩٧٨ ، إذ كانت المنشآت الصناعية الصغيرة تشكل ٩٦,٤٪ من اجمالي عدد المنشآت في قطاع الصناعة، وتشغل ٣٩٪ من اجمالي العاملين فيه وتحقق ٣١,٣٪ من القيمة المضافة في الصناعة التحويلية[٢٥] .

وفي قطاع المقاولات ارتفع عدد منشآت البناء والتشييد الخاصة في مصر من ١٦٦٤ عام ١٩٧٤ إلى ٢٣١٩ عام ١٩٧٩[٢٦]، في حين ارتفع عدد المقاولين المسجلين في العراق من ٨٢٨ عام ١٩٧٠ / ١٩٧١ إلى ٢٧٨٨ عام ١٩٧٤ / ١٩٧٥[٢٧] .

من هو المحفز الأساسي لهذا التطور؟ أو من اين جاء الطلب الأكبر على منتجات وخدمات هذه الفئات المتسعة؟ يتبين الجواب من الحقيقة التالية : خلال عقدين امتدا بين أوائل الخمسينات وأوائل السبعينات ظلت نسبة الانفاق الاستثماري إلى الناتج المحلي الاجمالي قليلة التغير في كل من مصر والعراق، ففي الأولى كانت هذه النسبة ١٣,٧٪ عام ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣ انخفضت إلى ١١,٩٪ عام ١٩٧٢. أما في العراق فكانت النسبة ١١,٧ عام ١٩٥٢ ارتفعت إلى ١٤,٧٪ عام ١٩٧٢[٢٨]. لكن التطور المذهل تحقق في الاستهلاك الحكومي الذي ارتفع خلال الفترة ذاتها في مصر من ١٦,٤٪ إلى ٢٦,٥٪ وفي العراق من ١٣,١٪ إلى ٣٤٪ ولم يبدأ الاستثمار ويخاصة الحكومي منه بالتسارع إلا بعد الطفرة النفطية في عقد السبعينات فارتفع في مصر من ١١,٩٪ عام ١٩٧٢ إلى ٢٣,٧٪ عام ١٩٨٢ وفي العراق من ١٤,٧٪ إلى ٢١,٨٪ (انظر الجدول رقم ـ ٢ ـ).

اذن طلب متسع على نشاطات البناء والمقاولات وما يتصل بها من صناعات صغيرة (أثاث، مكونات خشبية ومعدنية للبناء كالابواب والشبابيك واعمدة الفولاذ والمواد الصحية. . . الخ) وهو طلب يأتي من الدولة التي اصبحت أكبر سوق منفرد، بمعنى أكبر مشترٍ لهذه الخدمات، الأمر الذي يفسر لنا كيف أن البرجوازية الصاعدة في هذه الفترة أنتمت إلى تلك القطاعات. ونود أن نبرز هذه النقطة هنا، لأن ثمة خلطاً واسعاً يدور بين هذه الظاهرة وبين الاعتقاد بأن الارتباط بجهاز الدولة وسلطتها مميِّز لهذه الفترة بالذات، وهو ما سنعود له بعد قليل.

مع اتساع ظاهرة البناء والتحضر، وعدم نمو الطاقات الانتاجية المحلية في الصناعات التحويلية والزراعة بنسب مماثلة لهذا التوسع لتلبية الحاجات المتزايدة، ومع وجود مورد مالي يمكن الاقتصاد من

تلبية حاجاته عبر الاستيراد (النفط، عوائد قناة السويس، تحويلات العاملين في البلدان النفطية وحتى القروض) ومع نشوء قشرة جديدة من كبار المقاولين والرأسماليين تمنع أو تعيق انضمام قادمين جدد لها (برغم انها أكثر اتساعاً من الفئة القديمة) وتسعى الآن للتطور عمودياً بعد أن تطورت أفقياً، تبدأ الظاهرة المسماة «طفيلية» بالخروج إلى السطح باعتبارها المظهر الابرز للنشاط الرأسمالي.

فاذا كان المقصود بـ «الطفيلية» جملة النشاطات المضاربة، فان حرب اليمن، كما يشير عمل الباحثة إمام (ص٩١) «كانت بداية لانخراط جهاز الدولة (نسبياً) في مجال الأعمال ومثلت نقطة هامة في توثيق الروابط بين المال العام والمال الخاص» لكن هذا الحكم يصح فقط إذا اعتبرنا أن جهاز الدولة يساوي الأفراد العاملين فيه وإذا اعتبرنا أن الروابط بين المال العام والمال الخاص روابط شخصية، بمعنى انها تخضع لانحرافات سلوكية معينة يتعرض لها هذا الفرد أو ذاك، لأن حرب اليمن كانت مصدر إثراء لكبار الضباط عبر التهريب والسوق السوداء ـ الخ (كما أن إجازات الاستيراد صارت تمنح لكبار الضباط العراقيين المتقاعدين بعد عام ١٩٦٣)[٢٩]. أما إذا نظرنا إلى عملية الرسملة كعملية موضوعية فسنجد أن الأمر لا يكمن هنا، فالعلاقة بين المستويين السياسي والاقتصادي قائمة على الدوام، إنما يختلف عنصر الغلبة فيها وشكلها حسب الظرف التاريخي، كما سنشير.

فمع اتساع نشاط المقاولين وشركات البناء ومصانع المواد التي تدخل في البناء، والحرف والصناعات الاستهلاكية، وكلها تنتمي إلى القطاع الخاص، يبدأ الطلب على المهارات العالية في القطاع الخاص بالضغط من جديد على العاملين في قطاع الدولة، الأمر الذي يفاقمه الطلب الخارجي على تلك المهارات، لاسيما في البلدان النفطية، وهذه الضغوط مجتمعة تجعل من سعر قوة العمل متحدداً بما يدفع للمهندس المصري أو الحرفي المصري في العراق أو السعودية أو في مؤسسات «عثمان أحمد عثمان» في داخل مصر وهنا تبدأ رأسمالية الدولة بالانحلال كعملية تاريخية موضوعية أدت وظيفة اجتماعية، فتوازن القوى الذي يعطي للمستوى السياسي في ظل كل تحول اجتماعي، برجوازي أو اشتراكي أو غير ذلك الأولوية يعود من جديد إلى تكريس الواقع الاجتماعي باعتباره هو صاحب الاولوية، وهنا ينفرض من جديد على الدولة، التي ثمة حدود لتوسع انفاقها وطلبها، أن تنصاع لهذا القانون فتعترف ان التراكم النقدي الذي تحقق في ظلها وبفضلها لابد وان تتم ترجمته كثقل اقتصادي وبالتالي سياسي. وهنا تبدأ مرحلة اللبرلة. هذا ما عرفته تجارب التصنيع المتأخرة في أوروبا واليابان، وهذا ماشهدناه في منطقتنا. إنما يكمن الاختلاف الجوهري في أن اللبرلة الالمانية واليابانية جعلت البرجوازي المنتفع من دولته يبحث عن المجال المربح الجديد فيجده في الصناعة في حين ان لبرلة بلداننا جعلت هذا البرجوازي نفسه يبحث عن المجال المربح فلا يجده إلا في النشاط المضارب. من هنا قولنا أن القضية لا تكمن في البرجوازي بل في الاطار السياسي ـ الاقتصادي الذي يجعله يتجه هكذا.

لهذا نجد بالاضافة إلى الأمثلة المذكورة سابقاً أن أبرز عناصر من يسميهم الفكر الماركسي العربي والمصري بوجه خاص، برجوازية طفيلية، يرتبطون بجهاز الدولة وسلطتها بروابط قد تزيد عن فترة العقد الأول حيث كانت برجوازية المقاولات نابعة من رحم من تمت تسميتهم بالبرجوازية البيروقراطية، والحال ان من الصعب علينا فهم أسباب اعتبار جملة وزراء برجوازيين بيروقراطيين، في حين يجري

تصنيف وزير في عهد السادات، مثل أحمد نوح (الذي ارتبط اسمه بفضيحة مالية) ضمن البرجوازية الطفيلية، فضلاً عن شقيق السادات (عصمت) وآخرين. .

عند الحديث عما يسمى بالبرجوازية الطفيلية، يتم التركيز على اسماء صعدت قبل فترة قصيرة، أو ظهرت إلى النور متأخرة، وهذا يستدعي بعض الملاحظات:

أولاً: لم يعد طريق البناء عبر الدولة متاحاً للصاعدين في الثمانينات في مصر أو العراق، فقد لاحظنا ان عدد المقاولين تصاعد بشكل متسارع بحيث لم تعد ربحية هذا القطاع شديدة الاغراء .

ثانياً: ثمة تراكم نقدي هائل يصب بيد الأفراد عبر طريق التطور الذي اسميناه رأسمالية الدولة، كشكل انتقالي، ولابد لهذا التراكم أن يظهر في هذا القطاع أو ذاك.

ثالثاً: ان تعاظم الاحتياج إلى السوق الرأسمالية العالمية ليس نتاج انحراف عن نموذج متخيّل ارادته التجربة الناصرية في مصر أو البعثية في العراق بل هو جزء لا يتجزأ من هذه التجربة، الأمر الذي يعني ان «الانفتاح» الساداتي هو النتيجة الموضوعية لبناء اقتصادي - اجتماعي هكذا .

هنا، وهنا بالضبط، علينا ان ندرس طابع «النخب» المتحكمة في الاقتصادين المصري والعراقي لنفهم كيف ساد من ساد؟ ولماذا؟ وفي أية فترة؟ لكي نتفهم كيف أن التراكم في قطاع البناء والتشييد (وهو قطاع انتاج مادي بعد كل هذا وذاك) قاد إلى نمو طفيلي .

إذا كانت النخبة «الطفيلية» راكمت دخلاً هائلاً خلال النصف الثاني من السبعينات، في مصر، وخلال النصف الثاني من الثمانينات في العراق، فإن هذا يعني انفساح المجال أمام غير المقاولين والصناعيين. ولكن ماهي الفرص المتاحة لتراكم هؤلاء النقدي لكي تتم ترجمته اقتصادياً وسياسياً؟ بدأ الضغط أولاً لتحرير المدّخرات المهرّبة إلى الخارج بصيغة «الاستيراد من دون عملة صعبة»، بمعنى الاعتراف بقانونية امتلاك الافراد لعملات في الخارج. جرى هذا في مصر في منتصف السبعينات وفي العراق أواخر الثمانينات، ووصلت قدرة الدولة على التوسع إلى حدودها النهائية. وفرضت الحاجة إلى العملات الصعبة وأزمات السوق المتمثلة بشحة السلع والتضخم النقدي (وهي مظاهر في صلب تناقضات رأسمالية الدولة وليست إعوارض) «تحرير» التجارة الخارجية .

لقد كان نشاط المقاولات والصناعة على الدوام غطاء لأشكال متعددة من المضاربة والتهريب والتجارة التي يمكن القول أنها حفزت اقامة بعض المؤسسات الصناعية أصلاً، ذلك أن تسجيل شركة صناعية كان مدخلاً ضرورياً للاستفادة من حرية الاستيراد، باسم استيراد المواد الاولية والوسيطة اللازمة للصناعة، أو استيراد مكائن ومعدات البناء اللازمة للمقاولين، وهكذا.ولكن مع تقنين النشاط التجاري رسمياً لم تعد هذه الواجهة ضرورية، وفضلاً عن ذلك سارت مصر شوطاً لم يصله العراق بعد هو انشاء المصارف وشركات الأموال الخاصة، وتقنين الشراكة مع رأس المال الغربي ويكاد يكون حدوث ذلك أمراً مؤكداً في المدى القريب في العراق[٣٠] .

ان تحليل ظاهرة «الرافد "الطفيلي» يصطدم بعقبة موضوعية، هي ان هذه النشاطات تبلورت وبرزت إلى السطح منذ فترة لا تزيد عن العقد، لذا فمن الصعب التعرف على مآل التراكمات المالية التي حققها المضاربون وهل ستصب في مجرى أكثر ربحية بعد أن يبدأ متوسط الارباح المتحققة في النشاط

المالي بالانخفاض، فمثل هذا الأمر يعتمد على ظروف لا يتحكم بها لا الرأسمالي الفرد ولا الاقتصاد المصري أو العراقي وحدهما، بل ظروف الاقتصادات الاقليمية (ولاسيما دول الخليج) وحتى آفاق الاقتصاد العالمي . والحال ان بوسعنا الحديث عن طفيليين فقط لأننا أمام «أثرياء جدد» برزوا فجأة إلى السطح من دون أن ينحدروا من الرأسماليين القدامى أو من كبار العاملين سابقاً في جهاز الدولة أو من الذين قاموا بنشاطات اقتصادية بالتعاون مع قطاع الدولة في فترة البناء، وهذا ما يجعل أسماء كثير من المضاربين من المنحدرين من «الرافدين» الآخرين لا تظهر ضمن «الطفيليين» على الرغم من تأكيد معظم الباحثين على أن الطفيلية ليست وصفاً اخلاقياً لجناح دون أخر، بل هي تمتد لتشمل معظم قطاعات الاقتصادين المصري والعراقي . وسنلاحظ الآن في مجرى تحليل البرجوازية العراقية الحديثة، ان أساليب التراكم النقدي ومآله تتشابه بدرجة كبيرة مع حالة مصر برغم تفاوت التطور التاريخي بين البلدين وبرغم الاعتماد الشديد للاقتصاد العراقي على النفط .

البرجوازية العراقية المعاصرة

من هي الرأسمالية الصاعدة في العراق ؟ ممّ وكيف تشكلّت؟ وإلى أي حد تصح الأحكام عن «نخبة الانفتاح» المصرية عليها ؟ .

تشترك مصر والعراق، كما هو معروف، بالانقطاع الذي أدخلته الثورات على تركيبة الطبقات المالكة القديمة، لكن العنف الذي رافق الحياة السياسية العراقية بعد ثورة تموز ١٩٥٨ وتعدد الانقلابات لعب دوراً مزدوجاً في تأثيره على الطبقات القديمة. أما في مصر فقد شملت اجراءات الاصلاح الزراعي ومن ثم قوانين التأميم خلال ١٩٦١ - ١٩٦٣ فئات متجانسة من كبار المالكين الزراعيين ومن ثم كبار الرأسماليين، وقلّما طالت حقوقهم المدنية أو حريتهم في النشاط الاقتصادي اللاحق، ضمن الأطر التي كرّستها ثورة يوليو .

في العراق، وعلى عكس الانطباع السائد عن الخطاب الاشتراكي المضخّم، لم تكن الاجراءات الاقتصادية شديدة التأثير على النشاطات الخاصة، بل ان الاضطراب السياسي طال هذه النشاطات بدرجة متفاوتة، بمعنى أن كبار المالكين الزراعيين والبرجوازية التجارية والصناعية، الذين كانوا على وفاق مع الاتجاه السياسي العام للدولة أو الذين قدموا الدعم لها لهذا السبب أو ذاك حافظوا على مواقعهم، بل رسخوها في بعض الاحيان.على سبيل المثال العشائر الكردية الرئيسة الثلاث التي وقفت إلى جانب الحكومات المتعاقبة ضد الانتفاضات الكردية المستمرة منذ عام ١٩٦١ (انظر الجدول رقم - ٣ -) وكذلك شيوخ شمر القوية الذين قدموا دعماً مهماً للتيار القومي في فترات الصراع المرير بينه وبين التيار اليساري منذ ثورة تموز. وقد ظل هؤلاء يحتفظون بمواقع متميزة حتى فترة قريبة. ويصح الأمر كذلك على حالة تجار وصناعيي مدينة الموصل الذين لم يتعرضوا إلى هزات عنيفة قط برغم ان اجراءات تأميم المصارف وشركات التأمين وبعض الشركات الصناعية والتجارية عام ١٩٦٤ طالت مؤسسات تقل رؤوس أموالها وأرباحها عمّا لدى البرجوازية الموصلية بكثير في بعض الأحيان، ولا يمكن ان نعزو ذلك إلا للميول السياسية المحافظة لبرجوازية الموصل عموماً، مع ان هذا التفسير يظل جزئياً[٣١] . .

من هنا تمثل خيط الاستمرارية في هذا السياق السياسي العنيف في بقاء أثرياء المناطق العربية شمال بغداد، عموماً، مع أنه من الصعب الجزم بأن كل هؤلاء قد حسنوا مواقعهم عما كانت عليه قبل ثورة تموز، فللوصول إلى حكم كهذا علينا انتظار تبلور الوضع السياسي الذي سيسمح للرأسماليين بالكشف عن ممتلكاتهم بحرية. ومع هذا سنلجأ إلى قائمتين وضعهما حنا بطاطو[٣٢] الأولى لاغنى ملاك الأرض في العراق (٥٠ عائلة تملك الواحدة أكثر من ٣٠ ألف دونم) (الدونم = ٢٥٠٠ متر مربع = ربع هكتار) والثانية لرأسماليين يملكون أكثر من مليون دينار عشية ثورة تموز ١٩٥٨ (٢٣ شخصاً أو عائلة) مع أن بعض الاسماء ترد في كلتا القائمتين. (تجار ومالكو أراضي).

ففي حين نجد أن بعض العوائل الأكثر انخراطاً في النشاط السياسي، والمقربة من العائلة المالكة غادرت العراق ونقلت نشاطاتها إلى الخارج (الجلبي، الدامرجي، الباجچي) واخرى تراجع نشاطها، توصل الباحث إلى تثبيت نشاطات مالية للبعض الآخر في صورة ثروات سائلة (من خلال كمية تبرعاتهم للمجهود الحربي) أو مؤسسات صناعية وتجارية مهمة، مثل شيوخ شمر (الموصل) وعائلة السهيل (شيوخ بني تميم في بغداد وديالى) وعوائل الصابونجي وحديد وأولاد الحاج هاشم يونس وعائلة الأغوات (وكلهم من الموصل) (انظر الجدول رقم ٤). حقاً إن نشاطات هذه العائلات «لاسيما محمد حديد» لا تجعلها في مصاف أكبر الرأسماليين اليوم، في حين أن قائمة بطاطو تشير إلى أكبر الملاّك وأثرياء المدن، إلا أن نشاطاتهم تبقيهم ضمن فئة البرجوازية الكبيرة مع ذلك.

هذا الحراك ضمن البرجوازية الكبيرة لايمكن تحليله من زاوية رؤية عملية الاستمرارية شكلاً من اشكال «الاندساس» في صفوف الثورة، بل جزءاً من العملية الموضوعية لتوسع البرجوازية ككل، وتوسع الفئة العليا منها، مع مايترتب على ذلك من تراجعات للبعض وتقدم لفئات أوسع حتى يستقر توازن جديد، وفي هذه العملية وبخاصة في فترات التحول وما يرافقها من طغيان، تبدو الدولة كائناً كلي القدرة يوحي لكثيرين بانها خالقة التشكيلة الرأسمالية، والحال أن سلطة الدولة هذه تقوم بتمهيد الطريق لعملية موضوعية تشق طريقها بعمق، بل ان التحول السياسي ما كان له أن يحدث لولا وجود فئات حققت وزناً ما في الحياة الاجتماعية ـ الاقتصادية وتسعى إلى ترجمة هذا الوزن سياسياً، وهنا تلعب الدولة دور خالق للرأسماليين الأفراد بمحاباتها هذه المجموعة دون تلك لكنها لا تخلق العلاقات الاجتماعية الرأسمالية.

تجلّت هذه العملية على أكمل وجوهها في العراق غداة الثورة الايرانية واستعدادات شن الحرب ضد ايران، هنا جرت حملة واسعة لتهجير أكثر من نصف مليون شيعي من العراق، كان بينهم مئات من كبار التجار والصناعيين الذين صودرت أملاكهم ووثائقهم ووزعت بأثمان بخسة على عناصر موالية للنظام.وماكان لنا التعرف على حجم هذه العملية، التي انطوت على اعادة توزيع للمواقع بين البرجوازية العراقية، لولا ان مدير الأمن العام العراقي آنذاك أصدر كتاباً تحريضياً وردت فيه النسب والأرقام التالية للملكيات تجار وصناعيين أسماهم ايرانيين أو من «التبعية الايرانية» وهو ما يمكن اعتباره مؤشراً على حجم الضربة التي وجهت لهذه الفئة:

- بلغ عدد التجار «الايرانيين» في بغداد وحدها ٣٢٤٥ ، تجار الجملة منهم يسيطرون على أكثر من ١١٧٧ محلاً، واحتلّ الصناعيون ٢٥٨ معملاً و٣٥ محلاً لصناعة الذهب..
- أصحاب معامل المواد الغذائية من «التبعية الايرانية» يمثلون ١١,٢٪ من اجمالي العاملين في النشاط الصناعي.
- ١٠٠ مكتب عمولة وقومسيون بيد «التبعية الايرانيين».
- تجار «التبعية» يشكلون ما يقارب ثلث مجموع المنتمين إلى غرفة تجارة النجف.
- ١٩ صناعياً من «التبعية الايرانية» في كربلاء مقابل ١٢ عراقياً.
- ٢٠٪ من النسبة الكلية لصناعيي وتجار البصرة من «التبعية الايرانية»[٣٣].

يساعد هذا على فهم عملية الاستمرارية والانقطاع في تشكل البرجوازية العراقية المعاصرة التي اصبحت أكثر تجانساً، ولكن أقل تمثيلاً، اذ سيطر اقليم واحد هو شمال بغداد العربي وغربها (الدليم، الموصل وتكريت) على عملية التطور الرأسمالي، وهذا يفسر أيضاً أسباب تكرار أسماء العوائل القادمة من الدليم في تشكيلة البرجوازية العراقية، (الكبيسي، العاني، الراوي، الدليمي على سبيل المثال). ففي حين لاحظنا أن تبلور البرجوازية الموصلية يعود إلى فترات مبكرة من تاريخ العراق الحديث، لا يمكن قول الشيء ذاته فيما يتعلق بالدليم وتكريت (التي اصبحت تسمى محافظة صلاح الدين). لكن من الخطأ الاعتقاد بأن هؤلاء (الدليم بالتحديد) لم يكن لهم وجود قبل ذلك. فمنذ الحرب العالمية الثانية كان مهاجرو الدليم ينخرطون في نشاطات المقاولات الثانوية وصناعة النسيج وتجارتها اعتماداً على تقاليد الحرف التي كانت قائمة في عانه حتى أوائل هذا القرن، ويدخلون في جهاز الدولة لانسداد فرص النشاط الاقتصادي الاخرى، لكن تطورهم كان محجوزاً بحكم سيطرة العوائل القديمة على الحياة الاقتصادية والسياسية. ولهذا يصح القول ان ثورة ١٤ تموز ومابعدها جاءت لتعبر عن هذه الفئات الوسطى وشعورها بالظلم، كما انها قادت إلى فك القيد أمام تطور هؤلاء وصعودهم.

من خلال هذا الفهم للعلاقة بين سلطة الدولة والطبقة أو الفئات الصاعدة، الذي لا يرى في الدولة خادماً سلبياً ولا صانعاً لها، نستطيع فهم حاجة الفئات المحجوزة إلى ثقل سياسي هائل، أو تمثيل سياسي قوي لها في جهاز الدولة يتيح لها الاتكاء عليه للحصول على عقود توريد وبناء وتسهيلات مصرفية وغير ذلك في حين أن الفئات الراسخة نسبياً تستطيع الاعتماد على شبكة مصالحها القائمة لادامة وضعها وتوسيعها بشرط ألا يكون ثمة تعارض صريح بين توجهاتها وتوجهات الدولة. ولهذا كان ابناء الدليم وشمال بغداد (تكريت وسامراء) ذوي ثقل طاغٍ في مختلف مواقع الدولة العليا منذ عام ١٩٦٣ في حين لم يحتل ابناء الموصل (منذ اواخر الستينات على الأقل) موقعاً يتناسب مع حجمهم في الجهاز السياسي.

إذن بقي خيط استمرارية في نشاط البرجوازية العراقية برغم اجراءات تهجير ١٩٨٠ وقرارات تأميم ١٩٦٤ التي شملت حوالي ٢٨ شركة صناعية وثلاث شركات تجارية فضلاً عن كامل الجهاز المصرفي وشركات التأمين. أما في مصر فان حركة التأميمات شملت ٢٩٣ شركة ومؤسسة[٣٤]. ولكن لم تتعرض البرجوازية «القديمة» إلى ما تعرضت له الطبقات القديمة العراقية من تضييقات سياسية (باستثناء

محاكمات عبود). لذا ففي ظل الاطار القانوني الأوسع للانفتاح المصري، وفي ضوء ضخامة وثقل البرجوازية القديمة المصرية سنستغرب ألا تعود عناصرها إلى النشاط في مصر. والحال أن متابعة للأسماء الواردة ضمن عملي غنيم وسامية سعيد تبين ان درجة الاستمرارية في نشاط البرجوازية القديمة وانبعاثها في ظل الانفتاح ربما لاتزيد عن حالة العراق، لاسيما إذا لاحظ القارىء اننا تابعنا فقط ما يمكن تسميته بـ «القشرة العليا» من اثرياء العراق عشية ثورة ١٤ تموز. ولو اننا اعتمدنا شيئاً كهذا في حالة مصر فسنجد أن عشرات العائلات التي يمكن تصنيفها هكذا في مصر لا تظهر أسماؤها في حقبة الانفتاح. فمن بين العوائل التي يعتبرها د. عاصم الدسوقي[٣٥] «الصفوة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية» من كبار ملاك الارض نجد ثلاثة اسماء (الباسل، المصري، والمنزلاوي) ممن تظهر أسماؤهم في فترة السبعينات[٣٦]. ومن بين ٣٧ اسماً لرأسماليين تقليديين مارسوا نشاطاً اقتصادياً بعد فترة الانفتاح، ثمة ١٥ اسماً لا يمكن القول إن ملكياتهم قبل الثورة (وفقاً للقائمة التي أعدتها سامية إمام) تكفي لاعتبارهم رأسماليين كباراً[٣٧].

ثمة حالة مماثلة فيما يتعلق بملكيات مابعد الانفتاح. فبرغم ان تقنين الانفتاح في العراق تأخر بحوالي العقد عن مصر، وبرغم شحة المعطيات وسريتها، لم نُدخل ضمن الرأسماليين الكبار من تقل رؤوس أموال شركاتهم أو مؤسساتهم أو مساهماتهم في المؤسسات عن ٥٠ ألف دينار، حتى حين توافرت قرائن أو معرفة شخصية أكيدة بأن هذه العائلة أو تلك تنتمي إلى كبار الرأسماليين في حين نجد مالا يقل عن أربع حالات بالنسبة لمصر لا يمكن اعتبارها مؤشراً على ثروات أو ملكيات ضخمة[٣٨].

ليس القصد هنا التشكيك بالجهد الثمين والهام المقدّم لدراسة البرجوازية المصرية الحديثة بل إن هذا التدقيق مطلوب من وجهة نظر تحليلية لسببين على الأقل:

أولهما لعلّ اللجوء إلى تصنيف البرجوازية إلى تقليدية وبيروقراطية وطفيلية يطمس من بين أشياء أخرى، اننا نقارن فئة اجتماعية راكمت ثرواتها على مدى يقارب القرن وقد يزيد، وبأشكال وأطوار مختلفة مع مجموعتين برزتا على امتداد عقد أو عقدين، بحيث ان التقسيم نفسه لن يعود ذا معنى بعد عشرين أو ثلاثين سنة (بافتراض بقاء العناصر الاخرى على حالها). إذ ربما كنا نتحدث في حالة «الرأسمالية التقليدية» عن تشكيلة واسعة تضم القشرة العليا للمجتمع، إلى جانب جماعات مهنية أو تجارية أو حرفية استفادت من ظروف الحرب العالمية الثانية فراكمت بضعة ألف جنيه. لكن الظروف التالية وضعتها في موضع التنافس (بل العداء) مع هؤلاء، وعند ذاك فان موقف التأييد لثورة يوليو والانخراط فيها يفسره لا، العمل المتعمد الساعي لحرفها عن مسارها ـ كما توحي كثير من الكتابات ـ بل هو الموقف المنطقي تجاه ثورة كان توجهها هو افادة الفئات الوسطى الصاعدة والارتقاء بها.

والسبب الثاني هو ماأشرنا له سابقاً وما يوحي به هذا التصنيف من علاقة بين الثورة والسلطة، وما توحي به الفقرة التالية الختامية من عمل سامية سعيد (لكنه المنحى الذي يتبناه عدد كبير من الماركسيين العرب): «عهد المجتمع قبل ثورة ١٩٥٢ علاقة بين الثروة والسلطة مؤداها ان الثروة تؤدي إلى السلطة، وان الاقتصاد يؤدي إلى السياسة. اما بعد الثورة فقد عاش المجتمع خبرة مناقضة مؤداها ان السلطة

تؤدي إلى الثروة، وإن ممارسة الحياة السياسية غالباً ما تؤدي إلى عالم الاقتصاد والاعمال» (ص٢٢٦ - ٢٢٧).

على مستوى المشاهدة اليومية لاسبيل للتشكيك باحكام كهذه. لكن الوعي اليومي وعي زائف في كثير من الأحيان. لاننا نقارن وضع تشكيلة استقرت نسبياً (قبل الثورة) واخرى تتكون الآن. ولهذا التفريق اهمية حاسمة كما سيتبين أدناه. فالرأسمالية «التقليدية» تُدرس وهي في ذروة تطورها سواء في مصر أو العراق، ولكن ماذا لو قارنا تشكّلها بتشكل برجوازية مابعد الثورات؟ سنلاحظ عند ذاك، وببساطة أن كل طبقة أو فئة صاعدة بحاجة إلى رافعة السلطة السياسية. كيف؟.

. يعرض د. علي بركات في عمله فائق الاهمية كيف ان العوائل، التي تعارفنا على اعتبارها متحكمة بالحياة السياسية لانها متحكمة في الحياة الاقتصادية مدينة إلى هذا الوضع في الواقع إلى فترة تمتد منذ ١٨٥٠ على الأقل حتى نهاية الحرب العالمية الأولى حين استقرت كطبقات حاكمة - مالكة. أما في مرحلة الشروع بتمصير الادارة فلم تختلف بشيء عن هذه التي نسميها اليوم برجوازية بيروقراطية، فأكبر العوائل التي تربعت على عرش الحياة الاقتصادية (الشريعي وأباظة والشواربي والباسل)[٣٩] كانت في الأصل من البدو الذين استقروا، وتحولوا إلى عُمد للقرى وشيوخ للبلد ومُنحوا أراض من الابعاديات على عهد محمد علي ومن تلاه ولاسيما الخديوي سعيد واسماعيل. وثمة «روافد» اخرى، إذا استخدمنالغة اليوم، تتمثل في الارتباط بالعائلة الحاكمة عبر المصاهرة (عائلة يكن) والمتعلمون الذين بدأ بعضهم معدَماً (مثل رفاعة الطهطاوي)، لكن الحاجة إلى كفاءاتهم وتعليمهم العالي دفعت السلطات إلى اقطاعهم أراض واسعة، بمعنى السعي لضم عناصر الجهاز السياسي إلى طبقة ملاك الأرض كمعبّرين عن مصالحها في الجهاز الاداري والسياسي.

بهذا المعنى لا نأتِ بجديد حين نقول ان الصورة الميكانيكية، الساكنة عبر الزمان، هي التي توحي لنا بأن أي حديث عن سلطة الدولة كمعبّر عن مصالح الطبقات الحاكمة (المالكة) يعني ان المالكين يضعون خدماً سلبيين لهم في الجهاز السياسي. والحال أن مصالح معينة تشق طريقها في المجتمع أولاً، فتفرض تغييراً سياسياً (التمصير في هذه الحالة كتعبير عن نضوج فئة اجتماعية قادرة على ادارة الحياة الاقتصادية - السياسية) لكن هذا التغيير السياسي لا يجلب متنفذي الأمس إلى الواجهة، وإلا لما كان تغييراً، أو قل أن هؤلاء لا مصلحة لهم في تغيير كهذا.

هكذا حلّت فئة الأعيان المصريين محل المماليك الشركس والأتراك في الاقتصاد بموازاة السياسة. وهكذا لعب التجاوب مع حاجة السياسة (في مراحل التحول) دوراً اساسياً في تحديد مَن مِن المصريين يكون مالِكاً. هكذا أيضاً نجد أن الممثلين السياسيين الأوائل لهذه الفئات الصاعدة لم يكونوا ذوي شأن اقتصادي - اجتماعي رفيع، الأمر الذي يتجلى في ألقاب المندوبين الريفيين في مجالس مصر النيابية المتعاقبة. ففي دورة ١٨٦٦ - ١٨٦٩ كان ثمة ٥٩ عضواً يحملون لقب «عمدة» من مجموع ٧٩ عضواً فضلاً عن خمسة يحملون لقب «آغا»، ستة يحملون لقب «أفندي»، ثلاثة يحملون لقب «بك» وواحد فقط يحمل لقب «باشا». ولم يمض نصف قرن على هذا حتى كانت نسب التمثيل المقابلة في المجلس النيابي

لعام ١٩١٤ (المجموع ٦٩ عضواً) كالتالي: لا أعضاء يحملون لقب «عمدة» أو «آغا»، سبعة أعضاء يحملون لقب «أفندي»، ٣٧ يحملون لقب «بك» و١١ عضواً يحملون لقب «باشا».

ومع هذا فمن العبث الاعتقاد بأن هذه التشكيلة استقرت هكذا بمجرد تكونها منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فحتى أوائل هذا القرن كانت عناصر المصاهرة والارتباط بالجهاز الوظيفي للدولة فاعلة تماماً في إدخال عناصر جديدة لا إلى البرجوازية فحسب، بل إلى قشرتها العليا كذلك، وفي آماد زمنية قصيرة. فعملاق الصناعة الوطنية المصرية طلعت حرب، الذي أنشأ امبراطورية حقيقية هي «بنك مصر» وعشرات الشركات التابعة لها ينحدر من عائلة لم تمتلك أكثر من ١٦ فداناً يتشارك بها ابوه مع أعمامه. وحين تمت تصفية الدائرة السنية (أملاك الخديوي) وبيعها عام ١٩٠٥ كان موظفاً مضى عليه ١٧ سنة في الخدمة في تلك الدائرة مما مكنه من كسب علاقات وخبرة. وبرغم ان راتبه لم يتجاوز ٦٠ جنيه آنذاك (وهو ما يؤهله للقب بك) فقد اشترى أراضي من الدائرة أطلقت قدميه على طريق الصعود[٤١]. وثمة حالات أكثر درامية كصعود أحمد عبود باشا من خلفية «فقيرة فقراً مدقعاً» وحافظ عفيفي باشا «من خلفية بالغة الفقر» وانحدار صدقي باشا من عائلة كانت تعمل ضمن «البيروقراطية الخديوية» وكون أحمد يحيى باشا والد أمين يحيى «من محدثي النعمة بالاسكندرية»[٤٢].

في مثل هذه الحالة، وهي الحالة العامة في التاريخ الانساني، سنرى إلى الأمر في المدى القصير كسلطة تصنع الثروة، وسنراه حين تستقر أمور الطبقة بعد نصف قرن كطبقة تصنع الحكم. لكن فهماً كهذا سيبقينا في دائرة مغلقة تعتمد على الجيل الذي ينتمي إليه الباحث وما إذا كان ابن لحظات الانتقال أو لحظات الاستقرار في التشكيلات المتعاقبة.

ربما ساعدنا هذا على فهم مغزى التفريق بين «جيل طفيلي» وآخر «بيروقراطي» نشأ بعد الثورات الوطنية في مصر والعراق و(غيرهما). فالجيل البيروقراطي حصل على «اقطاعات» وظيفية في المؤسسات العامة، لأن اقطاع الأرض لم يعد ذا وظيفة بعد أن ترسمل المجتمع فما عادت الأرض وسيلة الانتاج الأساس. لكن هذه «الاقطاعات» ليست مكافآت لمرتزقة، كما يميل البعض لتصويرها، انها تؤدي وظيفة اجتماعية في ظل ظرف تاريخي محدد. وظيفة تبدأ بالتآكل حين يتسع قطاع خاص رابح خارج وبموازاة قطاع الدولة، يجذب إليه قوة العمل عالية التأهيل برواتب واجور تتناسب مع ربحية النشاط الخاص، وهكذا فان لقب «الموظف» الذي كان تعبيراً عن مكانة اجتماعية راقية أو محظوظة في ظل رأسمالية الدولة، يتراجع ليعني حطّاً من شأن حامله، فيصبح المدير في القطاع الخاص هو المحظوظ. هنا لا تعود البرجوازية البيروقراطية، إذا استخدمنا التعبير الشائع، موجّهة للقطاع الخاص، بل تنتظر قراراته لتتجاوب معها.

في ستينات مصر لم يكن للقطاع الخاص وجود ملحوظ، بل كان الاستهلاك الترفي للبيروقراطية العليا (والعسكرية منها بوجه خاص) هو ما يجذب الانتباه. أما في السبعينات فصرنا نشهد «رجال الاعمال» يدافع عنهم الوزراء ويحميهم المسؤولون برغم الخروقات القانونية الفاضحة، الأمر الذي نبهنا إلى وجود «شيء ما» جديد، برغم ان استغلال المناصب والوظائف العامة، ظل بل ازداد حدّة؛ انما لم تعد البرجوازية الخاصة تزيد تراكمها عبر التوريد لقطاع الدولة، أو بناء منشآته (مما يجعلها خاضعة لحالة

احتكار المشتري monopsony حيث ثمة مشترٍ واحدٍ رئيس في السوق) بل صارت بحاجة إلى حماية قانونية ـ سياسية لتجاوزاتها، وهو ما يشبه إلى حد كبير حالة الخروج من الوضع الانتقالي، بشرط أن لا نفهم من ذلك خروجاً إلى وضع الرأسمالية المتطورة، الأمر الذي يعتمد على عوامل أخرى مختلفة كلياً.

لنلاحظ أن هذا الوصف يتطابق إلى حد كبير مع حالة العراق، فقد انطلقنا من كبار المالكين والرأسماليين عشية ثورة ١٤ تموز. وبرغم أننا مدينون، من حيث المادة الوضعية إلى حنا بطاطو بالدرجة الأولى، إلا أنه حين يعالج الفترة اللاحقة يوحي بهذا التفارق بين الدولة والمجتمع الذي أشرنا له في حالة مصر، إذ يؤكد «أن هناك امراً واحداً لا مجال للتشكيك فيه، هو أن القوة الاجتماعية للملكية الخاصة الكبيرة قد اقتلعت» ويضيف «بقطع جذور الملكية الخاصة الكبيرة، وبفضل الاستقلال المالي الفعلي للدولة عن المجتمع الناجم عن الدخل النفطي الهائل، تراجعت أهمية علاقات الأفراد أو المجموعات بالملكية. وأصبحت السيطرة على جهاز الحكومة المحدد للفعل الاجتماعي بشكل أكثر حسماً من أي وقت مضى..»(٤٣)

عشية الثورة كان طبيعياً ان كبار الملّاك (وشيوخ العشائر بوجه خاص) والجلبية (كبار التجار) وغيرهم صاروا صانعين للسياسة والحكم. لكن هؤلاء أنفسهم لم يكوّنوا ملكياتهم أو مواقعهم منذ نهاية القرن الماضي (بفارق حوالى ٤٠ عاماً عن مصر) وحتى تكوين الدولة العراقية الحديثة خلال عشرينات هذا القرن إلا عبر السياسة، أي عبر الدولة (الوطنية أو البريطانية)، وهو ما يشير له بطاطو نفسه (ص٣١٥ ـ ٣١٨) إذ يصف لنا كيف ارتبط صعود عائلتي الجلبي والخضيري بالولاء للسلطات المتعاقبة، من السلطان العثماني إلى الانكليز فالدولة الوطنية، وكيف أن فتاح باشا، الضابط العثماني في الاصل بنى أكبر معمل للغزل والنسيج لأنه كان يوّرد للجيش والشرطة الملابس والاحتياجات الاخرى، فضلاً عن أن شيوخ العشائر ثبتوا ملكياتهم الضخمة للأرض عبر تدخل مباشر من جانب العثمانيين ومن ثم الانكليز.

ولو لجأنا إلى التعابير المعاصرة، فان قيام الدولة العراقية انطوى على ظهور قادة سياسيين جدد احتلوا المواقع العليا في جهاز الدولة، لكن هؤلاء لم يكونوا «برجوازية بيروقراطية» لسبب بسيط، هو ان المجتمع نفسه لم يكن برجوازياً بعد. هؤلاء الضباط الشريفيون الذين تعاونوا مع ثورة الشريف حسين عام ١٩١٦ (نوري السعيد، جعفر العسكري، جميل المدفعي.... الخ) يبلغ عددهم حوالى ثلاثمائة ضابط ولم ينحدر أي منهم من عوائل ثرية (باستثناء ثلاثة). ومع هذا، لم يمض عقدان على تشكيل الدولة حتى كان هؤلاء قد اكتسبوا أراض ومقاطعات كبيرة (تراوح متوسط ملكية الواحد منهم بين ١٠ و١٥ ألف دونم) مما جعلهم يتوحدون في مصالحهم مع الاقطاعيين، برغم أن ملكياتهم ظلت أقل مما يمتلك هؤلاء.

وهكذا فحين ننظر إلى الأمر في العشرينات سنرى أن السياسة هي المدخل إلى الثروة، وحين ننظر إليه في الخمسينات نرى طبقة من الأثرياء تتوزع الادوار فيما بينها فتفرض ممثليها السياسيين في قيادة الدولة، لكننا لا نتحدث عن «اقطاعية بيروقراطية» لأن ظاهرة توسع أية طبقة صاعدة ظاهرة مؤقتة،

مثلما لا يعني البحث بالتساؤل عن أصول قراصنة شركة الهند الشرقية الذين تحولوا إلى الراسماليين التجاريين في القرن السابع عشر، ومثلما تتطعم الرأسمالية، حتى يومنا هذا، بعناصر من خارجها، لاسيما في جهاز الدولة والجهاز الاداري الأعلى للمؤسسات الحكومية والخاصة. فقدرة الطبقة على احتواء عناصر إضافية من خارجها، مؤشر على أن نمط الانتاج الذي تعبر عنه تلك الطبقة لايزال قادراً على التوسع.

خاتمة: أي شوط قطعت البرجوازية؟

علينا أن نتساءل أخيراً عن الأسباب التي جعلت البرجوازيتين المصرية والعراقية تتخذ خصائص متشابهة إلى حد كبير من حيث الاشكال التنظيمية والفروع التي تتوجه لها. ومع أن هذا الموضوع يتطلب دراسة مستقلة، إلا اننا سنكتفي ببعض الملاحظات الختامية السريعة.

لاحظنا إن اجراءات البناء اللاحقة لانتصار الثورات تترافق مع تسرّب الفائض الاقتصادي عبر طرق ومسارات متعددة[٤٤]، بحيث ان الخطاب الايديولوجي الاشتراكي المضخّم يخفي اشكال التراكم النقدي في يد القطاع الخاص، التي تتحقق بالدرجة الأولى بفضل توسّع قطاع الدولة وتحوله إلى المشتري الأكبر (وليس المنتج الأكبر) في الاقتصاد.

في هذه الحقبة يتزايد عدد المنشآت الصناعية الصغيرة (٩٦٪ من اجمالي العدد كما لاحظنا في كل من مصر والعراق) وعدد المقاولين الأفراد، لكننا لانجد توسعاً في الشركات الصناعية أو شركات البناء. وبالطبع فإن مبرر صعود رأسمالية الدولة يقوم على إحداث تصنيع وتطوير لقدرات البلاد الانتاجية (بغض النظر عن نجاحها الفعلي في تحقيق ما تعلن)، لذا فان النشاطات المالية والمصرفية وتجارة الاستيراد توضع حصراً بيد الدولة في هذا الطور.

نحن هنا في طور لايد فيه للهيئات المستقلة للبرجوازية، إن وجدت في تحديد شروط التنافس للحصول على عقود الدولة، فهذه الهيئات، مثل اتحاد الصناعات أو غرف التجارة، موضع شك النظم الجديدة باعتبارها مواقع لانصار النظام القديم. بالطبع ثمة حدود قصوى تتحرك ضمنها هذه الأنظمة، وهي تتوصل إلى هذه الحدود من خلال التجربة والخطأ. فمثلاً عليها أن تعرض مناقصات عقودها بما يحقق نسب أرباح تحفز المقاولين على الانخراط في النشاطات المطلوبة، ثم أن تطعيم مؤسسات البرجوازية الاقتصادية بممثلين عن قطاع الدولة وسيلة مهمة للتعرف على مطالب ومصالح هذه الطبقة. لكن الجانب الأهم هو أن هذه الانظمة تتحرك وفق إدراك حقيقي أو متخيّل بأن عليها شّل البرجوازية المعادية عبر تشجيع «أنصار الثورة» للحلول محلها، وهذا يعني، في الواقع العملي، اللجوء إلى علاقات القرابة والاستزلام والانتماءات المحلية كوسيلة لتكوين قاعدة اجتماعية موسّعة للنظام الجديد.

إذن فهذه العملية ليست نتاج عناصر بيروقراطية «منحرفة عن مسار للثورات» بل هي تكمن في صلب هذا التحول، والمعطيات الواردة في الجدول ـ ٣ ـ لاتمثل إلا الجانب الظاهر من الصورة، لأن على الباحث أن يكون شديد الحذر هنا، إذ نادراً ما تظهر آلية الانتفاع الفعلية على السطح. وهي لا تمر بالضرورة عبر الجهاز البيروقراطي نفسه، بل يمكن أن تتم ـ وهي تتم بالفعل في مصر والعراق،ـ عبر اقارب القياديين في أجهزة الدولة الذين يتفقون مع المقاولين أو التجار على تحصيل العقود لهم مقابل

عمولة معينة، وهكذا. ويمكن لعملية الانتفاع ان تتم تحت غطاء «الأمن القومي» حين تحال العقود لبناء مؤسسات ومنشآت عسكرية إلى عناصر مقّربة من النظام من دون مناقصة بحجة طابعها السري، وهو ما أشار له باحثون مصريون في حالة عثمان أحمد عثمان وما يتم في العراق في حالة عبد الكريم الخربيط على سبيل المثال، ومع هذا فثمة حالات يصعب التعرف عليها إلا بعد مرور زمن طويل، برغم وجود قرائن كبيرة على ارتباط اسلوب الأثراء بمسؤولين كبار أو بالتوجه السياسي. وقد آثرنا الا ندرج هذه الحالات ضمن الجدول ـ ٣ـ وبعضها مشار له في الجدول ـ ٤[٤٥] ـ .

والواقع إن الانتقال من محتويات الجدول ـ ٣ إلى الذي يليه أي من المتنفعين بالسلطة السياسية إلى التكوينات العائلية للنشاط الرأسمالي، ومن ثم إلى التحالفات العائلية بين جملة عوائل يبدو عملية منطقية ومتدرجة في إطار كهذا. لأن تفتيت علاقات التضامن الجماعي التي كانت قائمة بين أفراد الطبقة الواحدة، ومن ثم صعود أفراد جدد إلى مصاف طبقة يجهلون الكثير عن سلوكياتها وآفاقها وردود أفعالها، بل ويجهلون الكثير عن بعضهم البعض، إن كل هذا يقود إلى بروز ظاهرتين حين يأخذ نشاط هذه الفئة بالاتساع. الأولى هي ان الفئات «القديمة» هي الأقدر على نسج تحالفات غير عائلية فيما بينها، لأنها تمتلك إرثاً مشتركاً، وهذا ما يظهر في حالة مصر، حيث قامت هذه الفئات بانشاء أولى الشركات المساهمة الجديدة عام ١٩٧٥ ، وهذا ما كان في حالة العراق حيث نجد بقاء عوائل الموصل محافظة على بعض الشركات التي عمّرت طوال الفترة الماضية (ومساهموها لا ينتمون إلى عائلة واحدة، خّدوري، حديد، الجادرجي، اللوس، الصابونجي). والظاهرة الثانية هي أن عدم استقرار الاطار السياسي والقانوني والخوف من كشف رؤوس الأموال المستمرة فعلاً والنشاطات الفعلية والأرباح الحقيقية تدفع الصاعدين الجدد إلى التكتّل العائلي حتى تتكشف حدود «الانفتاح» واستمراريته. وهذا ما يفسر الانتقال المتدّرج من الاشكال الفردية في النشاط إلى شركات التضامن والتوصية وذات المسؤولية المحدودة وصولاً إلى الشركات المساهمة، التي تبقى لفترة مساهمة قانوناً لكنها عائلية شبه مغلقة في أحيان كثيرة.

ومع هذا فان هذه الرأسمالية، إذ تنضج وتتبلور معها الأداة السياسية تتحول من قطاع شبه منتج (هو البناء) ومن قطاعات تخدم الانتاج نسبياً (النقل والمواصلات) إلى فروع تجارية ومالية ومصرفية عوض أن تمر بالصناعة، فهل ثمة سر في ذلك؟ لنلاحظ ان النصف الثاني من الثمانينات شهد تحولاً نحو انشاء شركات زراعية (انظر الجدول ـ ٦) وشركات لانتاج أعلاف الحيوانات ومفاقس ومشاريع تربية الدواجن والأسماك بابعاد ملفتة للنظر، وهذه الظاهرة باتت تميز العراق ومصر وتوحي في الحالتين بأن تحسناً مهمّاً طرأ على مستوى معيشة السكّان. لكن أبحاثاً أخيرة برهنت على زيف هذه الصورة[٤٦] ذلك ان هذا التوجه يعكس حقيقة مرّة مفادها ازدياد فجوة الدخول بين الاغنياء والفقراء بعد عقدين من الرسملة. وهذه الفجوة هي التي تفسر كيف أن انتاج الحبوب صار يحوّل إلى علف للحيوانات، مما زاد من استيرادات مصر والعراق لها، وكما يعلّق باحث أمريكي فان «تحويل عادات الاستهلاك الغذائي لم يؤثر فقط على الاستيرادات الزراعية وميزان المدفوعات، بل أنه أثر على الزراعة المحلية. فلم يعد من الدقيق القول بأن الزراعة الرأسمالية المصرية تعتمد إلى حد كبير على القطن. ذلك أن الأولوية في استخدامات الأرض والعمل تعطى الآن إلى اللحوم والدواجن ومنتجات الألبان. . ويحتل القطن واحداً

فقط من ستة ملايين فدان تزرع في مصر، فيما يحتل المحصول الصناعي الثاني، قصب السكر، مايزيد قليلاً على ربع مليون فدان. . وبما تبقى ويبلغ أربعة وثلاثة أرباع مليون فدان يجري استغلال أكثر من النصف لانتاج أعلاف الحيوانات. . . ونتيجة لذلك فان مصر تنتج غذاء للحيوانات اليوم يزيد عما تنتج من غذاء للانسان»[٤٧] .

وعدا هذا فان صناعة مواد البناء كانت الميدان الاساسي المفضل للمقاولين منذ السبعينات ولهذا فقد بدأ هؤلاء باقامة معامل لانتاج الاسفلت ومواد البناء الاخرى، وصولاً إلى الكتل الكونكريتية التي تصاعدت المشاريع المجازة لانتاجها في العراق خلال السنتين الاخيرتين.

ولكن من الصعب القول أن ثمة انعطافاً تحقق بعد عشرين عاماً من التحويل السياسي - الاقتصادي في توجهات الرأسمالية المصرية أو العراقية. فلا يزال التوجه العام بطيئاً جداً نحو الصناعة، وهو يتجه إلى الفروع التقليدية ذاتها (الصناعة الغذائية، الكيميائية البسيطة مع انخفاض في التوجه نحو صناعات الغزل والنسيج التي تعاني من كساد عالمي) .

كثيراً ما توجه النقد الحاد إلى سلوك البرجوازية المشرقية، وكثيراً ما اشتققنا صفات من البرجوازية الغربية لنحكم على برجوازيات «نا» بأنها ليست برجوازية. والحال أن سياسات الدولة نفسها بحاجة إلى تفحص جديد الآن. فقبل عشرين عاماً كان في حكم البداهة القول بأن آفاق التطور الرأسمالي معدومة في بلداننا، وبالتالي فان الأمل معقود على الاشتراكية، بالمعنى الذي تم في الاتحاد السوفييتي، حيث لا دور للبرجوازية الخاصة إلا على نطاق هامشي ومؤقت، وكانت صحة السياسات المتبناة آنذاك تحاكم في هذا الضوء واليوم، بعد أن عاد الحديث عن دور ضروري لرأس المال الخاص، نلوم البرجوازية لأنها لا تؤدي دوراً مطلوباً. والحال أن شكل تدخل الدولة بحاجة إلى تفحص، بمعنى التساؤل إن كان النمو الرأسمالي متعذّراً حقاً، أم أن هذا الشكل الذي سرنا عليه يعدم امكانية نمو رأسمالي فضلاً عن عجزه عن تجاوز الرأسمالية أصلاً. لكن هذا يتطلب دراسة مقارنة من نوع آخر، تقارن تراجعنا بتقدم البلدان حديثة التصنيع، وكلانا عرف تدخلاً كثيفاً للدولة ولكن بأشكال مختلفة.

ملحق:

حول اعداد وحصر عينة من
الفئات الحديثة المتنفذة اقتصادياً في العراق

. آ . العيّنة الأولى:

في العمل الصادر عام ١٩٨٣ (انظر الهامش ١٠)، تم عرض عيّنة من ٧٥ عائلة عراقية، في ثلاثة ملاحق، الأول يضم ٣١ عائلة من ابرز الناشطين في قطاع المقاولات، والثاني يضم ٢٧ عائلة من الصناعيين، أما الثالث فيضم ١٧ عائلة تنشط في ميادين التجارة والخدمات والزراعة.

وقد عرضنا مسار الصعود الطبقي لتلك الفئات ارتباطاً بعلاقة العوائل مع سلطة الدولة (علاقات قرابة، انتماءات سياسية، مواقع في جهاز الدولة) وبانحداراتها الاقليمية.

اعتمدنا في اعداد هذه العينة على مقابلات مع مسؤولين سابقين في مجلس التخطيط، ووزارة التخطيط، ومع مقاولين وصناعيين عراقيين. كما اعتمدنا على الصحافة الاقتصادية المتخصصة في شؤون الشرق الاوسط ولاسيا المتابعة التفصيلية لمجلة MEED, Middle East Economic Digest الأسبوعية، لعدة سنوات للتعرف على أحجام العقود المبرمة مع مقاولين محليين وأسمائهم.

وبالاضافة إلى ذلك تم تدقيق المعلومات بالنسبة للصناعيين، بمقارنة ماتوصلنا إليه بدليل الشركات العربية:

Giselle C. Bricault (ed), «Major Companies of the Arab World» Graham and Trotman . Ltd. London.

لسنتي ١٩٨٠/ ١٩٨١ و١٩٨١/ ١٩٨٢ .

ب . العينة المحدّثة:

خلال الفترة ١٩٨٣ ـ ١٩٩٠ توافرت وسائل اضافية لتدقيق وتحديث المعطيات الأولى برغم أن الاعتماد على مصدر رسمي ظل مستحيلاً.

ـ فخلال شهري تموز وآب والاسبوع الأول من أيلول ١٩٨٣ جرى شن حملة ضخمة لجمع التبرعات من النقود والذهب لصالح المجهود الحربي مع ايران. وكانت قوائم اسماء المتبرعين وكميات تبرعاتهم تعلن يومياً في الصحف العراقية.

ومن هذا المصدر أعد الباحث قائمة بـ ١٤٨ إسماً (أو عائلة أو شركة) تبرعوا بما لا يقل عن مئة ألف دينار، نقداً أو ذهباً، لكل منهم (أي ما يعادل ٣١٠ ألف دولار وفق سعر الصرف الرسمي) باعتبار أن التبرع بمبلغ كهذا يعدُمؤشراً مهماً على حجم التراكم النقدي لدى المتبرّع .

ـ وخلال عام ١٩٨٣ أيضاً تم تشريع قانون جديد للشركات، أعطى حوافز جديدة للتحول إلى النشاط المؤسسي لرأس المال ويرفع السقف الذي كان موضوعاً على الحد الأعلى لرؤوس أموال الشركات. ونتيجة لذلك بدأت الصحف العراقية تنشر اعتباراً من عام ١٩٨٥ اعلانات رسمية صادرة عن المسجل العام للشركات، بتسجيل شركات جديدة.

ـ على أن التطور الأبرز الذي ساهم في حسم تردد البرجوازية العراقية، ترافق ما سُمي بـ «الثورة الادارية» التي شرعت ببيع مؤسسات قطاع الدولة إلى المساهمين الافراد اعتباراً من عام ١٩٨٧ ، فضلاً عن تشريع قوانين تحفيزية جديدة لرأس المال الخاص. وقد قام الباحث بجرد لاعلانات تسجيل الشركات أو تعديل عقودها (باتجاه زيادة رأس المال أو تغيير الوظائف) خلال الفترة ١٩٨٨ ـ ١٩٩٠ ، الصادرة في الصحف اليومية العراقية وبعض الصحف الاسبوعية، وقد أدخلنا إلى العينة، بعد تحديثها وتدقيقها ٦٨ شركة جديدة بعد استبعاد الشركات التي لم يُعلن رأسمالها، أو ان رأسمالها المُعلن يقل عن ٥٠ الف دينار (حوالى ١٦٠ ألف دولار حسب سعر الصرف الرسمي)، فضلاً عن اعلانات تحويل المؤسسات العامة إلى شركات خاصة وعرضها للبيع ممن لا تتوافر لدينا معلومات عن تقدّم مشترين لتملّكها .

جدول رقم (١)

مؤشرات مختارة لتطور الاقتصادين المصري والعراقي

	العـــراق			مصـــر		
	١٩٧٢	١٩٨٠[١]	١٩٨٦	١٩٧٢	١٩٨٢	١٩٨٦
الناتج المحلي الاجمالي (مليون دولار)	٤٤٣٠,٨	٥١٣٨١,٦	٤٥٧١٨,—	٧٨٥٨,—	٣٢٧٢٤,٢	٥٣٨٤٣,٩
مساهمة بعض القطاعات فيه						
(نسب مئوية)						
الزراعة، الغابات، الرعي	١٨,٢	٤,٦	١٥,٣	٢٧,٣	١٧,٥	١٩,٦
الصناعة الاستخراجية	٢٧,٦[٢]	٦٠,٤	١٣,٦	١,—	١٥,٥	٥,٤
الصناعة التحويلية	٩,٥	٤,٤	١٠,٣	١٦,٣	١٢,٧	١٥,١
البناء والتشييد	٣,١	٧,١	١٠,٤	٣,٥	٤,٤	٦,٤
الخدمات الحكومية	٩,٢	٧,٨	١٩,—	٠,٤	٠,٢	١٦,٥
(الادارة، الأمن، الدفاع)						
أهم عناصر الانفاق على						
الناتج المحلي الاجمالي (نسب مئوية)						
تكوين رأس المال الثابت ـ قطاع خاص	٦,٩	٤,٧	٤,٥[٣]	١,٢	٥,٥	غ.م.
تكوين رأس المال الثابت ـ قطاع الدولة	٧,٨	١٧,١	١٧,٧[٣]	١٠,٧	١٨,٢	غ.م.
الاستهلاك الخاص	٤٦,٢	٣٠,١	٧٥,٦	٦٥,٥	٦٦,٩	٦٠,٣
الاستهلاك الحكومي	٣٤,—	٢٣,٦	٧٥,٦	٢٦,٥	١٧,٩	٢١,٩

(١) اخترنا سنة ١٩٨٠ بدل ١٩٨٢ للمقارنة، لأن الأولى تمثل آخر سنة «اعتيادية» مر بها الاقتصاد العراقي. السنوات التالية شهدت تدهور أو توقف انتاج النفط، الأمر الذي ضخّم نسب مساهمة بعض القطاعات الأخرى.

(٢) هذه النسبة لاتعكس الوزن الفعلي لقطاع النفط، لأن عام ١٩٧٢ شهد توقف الانتاج عملياً طوال نصف عام بسبب تأميم عمليات شركة نفط العراق والنزاع الذي ترتب على ذلك حتى آذار ١٩٧٣ .

(٣) هذه النسب محتسبة على أساس الأرقام الواردة في المجموعة الاحصائية السنوية لعام ١٩٨٧ ، ص ١٧٠ - ١٧١ .

المصدر:

ـ نسب ١٩٧٢ ـ ١٩٨٢، عن الصندوق العربي للانماء الاقتصادي والاجتماعي، «المؤشرات والبيانات الأساسية الاقتصادية والمالية والاجتماعية للدول العربية ١٩٧٢ ـ ١٩٨٢»، الكويت، نيسان ١٩٨٤ ، ص ٢ ـ ٣

ـ نسب ١٩٨٦ (باستثناء ماورد في هامش ٣)، عن: صندوق النقد العربي (محرر)، التقرير الاقتصادي العربي الموحّد لعام ١٩٨٧ ، (بدون مكان نشر ولا تاريخ)، ص ٣،٢ ـ ٢٥٤ .

جدول رقم (٢)

الشركات المساهمة المسجلة بمصر خلال الفترة ١٩٧٥ ـ نهاية ١٩٨٢

فرع النشاط	عدد الشركات	٪	رؤوس أموالها (مليون جنيه)	٪
نشاطات خدمية[1]	٢٠٦	٣٨,٥	٩٨٥,٥	٥٠,٥
شركات انشائية ، اسكان وتشييد ومقاولات	١٠٥	١٩,٥	٣٣١,٦	١٧,ـ
شركات صناعية	١٣٢	٢٥	٤٠٣,٧	٢٠,٧
شركات أمن غذائي واستصلاح أراضي	٥١	٩,٥	١٤٧,٧	٧,٤
غير محددة	٤٠	٧,٥	٨٤,١	٤٪
المجمـوع	٥٣٤	١٠٠	١٩٥٢,٦	١٠٠

المصدر :

مجمّعة من سامية إمام ، مصدر سابق ، ص١٩٤ ـ ١٩٥ .

(١) تشمل البنوك وشركات الأموال والفندقة والسياحة والخدمات الاستشارية والمستشفيات والمراكز الطبية والنقل والمواصلات والاعلام والتخزين والصيانة والتوكيلات التجارية والسمسرة والوساطة والتأمين.

جدول رقم (٣)

عيّنة ببعض الرأسماليين الذين ارتبط صعودهم بالسلطة السياسية مباشرة

١ ـ عبد الكريم ومحمود ندا الحسين	ـ مقاولان كبيران ـ مالكا شركة ٣٠ تموز لصناعة الطابوق والمواد الانشائية المحدودة، رأسمال ٦٠٠ ألف دينار[1]	عائلة أحمد حسن البكر	تكريت
٢ ـ عبد الكريم ذياب الخربيط وأخوته	ـ أكبر مقاولي العراق ـ وردت بعض المناقصات التي رست عليهم في الصحافة الاقتصادية الغربية[2] ـ تبرع للمجهود الحربي ضد ايران بـ ١٠,٤ كغم ذهب و٥٥ ألف دينار[3]	ـ شقيق عبد الواحد الخربيط، عضو متقدم في الحزب الحاكم (نال وسام الثورة من الدرجة الثانية) وكان محافظاً الديالى. ـ شقيق العميد الركن عبد الجبار الخربيط (قتل في الحرب مع ايران ونال وسام الثورة من الدرجة الأولى)[4].	الأنبار (الدليم)

٣ ـ أحمد وعدنان عبد المنعم رشيد	ـ أول شركة تستأجر أراضي الاصلاح الزراعي وفقاً لقانون ٣٥ لسنة ١٩٨٣ ، مساحة الأرض ٢٨٥٠ دونماً، استصلاح أرض، شق مبازل وأنهر رئيسية وفرعية ، وانشاء مزرعة أسماك متكاملة تتكون من ٢٠ حوضاً بمساحة ألف دونم وانشاء معمل متخصص لعلف الأسماك بطاقة ١٠ طن/ ساعة ، ومختبر لتكثير الأسماك[٥] .	ـ أشقاء خالد عبد المنعم رشيد أمين سر مجلس قيادة الثورة	
٤ ـ متّي يوسف بلّولة وموريس بشارة أبكيان	ـ مكتب الخالد للمقاولات : أعمال مقاولات كبرى عسكرية (اقامة قواعد عسكرية ، مدارج ، مطار صدام الدولي) ، مزرعة كبرى في ضاحية «الراشدية» ببغداد ، ملكية طائرة «بوينغ ٧٠٧» خاصة[٦] . ـ تبرعا للمجهود الحربي بـ ٢,٢ كغم ذهب ومليون دينار[٧] .	ـ شركاء عدنان خير الله طلفاح ، وزير الدفاع السابق وصهر صدام حسين	كركوك (التأميم)
٥ ـ خير الله طلفاح	ـ عقارات واسعة ، تجارة ومضاربة ـ تجارة وتهريب ـ «تبرع ١٥٠ ألف دينار باسمه شخصياً و ٣٥٠ ألف دينار باسم جمعية احياء التراث العربي والاسلامي التي يرأسها و ٥٠ ألف دينار باسم الجمعية التعاونية لموظفي الدولة التي يرأسها أيضاً»[٨]	ـ والد وزير الدفاع السابق عدنان خيرالله بالأراضي وحمو صدام حسين (والد زوجته ساجدة) . خال صدام حسين ، ومحافظ بغداد الأسبق ثم رئيس مجلس الخدمة العامة	تكريت
٦ ـ غالب وعبدالله محمود الخطاب	ـ مستأجر أراضي من الاصلاح الزراعي بموجب قانون ٣٥ لسنة ١٩٨٣ . ـ تبرعا بـ ٣,٥ كغم ذهب و٧٥ ألف دينار[٩] .	ـ غالب ، مزارع صغير في الستينات ، في أجهزة اغتيال الحزب الحاكم ، أصبح رئيس الاتحاد العام للجمعيات الفلاحية في الثمانينات .	تكريت
٧ ـ عبيد البراك	ـ تاجر مواد احتياطية وقطع مكائن زراعية ومواد زراعية . ـ مقاولات . ـ تبرع بـ ٢,٣ كغم ذهب و٥ آلاف دينار[١٠] .	ـ شقيق فاضل البراك ، مدير الأمن العام ، ثم رئيس المخابرات العامة	تكريت

الاسم	مجال النشاط	نوع العلاقة	الانتماء الاقليمي
٨ ـ فاضل حسن المجيد	ـ مشرف على عمليات تهريب من وإلى ايران وتركيا. ـ تجارة ومقاولات ـ تبرع بـ ١,١ كغم ذهب[١١].	ـ شقيق علي حسن المجيد وزير الداخلية، ابن عم صدام حسين	تكريت
٩ ـ د. عبد الكريم العلي وخالد شاكر محمود	ـ رئيس ومدير شركة الخازن للهندسة الاستشارية وصاحبا أسهمها[١٢].	ـ الأول بعثي سابق ووزير العمل بعد انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣، الثاني شقيق سعدون شاكر محمود وزير الداخلية السابق.	بغداد
١٠ ـ حسن وحسين حازم السعدي	ـ مقاولات عامة ـ مصنع ملابس نسائية ـ معمل تريكو ـ ملكية مطاعم ـ تجارة واستيراد ـ وكالة شركة جاسم الكويتية للنقليات فرع العراق[١٣]. ـ وكالة شركة بودي التجارية الكويتية[١٣].	ـ شركاء كامل الياسين، شقيق عبد الفتاح الياسين وزير الحكم المحلي سابقاً وعضو القيادة القطرية للحزب الحاكم وقريب صدام حسين.	
١١ ـ فاتك الصافي	ـ مقاولات بناء وتشييد ـ تبرّع للمجهود الحربي بـ ١ كغم ذهب و١٠ آلاف دينار[١٤]	ـ قيادي بعثي سابق في ١٩٦٣	الديوانية (القادسية)
١٢ ـ عائلة سورجي	ـ شركة سورجي للمقاولات العامة المحدودة رأس المال ٥٥٠ ألف دينار[١٥]. تبرع من الشيخ صادر رقيب السورجي بـ ٣ كغم ذهب للمجهود الحربي[١٦].	ـ عشيرة موالية للحكومات منذ بدء الحركة الكردية المسلحة ١٩٦١، يعيش أفرادها على مخصصات حكومية لمقاتلة الحركة الكردية (الجاش).	اربيل
١٣ ـ عشيرة هركي	ـ الشيخ جوهر محي الدين الهركي تبرع بـ ٥ كغ ذهب و ٨٥٠٠ دينار للمجهود الحربي[١٧]. ـ شركة «ناشتي للكتل الخرسانية المحدودة». رأسمالها ٢١٨٥٠٠ دينار[١٨]، أصحابها أولاد ديوالي سعيد (من مسؤولي أفواج المركيين في دهوك وكردو أسعد فتاح (مسؤول أفواج المركيين في أربيل).	ـ (انظر ١٢ أعلاه).	اربيل

١٤ ـ الشيخ لطيف أحمد الزيباري	ـ من أكبر الملاكين العقاريين في ـ الموصل (نينوى) . ـ تبرع بـ ٣ كغم ذهب و١٣٥ ألف دينار (١٩) .	ـ شيخ عشيرة الزيباريين (انظر ١٢ أعلاه) . ـ شقيق أرشد أحمد الزيباري وزير الدولة .	نينوى
١٥ ـ أولاد علوان الجبوري	ـ ملكيات زراعية وعقارية ضخمة في ضواحي بغداد الجنوبية وشمالها فقط ماتبرعوا به «قيمة أراضي سكنية بلغت مساحاتها ١٥١ ألف و٣٠م٢ ، تبرع بها أهالي المنطقة من أصحاب البساتين والمزارعين أكثر من ٨ ملايين دينار ، فيما بلغت الأموال المتبرع بها ٩٨٦٣٥ دينار» . المتبرعون : حمّادي ومحمود وبلقيس وغازية وناهدة وورثة المرحومة رحمية ، وكلهم أولاد علوان حمادي الجبوري (٢٠)	ـ أشقاء وزير الدولة حامد علوان الجبوري	بغداد

هوامش الجدول (٣):

(١) اعلان ، الجهاز المركزي لتسجيل الشركات ، صحيفة «الجمهورية» بغداد ١٩٨٨/١٢/٢٦ .

(٢) انظر على سبيل المثال كونسورتيوم الخريبط ـ شركة جيربراكش الهندية لانشاء سد في مدينة العمارة ,MEED, May 3 1985 وكونسورتيوم الخريبط ـ جيربراكش ، لمد شبكة مجاري مدينة سامراء MEED, Aug, 12, 1988 .

(٣) «الثورة» (بغداد) ٧ و١٩٨٣/٧/٩ و«الجمهورية» (بغداد) ١٩٨٣/٩/٢ .

(٤) «الثورة» (بغداد) ١٩٨٣/١٢/١ .

(٥) مجلة «ألف باء» (بغداد) ١٩٨٤/١١/٢٨ .

(٦) Robert Springborg, «Infitah, Agrarian Transformation and Elite Consolidation in Contemporary Iraq», Paper Presented to the Internaional Political Science Association Annual Confernce, Paris, July 1985 .

(٧) «الثورة» ، ١٩٨٣/٧/١٤ و«الجمهورية» ١٩٨٣/٨/١٨ .

(٨) «الثورة» ، ١٩٨٣/٨/٢٠ .

(٩) «الجمهورية» ، ١٩٨٣/٩/٢ .

(١٠) «الجمهورية» ، ١٩٨٣/٩/٢ .

(١١) «الجمهورية» ، ١٩٨٣/٩/٢ .

(١٢) انظر ملحق البحث : Bricault (ed.) op. cit., pp. 109 – 128.

(١٣) صحيفة «الثورة» ٥/١/١٩٨٥ .

(١٤) «الجمهورية» ٥/٩/١٩٨٣ .

(١٥) «الثورة» ٣١/٨/١٩٨٥ .

(١٦) «الجمهورية» ٢٣/٨/١٩٨٣ .

(١٧) «الجمهورية» ٢٣/٨/١٩٨٣ .

(١٨) «الجمهورية» ١٢/٢/١٩٨٩ .

(١٩) «الجمهورية» ٢٣/٨/١٩٨٣ .

(٢٠) «الجمهورية» ٦/٨/١٩٨٣ .

جدول رقم (٤):

عيّنة ببعض اشكال التركّز العائلي للملكيات الرأسمالية[١]

١ ـ محمود البُنّية وأولاده[٢]	بغداد	مقاولون وتجار وصناعيون برزوا منذ أوائل الستينات . رئيس الشركة، عبد الوهاب محمود البُنّية . مدراء: سعدون وعبد اللطيف محمود البنية	ـ شركة منتجات الحلوى الوطنية ـ المنتجات الشرقية المجمّدة ذ.م.م. ـ شركة صناعات المنتجات الزراعية الوطنية . ـ شركة صناعات الحلوى والبسكويت العراقية ـ مصنع طحين العراق . ـ شركة تطوير المنتجات الغذائية ذ.م.م. ـ شركة منتجات الشوكولاته . ـ معمل العلف الحيواني . ـ ملكيات عقارية وبنايات .
٢ ـ مهدي صالح الراوي وأولاده[٣] فاروق وصلاح وسعد وزهير	الأنبار (الدليم)	تجارة ومقاولات عامة، صناعة مختلف المنتجات المنزلية والصناعات الغذائية . رئيس الشركة: فاروق مهدي الراوي المدراء: صلاح وسعد الراوي	ـ مصنع زهير للصناعات الغذائية ـ صناعات الخيوط العراقية ذ.م.م. ـ شركة المرشد الصناعية ذ.م.م. ـ شركة بلاستيك الشرق الأوسط ذ.م.م. ـ شركة الصناعات المتحدة ذ.م.م. ـ مطبعة الراوي ـ شركة فينوس للصناعات ذ.م.م.

٣ ـ علي الحاج محمد حسون الجنابي [٤] وزوجته صابرين حسون الجنابي	كربلاء	صناعي ومقاول بناء أخوة اسماعيل مالك عقاري ومقاول	ـ شركة السيدة للمطاحن الفنية المحدودة. ١٥٠ طن طحين/ يوم. ادارة السيدة صابرين ـ شركة المسيّب لانتاج البسكت والشكلة المحدودة. ـ شركة النجف للطابوق الفني المحدودة (مشترى من الدولة بقيمة ٢,٥ مليون دينار)
٤ ـ عبيد وسلمان ولدا كاظم حسين [٥]	بغداد	شركات زراعية، استئجار أراضي الاصلاح الزراعي	ـ شركة الجبايل لانتاج علف الدواجن المحدودة. رأسمالها ١٢٦ ألف دينار
٥ ـ يوسف اللامي وولده [٦]	بغداد	مقاول	ـ شركة يوسف اللامي لصناعة الكتل الخرسانية (مشروع فردي، رأسماله ٥٥٠ ألف دينار) ـ شركة رمزي يوسف اللامي للمقاولات الانشائية (مشروع فردي، رأسماله ١٠٠ ألف دينار).
٦ ـ عائلة الأغوات [٧] رائد ورافع أولاد محمد بيوض، ومحمد جاجان عبد القادر، وأحمد وسبهان ومحمد ومروان أولاد عبد الله يونس	الموصل	من أكبر مالكي الأراضي في العراق قبل ثورة تموز ١٩٥٨ (٤٠ ألف دونم) تجار أراضي وحبوب	ـ شركة الشمال المحدودة لطحن الحبوب رأسمالها ١٨٧٠ ألف دينار
٧ ـ أولاد وديع زيّونه [٨]	بغداد	ملاّك عقاريون	ـ شركة زيّونه للكونكريت الجاهز التضامنية، خالد وديع زيّونه ـ الشركة العربية للتأثيث الحديث المحدودة، صباح وديع زيّونه
٨ ـ أحمد حمزة الكيلاني [٩]	بغداد	ملاك زراعيون وعقاريون	ـ شركة الكيلاني المحدودة/ أحمد حمزة زيد الكيلاني ـ شركة البلاستيك الزراعية/ وليد أحمد حمزة الكيلاني
٩ ـ أولاد الحاج يونس [١٠]	الموصل	صناعي قديم، وملاّك زراعي، وتاجر انتاج مختلف أنواع القطن والنسيج الصناعي استيراد الغزول والأصباغ والمنتجات المساعدة.	ـ شركة حياكة الحاج يونس، الرئيس علي الحاج يونس، المدير: طيب الحاج يونس

١٠ ـ أولاد حمّود المحمود [١١]	الأنبار (الدليم)	مقاول قديم، بدأ نشاطه عام ١٩٥٢ ، هندسة مدنية وانشاءات اسطول شاحنات نقل أحجار إلى مصانع الاسمنت ملكية عقارات	ـ الرئيس : جاسم المحمود مدراء : هاشم المحمود ورشيد الحاج نايف . ـ مدير مساعد. غانم الحمّود ـ مصنع شبكات تبطين الطرق المعدنية (٥٠٠ مستخدم وعامل)
١١ ـ انطوان وجان هلّون [١٢]	بغداد	صناعيان وتجار صناعة سخانات ماء (فايركنغ) مجمدات ماء (سنوكنغ)	ـ شركة صناعات التدفئة والتبريد ـ رئيس: انطوان هلون ـ مدير: جان هلون، حملة أسهم آخرون: مصطفى سعدي ـ سركيس عبو ـ مصهر فولاذ الجبوري (مساهمون رئيسيون فيه) ـ شركة سركيس للأشغال الميكانيكية .
١٢ ـ كريكور أخوان [١٣]	بغداد	أصحاب الأسهم الرئيسيون: أرمين واسطيفان ومراد كريكور. الرئيس: أرمين كريكور مدراء: مراد واسطيفان كريكور	ـ شركة صناعات تكنو الكيمياوية ذ.م.م ـ صناعات ليزا الكيمياوية . ـ صناعات العوازل والتبطين الحديثة ـ شركة اسطفيان كريكور وشركاه . ـ وكالة عامة لشركة أطلس يوربول (ايطاليا) واريك ادهيسف (ايطاليا) وكيمير وامبكس (بريطانيا)
١٣ ـ ابراهيم محمد السمان [١٤] وخالد محمود السمّان	الموصل	تجار وصناعيو نسيج	ـ شركة السمّان للخياطة والنسيج
١٤ ـ اسماعيل شريف وأولاده	عانه (الدليم)	صناعي ومقاول	ـ مصنع سخانات يونكرز (عصام شريف) ـ مصنع الكرافيت والأقلام. ـ ملكية دور سينما
١٥ ـ عائلة بيتواته [١٥]	السليمانية	أنور بيك بيتواته وأولاده، يملك قرى وقصبات	ـ شركة بيتواته للطحين الفني المحدودة رأسمالها — ٢, مليون دينار
١٦ ـ محمد حسن ومحمد جواد الكاتب [١٦]	بغداد	صناعة أصباغ منزلية وصناعية ـ وكالة شركة أصباغ بريطانية	ـ شركة أصباغ يونيفرسل رئيس: محمد حسن الكاتب ـ مدير: محمد جواد الكاتب ـ رأس المال: الرئيس والمدير ـ مبيعات مسجلة في ١٩٨١ مليون دينار.

الاســـم	الانحدار الاقليمي	طبيعة النشاط والتوزيع العائلي	مجالات النشـــاط
١٧ - توفيق وجعفر وكريم علاّوي [١٧]		مقاولون، وصناعات مرتبطة	- شركة مقاولات البناء العصرية (مشاركة من الأخوة الثلاثة) - معمل توفيق علاّوي للكيبلات والأسلاك الكهربائية - شركة الصناعات العراقية لانتاج أجهزة التبريد، السخانات، النوابض الحلزونية
١٨ - رشيد وخيري الهميّم [١٨]	الأنبار (الدليم)	من أكبر شركات المقاولات العراقية رشيد عضو مجلس ادارة اتحاد المقاولين العراقيين	
١٩ - حيدر ويونس السماوي [١٩]	السماوه	مالك صغير، تحولا إلى تاجرين صناعيين كبيرين خلال السبعينات	- معمل ألبان ومرطبات بغداد، ٦٠ طن/يوم. - أسطول شاحنات مبردة
٢٠ - ناصر وعبود صالح البلداوي [٢٠]	بغداد	صناعيان	- معمل نسيج وأربطة البلداوي - معمل بلداوي بلاسكو للأدوات البلاستيكية
٢١ - أولاد عزيز محمود [٢١]		صباح ومنى وأميرة ومنيرة وسها عزيز محمود، وفضيلة ابراهيم عمر	- شركة الهلال لانتاج البسكت والشكلة المحدودة، رأسمال ١٥٠ ألف دينار
٢٢ - أولاد محمود السلوم [٢٢]		- انتاج مكائن المخازن عالية التبريد - مشعّات حرارية للتدفئة المركزية - نافخات هواء للتكييف المركزي - رافعات هواء للتكييف المركزي - أبراج تبريد، - مثلجات ومبردات ماء - مضخات ماء مبرّد ومكثفات	- شركة السلّوم الصناعية - مدير مفوض، عبد الجبّار محمود السلّوم
٢٣ - أولاد جدّوع الشيخ محسن [٢٣]	البصرة	حمزة وشاكر ومالك، شركاء في	- شركة البصرة لتصنيع الأخشاب المحدودة
٢٤ - أولاد محمد الفيّاض الكبيسي [٢٤]	الأنبار	ابراهيم الفياض وأخوته وأولاد عمهم حمد الفياض	- معمل أصباغ أقمشة في الفلّوجه - معمل نسيج تريكو ومعمل جوارب - استثمارات عقارية في العراق وسوريا - مقاولات.
٢٥ - محمد وخالد عودة الكبيسي [٢٥]	الأنبار	صناعيان	- معامل النسيج المتحدة - شركة الأصباغ الفنية
٢٦ - عائلة رشان [٢٦]		طه وفؤاد وصديق رشان	- معمل رشا للأقمشة.

٢٧ ـ ابراهيم كاظم وولده[٢٧]	بغداد		ـ معمل طابوق الإمام الحسن صاحبه ابراهيم كاظم ـ معمل طابوق النور الحديث صاحبه خليل ابراهيم كاظم
٢٨ ـ أولاد علي محيميد[٢٨]	بغداد		ـ معمل طابوق السريع حسين علي محيميد ـ معمل طابوق القاسم الحديث حسن علي محيميد
٢٩ ـ نجم عبد الحسن بنيّان[٢٩] وأولاده.		ميسون ومهنّد ومظفر أولاد نجم	ـ شركة دجلة لصناعة الأواني المنزلية المحدودة، رأسمال ٢٥٠ ألف دينار
٣٠ ـ صبحي عباس وأولاده[٣٠]		وليد وصبا صبحي عباس علي	ـ شركة الوليد للصناعات الجلدية المحدودة رأسمال ٦٠ ألف دينار
٣١ ـ شركة عدنان نصري ميخائيل[٣١] وأخوانه.	بغداد		ـ عضو مجلس ادارة اتحاد المقاولين العراقيين عند تأسيسه ـ شركة مقاولات منذ الستينات.

هوامش الجدول (٤):

(١) عدا من ورد ذكرهم في الجدول رقم (٣).

(٢) عن Bricault (ed.) op. Cit.

(٣) عن المصدر السابق.

(٤) صحف «الجمهورية» ١٩٨٥/٨/٢٦ و«الثورة» ١٩٨٣/٨/٣١ و«الاتحاد» (يصدرها الاتحاد العام للغرف التجارية في العراق) ١٩٨٩/٨/١٤ .

(٥) الجمهورية ١٩٨٩/٢/١٦ .

(٦) الجمهورية ١٩٨٩/١/٢٩ والاتحاد ١٩٨٩/٤/٢٤ .

(٧) الجمهورية ١٩٨٣/٨/٢٣ .

(٨) الثورة ١٩٨٥/٢/٢ و١٩٨٥/١/٦ .

(٩) الثورة ١٩٨٥/٢/٢ .

(١٠) عن Bricault, (ed.) op. Cit.

(١١) المصدر السابق.

(١٢) المصدر السابق.

(١٣) المصدر السابق وجريدة «الثورة» ١٩٨٣/٧/٢٠ .

(١٤) المصدر السابق.

(١٥) صحيفة «الاتحاد» ٢٢/٥/١٩٨٩ .

(١٦) عن Bricault, (ed.) op. Cit.

(١٧) المصدر السابق، و«الثورة» ٢١/٧/١٩٨٣ .

(١٨) مجلة «ألف باء» ١٥/٥/١٩٨٥ ، «الثورة» ٥/٨/١٩٨٣ و٢٠/٨/١٩٨٣ و«الجمهورية» ١/٩/١٩٨٣ .

(١٩) مجلة «وعي العمال»، ايلول ١٩٨٣ .

(٢٠) «الثورة» ٣/٨/١٩٨٣ و٢٠/٨/١٩٨٣ و٦/٢/١٩٨٥ .

(٢١) الجمهورية ٢٩/٦/١٩٨٥ .

(٢٢) الثورة ٨/٢/١٩٨٥ .

(٢٣) الثورة ٤/٢/١٩٨٥ .

(٢٤) الجمهورية ٢١/٧/١٩٨٣ و١/٩/١٩٨٣ .

(٢٥) الثورة ١٠/٨/١٩٨٣ .

(٢٦) الثورة ١٤/٧/١٩٨٣ .

(٢٧) الثورة ١٦/٨/١٩٨٣ .

(٢٨) الثورة ١٦/٨/١٩٨٣ .

(٢٩) صحيفة «العراق» ٢٨/١١/١٩٨٨ .

(٣٠) الجمهورية ١٠/٦/١٩٨٥ .

(٣١) ورد اسم الشركة في كتاب د. صفاء الحافظ، سبق ذكره، ص٣٣٤ .

جدول رقم (٥):

أمثلة على تحول المقاولين نحو النشاط المنظّم(١)

الاسم	رأس المال	الموقع	ملاحظات
١ ـ شركة حسيب صالح للمقاولات والهندسة(٢) .	٧٠٠ ألف دينار	السليمانية	من أكبر المقاولين العراقيين، نائب رئيس اتحاد المقاولين عند تأسيسه، تولى بناء عمارة شركة التأمين الوطنية، مصرف الرافدين، اعادة التأمين العراقية سوق وعمارة التأمين، المكتبة الوطنية وقاعة المحاضرات، ومركز شركة التأمين الوطنية، الفندق السياحي في السليمانية .
٢ ـ شركة سورجي للمقاولات العامة المحدودة(٣)	زيادة رأس المال من ١٠٠ ألف إلى ٥٥٠ ألف دينار	أربيل	انظر الجدول (٣) الرقم (١٢)

الاســـم	رأس المـــال	الموقع	ملاحظـــــات
٣ ـ شركة علي حميد الدبيسي للمقاولات العامة[٤]	رأسمال ٤٠٠ ألف دينار	بغداد	
٤ ـ شركة محمد زاهر الإمام[٥]	زيادة رأس المال من ١٠٠ ألف إلى ٣٦٠ ألف دينار	بغداد	عضو مجلس ادارة اتحاد المقاولين العراقيين عند تأسيسه
٥ ـ الشركة العالمية للمقاولات الانشائية صاحبها حسين علي صالح الدليمي[٦]	زيادة رأس المال من ١٠٠ ألف إلى ٣٦٠ ألف دينار	الأنبار	كان اسمها قبل التعديل، شركة حسين علي صالح الدليمي
٦ ـ شركة محمد عبد الرضا الجبوري للمقاولات[٧]	زيادة رأس المال من ١٠٠ ألف إلى ٣٦٠ ألف دينار	بغداد (أصلاً من الأنبار)	كانت قبل التعديل مكتباً لثلاثة مقاولين: حمد موسى الدليمي وكردي موسى ومحمد عبد الرضا الجبوري.
٧ ـ شركة ابراهيم دالي حسن الدليمي للمقاولات[٨].	زيادة رأس المال من ١٠٠ ألف إلى ٢٥٠ ألف دينار	الأنبار	
٨ ـ شركة نظمي علي مصطفى للمقاولات الانشائية[٩].	١٥٠ ألف دينار		
٩ ـ شركة جلال حميد زين العابدين للمقاولات الانشائية[١٠].	١٥٠ ألف دينار		
١٠ ـ شركة رمزي يوسف اللامي للمقاولات الانشائية[١١]	١٠٠ ألف دينار		انظر الجدول (٤) الفقرة (٥)
١١ ـ شركة العامر للمقاولات[١٢]	زيادة رأس المال من ٢٥ ألف إلى ٥٠ ألف دينار		
١٢ ـ شركة عيسى الزبيدي للمقاولات الانشائية[١٣].	رأسمال ٢٥ ألف دينار.	بغداد	
١٣ ـ شركة الأخوان للمقاولات العامة المحدودة[١٤] أركان شملان جاسم العدوان وأخوه.			

هوامش جدول رقم (٥):

(١) بعد نجاح المقاولين في تأسيس اتحاد لهم (قانون رقم ٥٩ لسنة ١٩٨٤)، أصدر مجلس التخطيط تعليمات جديدة حول تصنيف المقاولين («الثورة» ١٧ / ٦/ ١٩٨٥)، اشترط بموجبها أن يُسجّل مقاولو البناء والتشييد ضمن التسلسل «درجة سابعة إلى الدرجة العاشرة» في حين لابد للمسجلين ضمن الدرجات الست الأولى أن ينظموا أنفسهم كشركات، تتدرج حسب رؤوس أموالها. أما مقاولو النصب والتركيب فتم تصنيفهم إلى ست درجات تحتل الشركات الدرجات الثلاث الأولى منها.

(٢) مجلة «ألف باء» ١٥ / ٥/ ١٩٨٥ و٣٠/ ١٠/ ١٩٨٥ .

(٣) صحيفة «الثورة» ٣١/ ٣/ ١٩٨٥ .

(٤) صحيفة «الثورة» ٤/ ٨/ ١٩٨٥ .

(٥) صحيفة «الجمهورية» ٢٣/ ٧/ ١٩٨٥ .

(٦) صحيفة «الثورة» ٣١/ ٨/ ١٩٨٥ .

(٧) الثورة ١٣/ ٧/ ١٩٨٥ والثورة ٢/ ٨/ ١٩٨٥ ، ملكياتهم القديمة عن بطاطو، مصدر سابق، ص٥٨ - ٦١ .

(٨) صحيفة «الاتحاد» ١٥/ ٥/ ١٩٨٩ و«الاتحاد» ٣/ ٧/ ١٩٨٩ .

(٩) الاتحاد ٢٤/ ٤/ ١٩٨٩ .

(١٠) الجمهورية ٦/ ١٢/ ١٩٨٥ .

(١١) الجمهورية ٢٩/ ١/ ١٩٨٩ .

(١٢) الاتحاد ٣/ ٧/ ١٩٨٩ .

(١٣) الاتحاد ٢٤/ ٧/ ١٩٨٩ .

(١٤) الثورة ٥/ ١/ ١٩٨٥ .

جدول رقم (٦):

بعض الشركات المسجلة عامي ١٩٨٨ ـ ١٩٨٩ موزعة حسب رؤوس أموالها وفروع نشاطها[1]

رأس المال (ألف دينار) / فرع النشــاط	٢٥ـ٥٠	٥٠ـ١٠٠ ألف	١٠٠ـ٢٥٠	٢٥٠ـ٥٠٠	٥٠٠ـمليون	مليونـ١,٥ مليون	١,٥ـ٥ مليون	٥ـ١٠	المجموع
انتاج زراعي وحيواني	—	—	١	١	٢	٢	—	١	٧
انتاج أعلاف الحيوانات	—	—	٦	—	—	٢	—	—	٨
صناعات غذائية ومطاحن حبوب	١	٢	١	١	—	١	٤	١	١١
انشاءات معدنية، وأثاث وصناعات ميكانيكية	١	٤	١	٢	—	—	١	—	٩
خياطة، غزل ونسيج، أحذية ومصنوعات جلدية	—	١	٢	٢	—	—	—	—	٥
صناعات انشائية ومواد بناء	—	١	٣	—	٢	١	٤	—	١١
صناعات كيمياوية، مواد تجميل ومنظفات	—	—	١	—	—	—	—	١	٢
صناعات ورق وكارتون	—	١	١	—	—	—	—	—	٢
صيانة وخدمات صناعية	—	٤	—	—	—	—	—	—	٤
شركات تجارية وخدمات	٩	٤	١	—	—	—	١	—	١٥
شركات مقاولات	١	١	٢	١	—	—	—	—	٥
المجمـــوع	١٢	١٨	١٩	٧	٤	٦	١٠	٣	٧٩

(١) استبعدنا الشركات التي لم نستطع التعرف على رؤوس أموالها.

هوامش ومصادر البحث

(١) يستخدم الباحث هذا التعبير «تخصيص» من دون تبنٍ له. فقد نحت الباحثون العرب عدة مصطلحات، من دون أن يحظى أي منها بقبول عام.

(٢) الحديث هنا حول نقاشات «التخصيص» فقط، واستنادها إلى أبحاث ملموسة، نشير على سبيل المثال إلى الندوة التي عقدها «مركز دراسات الوحدة العربية» في القاهرة حول الموضوع (ايار ١٩٩٠)، وندوة تحويل المؤسسات العامة إلى القطاع الخاص في الدار البيضاء (ايلول ١٩٨٨) وندوة التحول إلى القطاع الخاص والتكيف البنائي في الدول العربية (أبو ظبي، كانون الأول ١٩٨٨)، فضلاً عن ثلاثة ملفات عن الموضوع في مجلة «المستقبل العربي» (الاعداد ٣ و٧ و١٢/١٩٩٠). هنا لا نجد إشارة إلى الابحاث العيانية التي قام بها باحثون مصريون وسوريون وجزائريون وعراقيون عن واقع رأس المال الخاص في بلدانهم.

(٣) الوظيفية ليست حكراً على منهج في البحث دون آخر، ولعل أكثر من ابتلى بها هم ماركسيو البلدان العربية (والعالم الثالث بوجه خاص). ذلك ان النقاشات في صفوفهم كانت تدور، في الغالب حول أفضلية هذا الطريق أو ذاك، أو تفوق هذا النظام على ذاك، انطلاقاً من مقدمات نظرية صحيحة، لكنها عامة وتجريدية. ونادراً ماكان النقاش يدور حول إمكانية هذا الطريق، انطلاقاً من دراسة القوانين والآليات الداخلية للمجتمعات الملموسة. وإذا كانت الارادية شكلاً للوظيفية، فان الباحثين في «الامكانية» غالباً ما تعرضوا لاتهام بـ «الجبرية الموضوعية». ربما نجد هنا أحد أسباب الهجوم الذي تعرضت له البنيوية التي رغم كل نواقصها ابرزت أهمية ضرورة فهم المنطق الداخلي للبنى قبل أي حديث عن تغييرها.

(٤) Tony Walker, «Privatisation as a Panacea» Financial Times, Apr.4, 1990.

(٥) Victor Mallet, «Strategies that Stifle» in op. cit.

(٦) وزارة التخطيط، الجهاز المركزي للاحصاء «المجموعة الاحصائية السنوية لعام ١٩٨٨»، بغداد، ١٩٨٩، ص١٧٠. وتصريح وزير التخطيط العراقي لصحيفة «الجمهورية» (بغداد) ١٧/٩/١٩٨٩.

(٧) المجموعة الاحصائية السنوية لعام ١٩٨٣ ص١٦٣.

(٨) أهم المصادر المتعلقة بمصر:

- د. علي بركات «تطور الملكية الزراعية في مصر ١٨١٣ ـ ١٩١٤ وأثره على الحركات السياسية»، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧٧.
- د. محمود متولي «الاصول التاريخية للرأسمالية المصرية وتطورها» الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٤.
- د. عاصم الدسوقي «كبار ملاك الاراضي الزراعية ودورهم في المجتمع المصري ١٤ ـ ١٩٥٢» دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧٥.
- اريك دافيز «مأزق البرجوازية الوطنية الصناعية في العالم الثالث. تجربة بنك مصر ١٩٢٠ ـ ١٩٤١» ترجمة: سامي الرزاز، مؤسسة الابحاث العربية، بيروت ١٩٨٥.

وفيما يتعلق بالعراق اعتمدنا المرجع الموسوعي لحنا بطاطو.

Hanna Batatu, «The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq» Princeton University Press, Princeton, 1978.

(٩) سامية سعيد إمام «من يملك مصر؟ دراسة تحليلية للأصول الاجتماعية لنخبة الانفتاح الاقتصادي في المجتمع المصري ١٩٧٤ ـ ١٩٨٠» دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٨٦ .

ـ عادل غنيم «النموذج المصري لرأسمالية الدولة التابعة، دراسة في التغيرات الاقتصادية والطبقية في مصر ١٩٧٤ ـ ١٩٨٢» منشورات جامعة الامم المتحدة، ومنتدى العالم الثالث، دار المستقبل العربي، القاهرة ١٩٨٦

(١٠) عصام الخفاجي «الدولة والتطور الرأسمالي في العراق ١٩٦٨ ـ ١٩٧٨»، منشورات جامعة الامم المتحدة ومنتدى العالم الثالث، دار المستقبل العربي، القاهرة ١٩٨٣ .

(١١) سامية إمام، مصدر سابق، ص١٦٨ و٢٢٧ .

(١٢) انظر على سبيل المثال ـ صلاح العمروسي «حول الرأسمالية الطفيلية»: دراسة نقدية، دار الفكر المعاصر، القاهرة ١٩٨٥ .

ـ د. محمود عبد الفضيل «حول مفهوم الرأسمالية الطفيلية في ظل الانفتاح» مجلة «الطليعة» مايو ١٩٨٤

ـ د. محمد عبد الشفيع موسى «الرأسمالية الطفيلية في مصر. . . هل هي مفهوم علمي» مجلة «الطليعة» اكتوبر ١٩٨٤ .

ـ د. محمود عبد الفضيل، حول «مفهوم الرأسمالية الطفيلية في الواقع المصري الراهن» مجلة «الطليعة» يناير ١٩٨٥ .

ـ د. ابراهيم العيسوي «في اصلاح ما أفسده الانفتاح» كتاب الأهالي رقم ٣، القاهرة، سبتمبر ١٩٨٤ .

ـ د. فؤاد مرسي، «هذا الانفتاح الاقتصادي» بيروت، دار الوحدة للطباعة، ١٩٨٠ .

ـ معظم أعداد مجلة «اليسار العربي» الصادرة في بيروت، وخصوصاً بعد ١٩٨٤ .

(١٣) وحتى في حالة أحمد محرم الواردة في ص١١٠ من المصدر المذكور، حيث تولى منصب وزير الاسكان، يصح القول انه تولاها بوصفه رئيساً لجمعية المهندسين، وصاحب مكتب استشاري على علاقة وثيقة بكبار الرأسماليين منذ الخمسينات وليس العكس.

(١٤) Patrick O'Brien, «The Revolution in Egypt's Economic System» London, Oxford University Press, 1966, P.242.

(١٥) M.Abdul Fadhil, «The Political Econony of Nasserism» Cambridge, Cambridge University Press, 1980, P. 107.

في الواقع يشكل هذا الضرب من الاستقراء الغائي للتاريخ أساس تحليلات معظم التيارات الماركسية العربية لما يُسمى بـ «الثورة الوطنية الديمقراطية» التي يجب أن تسير نحو الاشتراكية، وإلا فانها تكون قد ضّلت الطريق.

(١٦) محمود حسين، «الصراع الطبقي في مصر»، ترجمة عباس بزّي وأحمد واصل، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧١، ص٢٣١ .

(١٧) عادل غنيم، مصدر سابق، ص١٩ وعادل غنيم «حول قضية الطبقة الجديدة في مصر»، مجلة «الطليعة» (القاهرة)، فبراير ١٩٦٨ .

(١٨) عادل غنيم «حول قضية الطبقة الجديدة» مصدر سابق، ص٩٠ .

(١٩) عادل غنيم، «نموذج» مصدر سابق، ص٣٦٥ .

(٢٠) الخفاجي، الدولة والتطور... مصدر سابق ص٦٥ .

(٢١) كل الأرقام للفترة مابعد ١٩٨٢ تعود إلى عصام الخفاجي، «الاقتصاد العراقي بعد الحرب مع ايران» مجلة «الفكر الاستراتيجي العربي» (بيروت)، نيسان ، ١٩٩٠ ص١٧٧ - ٢٢٢ والمجموعات الاحصائية السنوية الصادرة عن الجهاز المركزي للاحصاء، مالم تجر الاشارة إلى غير ذلك.

(٢٢) د. وداد مرقس، «سكان مصر، قراءة تحليلية في تعداد ١٩٨٦» القاهرة مركز البحوث العربية (بدون تاريخ) ص١٨ و٢١ .

(٢٣) د. محمد سلمان حسن، «التطور الاقتصادي في العراق ١٨٦٤ - ١٩٥٨» المكتبة العصرية، بيروت ، ١٩٦٥ ص٧٥ .

(٢٤) د. حسام مندور «ملاحظات حول الرأسمالية الصناعية» (قضايا فكرية) القاهرة، الكتاب الثالث والرابع، اغسطس، اكتوبر ،١٩٨٦ ص١٣٤ .

(٢٥) الخفاجي، «الدولة» مصدر سابق، ص٩٢ .

(٢٦) عادل غنيم «نموذج»... مصدر سابق، ص٣٥١ .

(٢٧) الخفاجي، «الدولة...» مصدر سابق ص٦٨ - ٦٩ .

(٢٨) أرقام ١٩٥٢ - ١٩٥٣ لمصر، عن Robert Mabro , «The Egyptian Economy 1952 — 1970» Clarendon Press, London, 1974, P.177 للعراق، عن د. هشام متولي «اقتصاديات القطر العراقي»، دمشق، مركز الدراسات الاقتصادية ١٩٦٤ ، ص٢٨ - ٢٩. أرقام ١٩٧٢ فما بعد،انظر الجدول رقم ٢.

(٢٩) د. صفاء الحافظ «القطاع العام وآفاق التطور الاشتراكي في العراق»، دار الفارابي (بيروت) ومكتبة النهضة (بغداد)، ١٩٧١ ص ٣٨٨ .

(٣٠) هذا الأمر توقعناه منذ عام ١٩٨٨ في دراسة «الاقتصاد العراقي...» المشار لها اعلاه. وبالطبع فان الوضع الراهن سيعجّل خطوات «التخصيص» اللاحقة .

(٣١) من المفيد التذكير بأن مهندس قرارات التأميم كان محافظ البنك المركزي آنذاك، د. خير الدين حسيب وهو من ابناء الموصل كما أن العسكريين الموصليين كانوا واسعي النفوذ في عهد عبد السلام عارف، وكانوا يُعرفون بكتلة عبد العزيز العقيلي.

(٣٢) بطاطو، مصدر سابق ص٥٨ - ٦١ وص٢٧٦ - ٢٨١ .

(٣٣) فاضل البراك «المدارس اليهودية والايرانية في العراق» بغداد، الطبعة الثانية، ١٩٨٥ ص١٥٠ - ١٥٢ . ليس هنا مجال الحديث عن مفهوم «التبعية» والمآسي التي انطوى عليها التهجير، لكن هذا المصدر نفسه يعترف في مواضع عدة بأن بالمهجرين يمتلكون وثائق كاملة تثبت مواطنتهم العراقية، بل إنه يحذّر القارىء من الانخداع بـ «انتساب مثل هؤلاء إلى القبائل العربية المعروفة» حين ترد أسماء تدل ألقابها بوضوح على ذلك، فلايجد البراك تفسيراً غير قول «فذلك من قبيل الانتحال الذي يراد به التمويه وطمس الحقائق» (ص١٥٦) .

ان قضية التهجير ودوافعها طُرحت على أكبر قدر من الصراحة والوضوح في مقابلة أجرتها مجلة «ألف باء» الاسبوعية العراقية (٢٥/٦/١٩٨٠) مع البراك نفسه، إذ قال: «وتسري اجراءات التسفير على أية عائلة ايرانية يثبت عدم ولائها للثورة والوطن حتى إذا كانت تحمل شهادة الجنسية العراقية».

(٣٤) أحمد حروش، «قصة ثورة ٢٣ يوليو» الجزء الثاني بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٥ ص٢٥٦ .

(٣٥) الدسوقي، مصدر سابق، ص١٧١ - ١٧٣ .

(٣٦) سامية سعيد، مصدر سابق، ص٦١ - ٧٢ .

(٣٧) على سبيل المثال، وتحت بند «بعض مظاهر الثروة قبل الثورة» نجد التالي: عبد المحسن شتا مساهمة في شركة بمبلغ ٤ آلاف جنيه، صدقي محمد الصيرفي، مساهمة بمبلغ ٣,٣ ألف جنيه، أحمد يوسف الجندي مساهمة بمبلغ ٢,٧ ألف جنيه، محمد محمود هيكل بمساهمة بمبلغ ١٣,٤ ألف جنيه، عبد الغفار البربري ١٨,٣ ألف جنيه، زكي هاشم ألفي جنيه، ريتشارد وديع غرغور ١٠ آلاف جنيه، مصطفى عجرمه ١٨,٥ ألف جنيه، أنور حلبوني ٤,٢ ألف جنيه، عبد الجليل العمري ٣,٣ ألف جنيه، حسن عباس زكي ١٣,٥ ألف جنيه. نعمت شريف الكسان ١٢,٥ ألف جنيه. المصدر السابق، ص ٦١ - ٧٢ .

(٣٨) عبد القادر الحراكي ١٠ آلاف جنيه، مريت بطرس غالي ١١ ألف جنيه، مصطفى عجرمه ٤٨ ألف جنيه، حسن عباس زكي ٥٣ ألف جنيه، (ص٦١ - ٧٢) .

(٣٩) د. علي بركات، مصدر سبق ذكره، أنظر خاصة، الفصل الثاني «ظهور الملكيات الكبيرة واثره على توزيع الملكية» ص٧٠ - ١٤٨ .

والفصل الثالث «خريطة القوى الاجتماعية على ضوء التفسيرات التي حدثت في توزيع الملكية» ص١٤٩ - ٢٨٢ .

(٤٠) اريك ديفز، مصدر سابق ص٦٢ .

(٤١) ديفز، ص١١٠ - ١١١ .

(٤٢) مصدر سابق ص١٠٩ .

(٤٣) بطاطو، مصدر سابق، ص١١١٦ و١١٢٦ - ١١٢٧ . لكن علينا الاشارة إلى أن البروفسور بطاطو أوضح أنه لم يقصد القول بأن الدولة صارت صانعة للطبقات، بل ان الثورات خلقت ظروفاً مواتية لتوسع «الطبقات الوسطى» انظر المناقشة مع كاتب البحث:

Isam, AL – Khafaji«State Incubation of Iraqi Capitalism» Middle East Report, Sep – Oct. 1986, p3 – Hanna Batatu, «State and Capitalism in Iraq: A Comment in Ibid., p. 10 – 13.

(٤٤) عالجنا هذا الجانب بالتفصيل في كتاب. «رأسمالية الدولة الوطنية» بيروت، دار ابن خلدون، ١٩٧٩، وخاصة الفصل الثالث.

(٤٥) نشير على سبيل المثال إلى حالة «الصناعي» علي الجنابي في الجدول - ٤ - (الفقرة الثالثة). هنا لدينا حالة «صناعي» يملك معملاً للشوكولاته حتى عام ١٩٨٠ وهو مالا يؤهله للتصنيف ضمن الرأسمالية الكبيرة، يشير المصدر الذي استقينا عنه معلوماتنا إلى ان زوجته «السيدة صابرين» صناعية «تدير» مطاحن السيدة في النجف منذ عام ١٩٨٠ ولا يتحدث المصدر عن اقامة المطاحن الضخمة، وبالعودة إلى كتاب مدير الامن العام (انظر الهامش - ٣٣ -) نجد ضمن تعداد «المشبوهين» الذين تم تهجيرهم عام ١٩٨٠ الصناعي

العذاري «صاحب معمل السيدة»! ولا تمضي سبع سنوات حتى يكون من أوائل المستفيدين من عملية «التخصيص» فيشتري أحد معامل الدولة الكبيرة بمبلغ ٢,٥ مليون دينار، وحين نعود إلى قوائم التبرعات في فترة الحرب ضد ايران نجد أنه تبرع بما يزيد عن أربعة ملايين دينار، بعضها لانشاء مقرات للحزب الحاكم في محافظة النجف. ومن الواضح من كل هذا أن ثمة تشابكاً هنا مع المؤسسة السياسية، ولكن لعدم تمكننا من تحديده بالدقة لم نُدخل هذا الصناعي ضمن الجدول (٣).

(٤٧) Tim Mitchell,«America's Egypt, Discourse of the Development Industry» Middle East Report, Mar – Apr. 1991, pp.18 – 34.

Ibid, p. 21.

* ألقى الباحث العراقي المعروف عصام الخفاجي صيغة مختصرة من هذا البحث في كونفرنس علمي نظمته جامعة بيركلي، كاليفورنيا في الفترة ٩ - ١٢ أيار ١٩٩١، تحت عنوان «الطبقات الوسطى ونخب أرباب العمل في الشرق الاوسط وشمال افريقيا». ونشر البحث أيضاً في العدد الأول من مجلة (جدل) التي يتولى الباحث رئاسة تحريرها وتصدرها مؤسسة (عيبال) للنشر.

من المساهمين في العدد: سمير أمين، رزق الله هيلان، كاظم حبيب، بوعلي ياسين، عارف دليلة، عبد الله حنا، صالح ياسر حسن، غازي مسعود. . .



أيريدون رحيل صدام أم زوال نظامه؟

ارتأت المجلة ان تعيد نشر الكراس الذي كتبه الرفيق الشهيد عبد الرحيم شريف في آب ١٩٤٣ بعنوان «بادوليو بعد موسليني» ونشر بكراس في سلسلة (رسائل البعث) التي كان التقدميون العراقيون يصدرونها عامذاك. وبادوليو هو الدكتاتور الذي حل محل موسليني في حكم ايطاليا. وقد اعتبر الكثيرون ان تنحية موسليني قد قضت على الفاشية في ايطاليا.

فثمة آراء تقول ان النظام القائم في عراقنا زائل بزوال صدام. وآخر ما ورد على لسان الرئيس الاميركي بهذا المعنى ما قال في الذكرى الاولى لغزو الكويت «الخلاف ليس مع شعب العراق، أو مع القادة الآخرين في العراق. الخلاف هو مع صدام حسين. واذا اقنعه الجيش بالتنحي والخروج من هنا فأني ساعطيهم فرصة حقيقية...» ان بوش لا يريد إلا تغيير رأس النظام الحالي بحاكم يروق له ولمؤيديه.

بادوليو بعد موسوليني

عبد الرحيم شريف

ان الفاشية الايطالية ارادت ان تنقذ نفسها وتكسب الوقت، فطردت الدوتشه من منصبه. فالفاشيون المقنعون يلقون بزملائهم السافرين إلى الهوة لتهدئة غضب آلهة الانتقام.

اهرنبورغ

في الساعة الثالثة والعشرين من اليوم الخامس والعشرين من شهر تموز عام ١٩٤٣ اذاع راديو روما نبأ استقالة موسوليني. واذ انتشر هذا الخبر في أرجاء العالم، ظهر بعض التبلبل في الآراء حول مغزى هذا الحادث، فرأينا من الواجب ان نشرح للرأي العام العربي حقيقة الأمر، وما يدل عليه سقوط موسوليني، وواجب الأمم المتحدة في هذا الشأن. فكتبنا مقالاً نشر في رسالة من رسائل البعث بعنوان «علام يدل سقوط موسوليني» بينا فيها ان سقوط موسوليني وان دل على تصدع أركان الفاشية في ايطالية، إلا انه لا يمكن ان يعتبر انهياراً لها، وناقشنا بعض الآراء التي ابديت في هذا الحادث، وكان مما تطرقنا اليه في عرض بحثنا قولنا «اننا لا نذهب مع القائلين ان الفاشية على وشك الانهيار ان لم تكن قد انهارت، ولا نرى ما رأته جريدة صوت الاهالي في مقالها الافتتاحي المنشور في عددها الصادر يوم ٢٧ تموز ٩٤٣ من «ان مجرد سقوط موسوليني يعد انهياراً لاقدم صرح للفاشية في اوربا، باعتبار ان زعامة الدوتشي كانت هي الركن الأساسي لهذا الصرح والحلقة الرئيسية المسيِّرة لسياسة ايطالية الفاشية». فنشرت تلك الجريدة تعليقاً على رسالتها بتاريخ ٩ آب ١٩٤٣ بعنوان «حول نهاية موسوليني: سؤال بدون جواب» ونظراً إلى ما وجدنا في هذا المقال من تشويه لموضوع الرسالة وللحقائق التي بحثت عنها وللآراء التي تضمنها، ونظراً إلى ما لهذا الموضوع من خطورة عالمية، لم نجد من الصواب اهمال ذلك التعليق فكتبنا رداً عليه، ولكن جريدة صوت الاهالي أبت ان تنشر ردنا ـ وهي من دعاة حرية النشر ـ فاضطررنا على نشر هذه الكلمة التي تضمنها ردنا لتنوير الرأي العام.

لماذا كتبنا رسالتنا
ولماذا ردت عليها جريدة صوت الاهالي؟

نعتقد ان كاتب المقال يسلم معنا بأن الحرب القائمة بين معسكر الأمم المتحدة

ومعسكر المحور قد مال ميزانها لصالح الأمم المتحدة، وان زعماء المحور أصبحوا موقنين بخسرانهم هذه الحرب يقيناً لا لبس فيه. ولهذا أخذوا يسعون جهدهم لتأخير نهايتها، يبغون بذلك ان يكون الصلح الذي سيعقبها منطوياً على التساهل معهم والابقاء على شيء من كيانهم، ومن الأسس التي قام عليها هذا الكيان. ولهذا فانهم بعد ان كانوا يسيرون على أساليب الحرب الصاعقة، اضطروا على تبديلها بخطط الدفاع والتعويق. فأخذت دعاياتهم تصطبغ بصيغة هذا الدفاع وتخدم نفس اغراضه. وبعد ان كانوا يذيعون على الملأ انهم قضوا على الجيش الأحمر مثلاً، باتوا بعد معركة ستالينغراد ومأساة الجيش السادس الالماني، يتباكون على الحضارة الاوربية التي لم يدخروا وسعاً في هدمها، وأخذوا يضربون على وتر الخطر الشيوعي الذي يهدد هذه الحضارة على زعمهم! أملاً منهم بأن يلقوا التفرقة بين الأمم المتحدة التي تظافرت على الجهاد في محاربتهم. ولكن هذه الأمم كانت فطنة إلى هذا السلاح الذي لجأ اليه زعماء العصابات الفاشية، فكان نصيب اللعبة المحورية الفشل الذريع. ولما خسرت القوى المحورية معركة افريقيا ودخلت جيوش الحلفاء الاراضي الايطالية في صقلية وأخذ الشعب الايطالي يتململ، فخرّج مركز المحور مخرجاً عظيماً في هذه الناحية أيضاً، ولجأ زعماء العصابات الفاشية، مضطرين تحت ثقل الوضع الذي آلت حالهم اليه، إلى مناورة أخرى، فنحي موسوليني عن مركزه وحلت محله شخصية عسكرية كانت في خدمة الفاشية مدة احدى وعشرين سنة، واعلنوا للملأ ان انقلاباً قد حدث. ولكي يتقنوا هذا (الدور) حلوا المؤسسات الرسمية للحزب الفاشي، ونحوا بعض زعمائه البارزين عن مراكزهم وأخذوا يظهرون للملأ ان الفاشية قد انهارت في ايطالية، ذلك لكي يتمكنوا من اخراج ايطالية من الحرب بدون استسلام عسكري وجعلها دولة محايدة، فيتقوا نتائج بيان (الدار البيضاء) الذي صرح فيه بمواصلة الحرب ضد الدول الفاشية حتى تستسلم بلا قيد ولا شرط. وقد كان هذا البيان صيغة رسمية من جانب الحلفاء للعزم الذي عقدت عليه الأمم المتحدة الخناصر - فاذا ما نجحت هذه المناورة ضمنت المانية آنئذ سلامة جناح من اجنحتها الحربية (الجبهة الايطالية) دون حاجة إلى الدفاع عنها عسكرياً. وقد نوه بذلك أكثر المعلقين العسكريين.

وكما قامت الحرب بين معسكري الأمم المتحدة والمحور في ميادين القتال، قامت الحرب كذلك في ميادين الدعاية، فانقسم العالم في معالجة هذا الحادث إلى معسكرين، معسكر المحور ومن يميل إلى المحور، الذي يقول ان الفاشية قد زالت من ايطاليا، فلا معنى اذن لمواصلة الحرب ضدها، ومعسكر الأمم المتحدة الذي وقف موقفاً مناقضاً لهذا الرأي، واصر على ضرورة مواصلة الحرب ضد حكومة بدليو، كما كانت ضد حكومة موسوليني، حتى تستسلم بدون قيد أو شرط. وذلك لأن الفاشية لم تنته وان زالت بعض

أشكالها الظاهرية، ولأن جوهر الحكم لم يزل واحداً في كلا الحالين.

واذا كانت الحرب في ميدان القتال لا تترك مجالاً لمتردد ان يقف بين الفريقين المتقاتلين، فان الحرب في ميدان الدعاية وأسفاه على غير ذلك. فإلى جانب هذا الموقف الحازم الذي وقفته الأمم المتحدة بعدم التفريق بين الحكم العسكري في ايطاليا في عهد موسوليني وخلفه بادليو، نجد بين صفوف هذه الأمم نفراً قليلاً تقبلوا هذه الدعوة المحورية شاعرين أو غير شاعرين، فرأوا في هذا الحادث انقلاباً حقيقياً! ونجد كذلك اناساً (متحفظين) جمعوا بين الرأيين، فرأوا بعد التحفظ بشأن موقف حكومة ايطاليا الجديدة «ان مجرد سقوط موسوليني يعد انهياراً لأقدم صرح للفاشية في اوربا» بأعتبار ان زعامة الدوتشي كانت هي الركن الأساسي لهذا الصرح والحلقة الرئيسية المسيّرة لسياسة ايطاليا الفاشية» وان النظام الفاشي بعد التضعضع الذي أصابه، قد انهار بسقوط «زعيمه ومنشئه وقائده» الذي كان هو «الكل في الكل» لايطاليا الفاشية، كما ذهبت إلى ذلك جريدة صوت الاهالي في عددها الصادر في ٢٧ ـ ٧ ـ ٩٤٣، وكما أصرت على هذا الرأي في عددها الصادر في ٩ ـ ٨ ـ ٩٤٣.

ولما كان هذا الموضوع خطيراً يهم الرأي العام العالمي بأجمعه، كان من أولى واجبات الكتّاب والمفكرين في بلاد الأمم المتحدة، ومنها بلادنا العربية، ان ينوروا الناس بحقيقة هذا الحادث واثره في مجرى الحرب الحالية والحوادث الدولية الجارية. وهذا ما دعانا لأن نكتب رسالتنا «علام يدل سقوط موسوليني؟» ونبين للرأي العام دلالة استقالته من منصبه، وواجب الأمم المتحدة في هذا الشأن. وبينا في ساعته خطأ الرأي القائل: بأن سقوط موسوليني معناه انهيار الفاشية في ايطاليا «ص ٣ من الرسالة» لأن زعامة موسوليني أو غيره لا يمكن ان تكون ركناً أساسياً تقوم عليه الفاشية في بلد ما، ولأن للفاشية عوامل تاريخية تقوم عليها «ص ٣» وقلنا: انه لا يتم القضاء عليها إلا بأجتثاث العوامل التي أدت إلى قيامها «ص ١٠» لأن الفاشية ليست حركة شخصية «ص ١٢». فالقول بأن موسوليني كان «الكل في الكل» لايطاليا الفاشية، كما ذهبت اليه جريدة صوت الاهالي خطأ عظيم.

غير ان المعركة بين الدعاية للفاشية والأمم المتحدة لم تنته بعد، وان حكومة بادليو ومن ورائها جهازا الدعاية الالمانية والايطالية لم تزل تواصل جهودها المستميتة لاقناع العالم بأن الفاشية قد انهارت في ايطاليا. فبينما تقوم هذه الحكومة ببعض التدابير الشكلية التي لا أثر لها في سياسة البلاد ومجرى الحرب، كالغاء بعض الشعارات الفاشية وتبديل برامج التعليم لصبية المدارس، تجدها تواصل حكم البلاد حكماً فاشياً مستعينة بالشرطة السرية الفاشية، وتستمر على ادخال الفرق الجرمنية وتيسّر لها كل ما تحتاج اليه هذه الجيوش في طول البلاد وعرضها.

واذا كان هناك شك لمتردد، فما عليه إلا ان يصغي إلى اخبار الحرب، ليعرف من هو المستميت في محاربة جيوش الحلفاء في صقلية، أهي الفرق الجرمنية ومن ورائها حكومة بادليو الفاشية، أم الشعب الايطالي الذي أخذ يقيم المظاهرات ويطالب هذه الحكومة بوقف الحرب؟ وهل يصح القول بانهيار الفاشية في ايطاليا وهي تزخر بجيوش أشد دول العالم فاشية ورجعية؟

وانه ليؤسفنا ان يبقى بين ظهراني الأمم المتحدة من يفرق بين حكومتي بادليو وموسوليني في جوهرهما واغراضهما، وان اختلفتا في بعض المظاهر الشكلية، أو ان يبقى على الأقل بين الديمقراطيين المثقفين في هذه الأمم من يصر على ان الفاشية في ايطالية قد انهارت بعد ان مضى على سقوط موسوليني خمسة عشر يوماً (من ٢٥ ـ ٧ ـ ٤٣ ـ ٩ ـ ٨ ـ ١٩٤٣) زال خلالها كل مجال للشك أو اللبس أو الغموض في حقيقة حكومة بادليو التي كانت معروفة منذ قيامها. فما أكثر البيانات التي نشرت، والتصريحات التي صدرت من مختلف الجهات والشخصيات في شأن هذه القضية. فهذا هو السير ستافورد كريبس يصرح: ان الفاشية لم تزل بعد من ايطالية، وان الكثيرين يعتقدون انها لن تزول منها اذا ظل بادليو. . . (صوت الاهالي عدد ٣٤١). وهذا هو ايليا اهرنبورغ يكتب مقالاً عن «مصير الدوتشي» يقول فيه: «ان الفاشية الايطالية قد أرادت ان تنقذ نفسها وتكسب الوقت فطردت الدوتشي من منصبه. فالفاشيون المقنعون يلقون بزملائهم السافرين إلى الهوة، لتهدئة غضب آلهة الانتقام» (صوت الشعب البيروتية في ٤ آب ١٩٤٣) ترى من هم الفاشيون المقنعون الذين ألقوا بزميلهم موسوليني الفاشي السافر، اذا كانت الفاشية الايطالية قد زالت بزواله؟ وها هو الحزب الاشتراكي الايطالي يعلن «ان أكثرية أعضاء الحزب الفاشي الأعلى قد صعقوا من التطور الداخلي في ايطالية، فتحاشوا ثورة الشعب بتضحيتهم بموسوليني وببعض المثل الفاشية، في حين انهم عهدوا بالسلطة إلى العسكريين» ثم يؤكد هذا الحزب «ان نظام بادليو الحالي لم يكن غير نظام الفاشيين بدون موسوليني، وان آخر محاولته هي الاحتفاظ بالاحوال الاجتماعية الموجودة الآن في ايطالية. . . وان بادليو خدم موسوليني احدى وعشرين سنة، يساعده في القضاء على المقاومة الداخلية وتحقيق الاهداف الاستعمارية» (صوت الاهالي عدد ٣٤٠). وغيره هذا وذلك كثيرون من الذين حذروا من كل تساهل قبل حكومة بادليو. وها هي قوات الحلفاء تستأنف ضرباتها المميتة بعد ان امهلت حكومة بادليو زمناً، وبعد ان ثبت لها ان هذه الحكومة تواصل نفس سياسة موسوليني وهتلر وتخدم نفس اغراضهما.

ولكن صوت الاهالي تنشر هذه الاخبار ولا تعبأ بما تنشر! فبينما تقول وتؤكد بصراحة «اننا لا نزال نعتقد ان سقوط موسوليني معناه انهيار الفاشية في ايطالية. . » وذلك في

الصفحة الثانية (من عددها ٢٤٠) نجد ان الصفحة الرابعة من هذا العدد تحمل بيان الحزب الاشتراكي الايطالي سالف الذكرا ثم نجدها تنشر في اليوم التالي تصريح السر ستافورد كريبس. فما الذي حمل هذه الجريدة على هذا الاصرار، وما الذي حملها على هذا التناقض؟ ذلك ما نترك الاجابة عنه إلى صاحب الجريدة.

لقد بينا السبب الذي دفعنا إلى كتابة رسالتنا، ونؤكد ثانية اننا كتبناها لتنوير الرأي العام بحقيقة هذه المناورة الفاشية. أما الآن فنسأل تلك الجريدة عما دفعها إلى الرد علينا. أكان ذلك رأياً خاطئاً ارتأيناه وكان نشره مضراً بالصالح العام، فبرزت لتصحيحه وتوجيه الناس وجهة صحيحة؟ اننا لم نجد لها رداً على رأي من الآراء التي تضمنتها رسالتنا أو تصحيحاً، ولو انها فعلت ذلك اذن لاستحقت منا اجزل الشكر، لأننا نعتبرها أنئذ قاصدة اقالة عثرة الكاتب وتصحيح رأي القارىء. فاذا استثنينا من مقالها عبارات التهجم علينا واسنادها الينا الخلط والتردد وعدم التوفيق وغير ذلك من العبارات التي وردت في مقالها، لم نر إلا اصرارها على الفاشية قد انهارت، وإلا اضافتها الينا رأياً مختلفاً لم ترد منه في رسالتنا كلمة واحدة (لا لفظاً ولا معنى)، وهوزعمها اننا رأينا ان الفاشية لا تنهار إلا اذا زالت الرأسمالية من الكون! اننا نتحدى هذه الجريدة التي تندب امانة النقل، ونطلب منها ان تدلنا على المحل الذي ورد فيه هذا الرأي من رسالتنا لفظاً كان ذلك أو معنى. (. . .)

واذا كان كاتب المقال لم ينبر في رده علينا لتصحيح خطأ، فما الذي أثار ثائرته، فحمله على تجبير هذا المقال بهذه اللهجة الرخيصة الناقمة؟ ذلك سؤال آخر نترك الاجابة عنه للكاتب نفسه.

يجدر بنا ان نقف هنا قليلاً على بعض العبارات التي وردت في مقال صوت الاهالي وننشر ما تعلق منها برسالتنا ليقف القراء على حقيقة الأمر.

قال محرر المقال: «أراد كاتبها (رسالة البعث) ان يستدل من سقوط موسوليني على شيء قطعي دون ان يوفق إلى ذلك، لأن التردد سرعان ما ينتقل بالكاتب إلى تحليل عوامل الفاشية. . .» أما جوابنا له فهو ان نحيله على تلك الرسالة ليقرأ في الصفحة الاولى منها «ولا شك ان سقوط دكتاتور ايطاليا وزعيم الحزب الفاشي الايطالي يدل دلالة قوية على تصدع أركان نظام الحكم الفاشي في ايطاليا وتأزم الاحوال وحراجة موقف هذا الطاغية» وليقرأ في الصفحة الثالثة «اننا لا نشك في ان سقوط موسوليني دليلر قوي على تصدع اركان الحكم الفاشي في ايطاليا وعلى حراجة موقف الدكتاتور الساقط، غير اننا لا نذهب مع القائلين ان الفاشية على وشك الانهيار ان لم تكن قد انهارت، ولا نرى ما رأته جريدة صوت الاهالي في مقالها الافتتاحي المنشور في عددها الصادر في ٢٧ ـ ٧ ـ ٩٤٣ من «ان مجرد سقوط موسوليني يعد انهياراً لاقدم صرح للفاشية. . .» وليقرأ ايضاً في الصفحة

الرابعة «أننا لا نشك في ان سقوط موسوليني دلالة على تصدع الحكم الفاشي في ايطاليا، وبشيراً بدنو ساعة الحكم الفاشي. وقد نسمع في القريب قيام الشعب الايطالي في وجه الحكم العسكري واجبار حكومته على ايقاف القتال والتخلص من الهتلرية الالمانية والخروج من هذه الحرب التي فرضها عليه زعماء الفاشية الخائنون، دون ان يكون له أي رأي أو مصلحة في خوض غماره.» وليقرأ في الصفحة العاشرة «أما ان نعزو سبب قيام هذه الحركة في ايطاليا في ذلك الوقت إلى موسوليني نفسه فذلك خطأ محض. ولم يكن موسوليني غير قائد في حركة تهيأت للظروف المادية لقيامها، فلو لم يكن موسوليني موجوداً حينذاك لوجدت هذه الحركة غيره قائداً لها ونصيراً، ولهذا السبب ذاته لا يجوز ان ننتظر موت الفاشية باستقالة موسوليني وانما تموت باجتثاث العوامل التي أدت إلى قيامها ليس غير. والذهاب إلى ان مجرد سقوط موسوليني انهيار لاقدم صرح للفاشية في اوربا، واعتبار زعامته الركن الاساسي لصرح الفاشية خطأ، لأننا يمكن ان نستدل من هذا الحادث على تصدع أركان الحزب الذي كان يقوده هذا الزعيم، وقد الغي هذا الحزب فعلاً... ولكن لا يجوز ان نذهب إلى العكس فنعتبر سقوط موسوليني أو الغاء الحزب الفاشي انهياراً للفاشية» أ. هـ

ترى هل ان هذا المحرر ما زال مصراً بعد هذا على اننا لم نوفق إلى جواب قطعي في رسالتنا «علام يدل سقوط موسوليني؟» أو ان هذا السؤال قد بقي بدون جواب؟ أو لا يزال يصر بعد هذا الجزم الذي تواترت عليه عباراتنا التي اقتبسناها له الآن على ان التردد سرعان ما ينتقل بنا... (على حد تعبيره)؟

يقول هذا المحرر: «أما فيما يخص هذه الناحية الجوهرية فجل بحث الكاتب حولها بمثابة رد على عبارة وردت في المقال الذي نشرته هذه الجريدة».

الحق اننا كتبنا رسالتنا لتحذير الرأي العام من تقبل الدعوة المحورية التي تقدم ذكرها، ونوهنا عرضاً بعدم مشاركتنا جريدة صوت الاهالي في الرأي الذي نشرته، ولكننا لم نفنّد هذا الرأي لأنه نشر في صوت الاهالي، فلقد رد السير ستافورد كريبس على هذه النزعة مع من ردّ، دون ان تصل إلى يده هذه الجريدة أو يعرف بوجودها على ما نرجّح. ولسنا نقول هذا مستهينين بها فانا نحترم لها ماضياً نذكره بالاعتزاز.

اننا نؤكد لصاحب الجريدة اننا لم نكن في معرض احصاء زلة عليه حين كتبنا رسالتنا ولو كان هذا غرضنا لما اكتفينا بالتنويه برأيه هذا الذي يدور حوله النقاش. ونؤكد له ايضاً اننا لسنا في صدد احصاء شيء عليه الآن كذلك. واذا رجع إلى رسالتنا يجد اننا اكتفينا بالقول اننا لا نرى ما رأته جريدة صوت الاهالي، وانا لا نشارك أصحاب هذا الرأي فيما يرون (ص ٣). ترى هل اقترفنا ذنباً بعدم مشاركتنا تلك الجريدة فيما رأت؟ وهل اذنب كل

الذين ادركوا حقيقة الوضع في ايطالية فلم يشاركوها في رأيها؟

يقول محرر المقال: يظهر ان الكاتب لم يراع الامانة في النقل فانتخب هذه الجملة ـ ان مجرد سقوط موسوليني يعد انهياراً لاقدم صرح للفاشية. . . ـ للرد دون التطرق إلى السياق الـذي اتت به أي دون التنويه بما ورد قبلها وما أتى بعدها. . . وشبه ذلك بمن استشهد بقسم من الآية (ولا تقربوا الصلواة. . .).

فعلى الرغم من ان هذه الفكرة قد جاءت كاملة مستقلة في المقال، فلسنا نمانع في الرجوع إلى مقاله ذاك لنجده ـ بعد تلك العبارة ـ يعزو انهيار النظام الفاشي أخيراً وبعد تضعضعه إلى سقوط «زعيمه ومنشئه وقائده» الذي كان هو «الكل في الكل» لايطالية الفاشية.

افبهذا تكمل الآية ايها الاستاذ؟

أما ما تقدم تلك العبارة، فهو تحفظ الاستاذ بشأن حكومة بادليو. فهل كان ثمة خفاء يحتاج إلى التحفظ، وبادليو في خدمة الفاشية احدى وعشرين سنة؟ وما قيمة هذا التحفظ اذا كان الاستاذ حتى يوم ٩ ـ ٨ ـ ٤٣ «لا يزال يعتقد بأن سقوط موسوليني معناه انهيار الفاشية في ايطالية»؟ الا انه ليفرح هتلر وعصابته وينفعهم ان يكثر المصرون على هذا الرأي بين ظهرانينا وفي العالم أجمع.

يقول محرر المقال «اننا لا نزال نعتقد بأن سقوط موسوليني معناه انهيار الفاشية في ايطالية، ونعني بذلك الدكتاتورية بشكلها الحديث التي تختلف عن أشكال الدكتاتورية القـديمـة وعن الحكم الـرجعي». ولا ندري ماذا يقصد باختلاف الفاشية التي هي الدكتاتورية بشكلها الحديث عن الحكم الرجعي، أيرى انها حكم تقدمي؟ اللهّم ان كان هذا رأيه فانه رأي لم يسبقه اليه أحد. فان كون الفاشية حكماً رجعياً أمر لا جدال فيه، بل لا جدال في انها أشد أشكال الحكم رجعية. ولقد عرفها الكومنترن في اجتماعه الثالث عشر بما يلي: «الفاشية هي الدكتاتورية الارهابية الصريحة التي تعلنها العناصر الموالية للرأسمال الضخم، العناصر التي هي أكثر الناس تعصباً قومياً أعمى وميولاً رجعية وروحاً استعمـارية». ولو تيسر لهذا الاستاذ ان يرى ما كتبناه في الصفحة التاسعة والعاشرة من رسالتنا اذن لأراح نفسه من الدخول في مأزق التفريق بين الفاشية والحكم الرجعي، إذ يجد ان المؤتمر السادس للشيوعية الدولية قد وصف الفاشية بالوصف التالي: «ان الصفة المميزة للفاشية، هي ان الطبقة البرجوازية، أخذت تستغل تذمر الطبقات العاملة غير الواعية. . . فتقيم من هذا المزيج حركة رجعية جماهيرية، تبني عليها حكماً مستنداً على أسالاليب العنف الصريح لتعيق نمو الثورة وتحطم قوة منظمات العمال والفلاحين التي تتقدم نحو السلطة».

ويقول المحرر: «أما رسالة البعث فانها أرادت ان تبحث باسهاب في تحليل الفاشية وعواملها فهي لم تتمكن من التفرقة بين أساليب الحكم المختلفة وبين الفاشية وهي في الحكم من جهة، وبين الفاشية كحركة ضئيلة لا يعتد بها مثل حركة موزلي في انكلترا من جهة أخرى، **ويظهر ان هذا الخلط هو الذي جعل كاتب الرسالة في شك وتردد. . .**».

ولو رجع الاستاذ إلى الصفحتين الحادية عشرة والثانية عشرة من رسالتنا لوجد فيها ما يلي:

«على ان الفاشية وان قامت في ايطاليا قبل غيرها، إلا ان العوامل المادية التي مهدت الطريق لظهورها في ايطالية قد كانت موجودة في كثير من البلاد الاوربية وخاصة في المانية، ولهذا لم تلبث هذه الحركة ان ظهرت في كل البلاد الغربية، وكان تارة قوية عنيفة كما في المانية وتارة ضعيفة كما في انكلترا».

فالفاشية ظاهرة وجدت في كل الاقطار الرأسمالية مع تفاوت في الدرجات، في مرحلة من مراحل تطور الرأسمالية. وقد قامت في ايطالية وفي المانية وفي اسبانيا (حركة فرنكو) وفي اليابان[1] وفي فرنسا الفيشية بعد الفتح الجرمني[2]، وظهرت في البرتغال وفي بريطانية (بزعامة موزلي) وفي الولايات المتحدة بقيادة (دنس) والأب (كوفان) وفي حركة القمصان الفضية. **على ان الفاشية الالمانية بعد ان توصلت إلى الحكم أقامت أقوى نظام فاشي في العالم تام التنظيم شديد الاعتداء. أما بقية الحركات الفاشية في الاقطار الأخرى**[3] **فقد بات قادتها اتباعاً ومنفذين للنفوذ الفاشي الجرمني**. ولكن هذا لا يعني ان هذه الحركات لم تنشأ مباشرة عن ظروف متشابهة ومن عناصر رجعية متفسخة في تلك الاقطار، مشابهة للعناصر التي جاءت منها الفاشية الالمانية. وحين أعلن اللورد (روذرمير) تأييده لموزلي منذ بضعة سنين، لم يكن يعلم انه انما كان يعمل لمصلحة الاستعمار الالماني. . .» ولو علم الاستاذ ان مرجعنا في هذا الرأي هو الكاتب البريطاني العالمي الشهير (بالم دات) لاشفق على نفسه من المسارعة إلى تسفيهه، ولتورع عن وصفه بالخلط والتردد على أقل تقدير. واذا أراد ان يتأكد من هذا فليراجع الفصل الثالث من كتاب هذا العالم «بريطانيا في الجبهة العالمية».

ويقول المحرر «ولعل هذا الخطأ هو السبب أيضاً لتردد الكثير حتى في الرد على العبارة التي اقتبسها كاتب الرسالة بصورة منفردة من مقالنا وذلك لما يبديه من التحفظات والاحتزازات الكثيرة في ذلك الرد. فتارة ينكر ان سقوط موسوليني يدل على انهيار الفاشية، **ولكن سرعان ما يقترن ذلك بالاعتراف بما سيكون لسقوط موسوليني من النتائج في تصدع الفاشية في ايطاليا**».

فلو التزمنا تسمية المسميات باسمائها لفرقنا بين التصدع والانهيار من جهة، ولفرقنا

بين الدلالة والنتيجة من جهة أخرى. واذا سلّم معنا الاستاذ بهذا التفريق وضعنا أمام عينيه عباراتنا التي استند اليها فاضاف الينا الخطأ والتردد وابداء التحفظات والاحتزازات الكثيرة، وها اننا نعيد بعضها رغم تقدمها في صدر هذه الكلمة.

«لا شك ان سقوط دكتاتور ايطالية... يدل دلالة قوية على تصدع نظام الحكم (ص ١)» و«إننا لا نشك في ان سقوط موسوليني دليل على تصدع أركان الحكم الفاشي في ايطالية... غير اننا لا نذهب مع القائلين ان الفاشية على وشك الانهيار ان لم تكن قد انهارت (ص ٣)» و«... لأننا يجوز ان نستدل من هذا الحديث على تصدع أركان الحزب... ولكن لا يجوز ان نذهب إلى العكس فنعتبر سقوط موسوليني أو الغاء الحزب الفاشي انهياراً للفاشية (ص ١٠)».

فأين هي التحفظات والاحتزازات بعد التصريح البات بعدم الشك؟ نرجو ان نكون قد «وفقنا» بعد هذا إلى الفات نظر الاستاذ إلى اننا رأينا في سقوط موسوليني دلالة على تصدع الفاشية، ولم نر ان انهيارها أو تصدعها نتيجة لسقوطه، والفرق بين الرأيين بيِّن واضح.

ولما كان هذا الاستاذ يندب الامانة في النقل، فكم كان جميلاً به ان يلتزم بها في هذه اللحظة على الأقل، وان يلتزم بها حين اسند الينا اننا نرى ان الفاشية لا تنهار إلا اذا زالت الرأسمالية من الكون.

ولو ان الاستاذ رجع إلى الصفحة الرابعة من رسالتنا لوجد اننا استشهدنا بالميثاق البريطاني السوفييتي المنعقد في ١٢ تموز ١٩٤٣ لمكافحة الفاشية بالدرجة الاولى، وقلنا ان «هذا دليل على ان موقعي هذا الميثاق قد ادركوا بحق ان الخطر الفاشي العالمي ممثل بالدرجة الاولى في القوى العسكرية الالمانية الهتلرية...» فكيف نعتقد «بأن الفاشية لا تنهار إلا اذا زالت الرأسمالية من الكون» على زعم جريدة صوت الاهالي، على حين نقول ان موقعي الميثاق المنوه به قد ادركوا بحق الخطر الفاشي وتعاهدوا على مكافحته، واحد طرفي هذا الميثاق هو بريطانية العظمى وهي دولة رأسمالية؟

وأخيراً نقول ان الفاشيين هم وحدهم الذين يشاركون الاستاذ في رأيه بأن الزعيم هو «الكل في الكل» بينما ينكر العلم عليهم ذلك، وينكره عليهم جميع دعاة الحرية في العالم، وإن لم ينكروا ما للزعيم من اثر في الحركة.

وختاماً فهذا وقت تدعو الضرورة فيه إلى توحيد الصفوف لا في داخل الأمة الواحدة فقط، بل بين جميع الشعوب التي اغرقتها الفاشية في حمم هذه الحرب وفرضت عليها ضرورة الجهاد الموحد ضد أعمالها الوحشية. فكان حرياً بصوت الاهالي ان لا ندخر وسعاً في سبيل هذه الوحدة ومواصلة هذا الكفاح، وكان حرياً بها ان ترحب بكل جهد يبذل في

مكافحة الفاشية وتشخيص عواملها، ولا تستاء منا اذا عالجنا هذا الموضوع العام الخطير وتتخذ منه سبباً للتهجم علينا، ولا يراد تلك العبارات التي أقل ما يقال فيها انها لا تنفع في توحيد الصفوف، والتي كنا نرجو ان يترفع الكاتب عن ايرادها، لاسيما وان البحث عن الحقيقة لم يكن ليقتضيها. ولا يتبادرّن إلى الذهن اننا نخاف على وحدة الصفوف من البحث العلمي ومناقشة الآراء، لأن البحث العلمي ومناقشة الآراء خير عامل في هذه الوحدة اذا كان مبعثهما النزاهة والاخلاص، واستقصاء الحقائق وكشفها للرأي العام.

بغداد في ١٩٤٣/٨/١٧

الهوامش

(١) وهي هنا شكل خاص من الفاشية العسكرية القائمة على أساس التوسع الاستعماري الاقطاعي

(٢) وان كانت الحركة الفاشية قوية قبل هذا الفتح بسنين، وقد نظم مؤيدوها الاستسلام لكي يفرضوا نظامهم الرجعي.

(٣) فرنكو وبيتّسان ودي لروك وموسوليني ومنرهايم وموزلي وانطونيسكو وسكلى وكويزلنغ وغيرهم.



تأرخة وتوثيق لواقع القوات المسلحة العراقية

أبو بابل

وأنت تقرأ كتاب العقيد الركن أحمد الزيدي: «البناء المعنوي للقوات المسلحة العراقية» يأخذك العجب والدهشة، وأحياناً تنتابك القشعريرة لهول ما حدث، ويحدث في بلدك العراق.

تتذكر أيضاً وأنت تقرأ بعض المعلومات الواردة فيه رواية «خريف البطريرك لماركيز» ـ الحديث عن الجانب المعلوماتي وليس الابداعي ـ فتقول لنفسك: حقاً، إن الدكتاتوريين في كل العالم يتشابهون في العديد من الصفات والخصال والسجايا، هناك سمات عامة مشتركة تجمعهم، ومع ذلك فان دكتاتور العراق وأفراد عصابته يتميزون عن هؤلاء بما أضفوه من مسحة خاصة على أعمال القمع الفاشي التي ارتكبوها بحق شعبنا المضام.

والكتاب يحوي أيضاً معلومات تصلح لأن تكون مادة خام لعمل روائي إبداعي درامي، حيث تفوق بعض الأحداث في غرائبيتها وعجائبيتها الخيال.

أهمية هذا البحث التاريخي ـ التوثيقي تتأتى من كونه من الدراسات القلائل في هذا المجال، وبذلك أغنى المكتبة بدراسة جادة تناولت نشأة وتطور وواقع الجيش العراقي الذي تأسس في ٦ كانون الثاني عام ١٩٢١.

إضافة إلى ذلك فانه تناول مؤسسة ذات أهمية فائقة وتأثير كبير ليس في العراق فقط، بل في بلدان العالم الثالث أيضاً، وذلك لما لعبته هذه المؤسسة في تاريخ شعوب هذه البلدان، التي لم تعرف مذاقاً حقيقياً للديمقراطية، ولم تتأسس فيها تقاليد ديمقراطية عريقة كما حدث في الغرب مثلاً. من هنا تتأتى خطورة هذه المؤسسة سواءً أُستخدمت كأداة قمع من قبل الأنظمة الدكتاتورية، أو كأداة تحويل ثوري للمجتمع من قبل القوى الثورية الشعبية. وفي الحقيقة فان التوغل في دراسة هذا الموضوع الحيوي يستلزم جرأة وقدرة على

المـواجهة، لذلك إبتعد العديد من الباحثين والكتّاب عن تناول موضوع بهذا القدر من الحساسية، وهذا يفسر ـ إلى حد ما ـ قلة الكتابات التي تناولته، بالاضافة إلى أن بعضها كُتب ليدافـع عن وجهـة نظر الحكـومات الرجعية والدكتاتورية التي استخدمت الجيش العـراقي لقمع شعبنا وطلائعه الثورية والوطنية، أي أنها كتابات ابتعدت عن الموضوعية ولجأت إلى تزوير التاريخ وتشويهه. أما كتاب الا ستاذ الزيدي فقد التزم النهج الموضوعي والحيادي بشكل عام، وهذه سمة أخرى أضفت أهمية كبيرة عليه. أي انه جاء ليعبر عن وجهة نظر المحكوم ونضاله من أجل حياة حرة وعادلة، وليس من أجل تكريس الحاكم ودوره القمعي ضد الشعوب، من هنا تستمد الكتابة شرفها ومشروعيتها ودورها في حياة الشعوب.

وللحقيقـة أيضاً نقول ـ وهذه وجهة نظر شخصية لا ندعي بانها كلية الصحة ـ ان الكتاب برغم موضوعيته وقع في بعض المبالغات التي خففت من درجة هذه الموضوعية، وهذا ما سيلمسه القارىء الكريم أثناء تسجيلنا لبعض الملاحظات النقدية حوله.

وحول تناول هذا الموضوع يقول الكتاب:

«إن الحديث بصراحة عن مؤسسة مهمة لها من المكانة في الدولة ما يجعلها شبه مقدسة، أمر لا يشجع الكثيرين على الخوض فيه، وربما كنت أول من يفعل ذلك، خاصة وان هذه المؤسسة ظلت دوماً الأداة الرئيسية لخدمة أغراض وأهداف السلطات الحاكمة على اختلافها، كما ظلت هذه السلطات وباستمرار تضفي صفة القدسية عليها، ولم تكن تسمح أبداً على الرغم من تناقض أهداف هذه السلطات ولو ظاهرياً وتغيير الحكام والأنظمة لمـرات عديدة، وعلى يد هذا الجيش نفسـه وبقـوة السلاح، لم تسمح بأن تُمس هذه المؤسسـة وينـاقش وجـودهـا ودورها وتاريخها، باسلوب جديد يهدف إلى التأكيد على الحقـائق والـوقائع (. . .) لذا فان بحثي في تاريخ الجيش العراقي سوف يشتمل على تحليل كافـة العـوامل والعناصر الحقيقية الفاعلة، وهذا في الواقع يمثل اتجاهاً بناءً في البحث والدرس والتنقيب، وهو ما لم يتناوله أحد قبلي من الكتّاب والباحثين الذين تصدوا للكتابة في هذا الموضوع»، ص ٩٧.

لعـل ما ساعد الاستاذ الزيدي على التوصل إلى استنتاجاته أنه كان ضابطاً على تمـاس مبـاشر مع الاحداث والوقائع التي عرضها، بالاضافة إلى الموضوعية التي حاول بلوغها، ـ وقد أصاب غالباً ـ، وهو ما قال عنه:

«إن ما سيرد في هذا البحث من معلومات تتصل بالوضع الخاص بالقوات المسلحة العراقية، هو نتيجة لما حصلت عليه خلال خدمتي الطويلة داخل الجيش العراقي والتي تصل إلى (٢٠) عاماً، إضافة إلى ما أدلى به لي زملائي الضباط والجنود العراقيون، إضافة

إلى وثائق أصدرتها القيادة العامة للقوات المسلحة العراقية والقيادات الميدانية، وأمكن الاستفادة منها في هذا البحث، وقد عانيت كثيراً في الحصول عليها، وهنالك معلومات أخرى كثيرة لم أكن أرى بأن الوقت في ظرفنا الحالي يسمح بادراجها بسبب كونها تتعلق ببعض زملائنا الذين لا يزالون في الخدمة» ـ ص ١١.

كتاب الاستاذ الزيدي تمحور حول أهم الأسباب التي أدت إلى تردي المعنويات داخل صفوف الجيش العراقي على مر تاريخه الطويل، فالطائفية المقيتة، والعشائرية، بالاضافة إلى المشاكل السياسية المعقدة: كالقضية الكردية، والتاريخ القمعي الطويل الذي عاناه شعبنا العراقي، كل ذلك أدى إلى التردي المذكور في العديد من الحالات الملموسة، ولا أقول كل الحالات، إذ أن تاريخ الجيش العراقي يحتوي أيضاً على العديد من الصفحات المشرقة سواء على الصعيد الوطني أو على الصعيد القومي ـ وهو ما سنتطرق اليه لاحقاً ـ، وفي الحقيقة فان مسؤولية ذلك التردي في المعنويات داخل الجيش العراقي تقع أولاً وبشكل أساسي على طبيعة الأنظمة الدكتاتورية التي تعاقبت، وعلى قيادات هذا الجيش التي جاءت لتنفيذ إرادات الطبقات الرجعية، والبرجوازية الحاكمة. أما قاعدته الاجتماعية العامة فهي من صلب شعبنا العراقي المكافح، وهو ما يصدق على مواقف، العديد من الضباط الوطنيين. ننطلق برؤيتنا هذه من حقيقة موضوعية مفادها ان الصراع الدائر في الجيش العراقي هو امتداد للصراع الاجتماعي الدائر في المجتمع العراقي بشكل عام. إذ ليس هناك ثمة انقطاع أو انعزال بين هذه المؤسسة وبين محيطها المجتمعي الكبير.

في مقدمة كتابه يستند الكاتب في تعريفه للروح المعنوية على ما قاله الجنرال كلاوزفتز في كتابه الوجيز في الحرب: «إنها تلك القوى غير المادية في جزئها الأكبر، والمادية في المجال الأضيق، التي تدفع الانسان ومن داخله لأن يتغلب على تأثير الخوف الذي تولده الحرب كمصدر رئيسي من مصادر الخطر، وكذلك بالمقابل تمنحه القدرة على إظهار الشجاعة والاقدام والبسالة في ساحات المعارك».

أما مقومات الروح المعنوية فيحددها الكاتب كالتالي:

أ ـ القيادة: الثقة المتبادلة بالقيادة وقدرتها على إدارة الحرب بصورة جيدة واستخدامها السليم للوسائل والامكانات المتيسرة.

ب ـ نوع الحكم. . . دكتاتوري ـ ديمقراطي. . . الخ.

جـ ـ القيم الاجتماعية السائدة.

د ـ الثقة المتبادلة بين الشعب والدولة.

هـ ـ وفرة الامكانات والوسائل والاسلحة التي يمكن وضعها في أيدي الرجال على

مختلف مسؤولياتهم.

و ـ التطور الحضاري للأمة وماضيها بما يحمل من انحطاط أو سمو حضاري.

ز ـ العقيدة التي تحملها الأمة ومدى أصالتها وعمق جذورها في عقلها وروحها.

ح ـ مستوى تدريب وتهيئة القوات المسلحة للأمة واستعدادها لخوض الحرب.

الباب الأول من الكتاب: «لمحة تاريخية» احتوى على خمسة فصول هي:

١ ـ الأساليب التي استخدمها معاوية لاخضاع قوى المعارضة.

٢ ـ الوضع الاجتماعي في العراق تحت ظل الحكم الأموي.

٣ ـ سقوط بغداد.

٤ ـ ثورة العشرين.

٥ ـ المشكلة الطائفية.

في هذا الباب يحاول الكاتب اظهار البعد التاريخي لموضوعة القمع الذي عاناه الشعب العراقي على مر تاريخه، وبشكل خاص ما عانته طائفة الشيعة. وهو يستند بذلك على فكرة مفادها: إن التاريخ هو سلسلة مترابطة ومتراكمة من الاحداث لا يمكن الفصل فيما بينها. وهو يرى بأن ما يعانيه شعبنا في ظل النظام الدكتاتوري الحالي من أساليب قمعية ما هو إلا امتداد لأساليب معروفة في الحكم، وان جاء ذلك بروح معاصرة.

وحول ذلك يقول: «تعتبر الفترة التي استولى فيها معاوية من أهم الفترات وأكثرها تأثيراً على مستقبل وحياة الأمة على امتداد تاريخها وحتى يومنا الحاضر، فالأساليب والممارسات التي استخدمها الحكام الظلمة من الذين جاؤا في غفلة من التاريخ إلى السلطة، ظلت في واقع أمرها هي نفس الأساليب التي استخدمها معاوية في إحكام سيطرته على الحكم والدولة، لقد ظل الحكام يستخدمون نفس الأساليب والأسس التي اعتمدها معاوية باذلال الأمة وتحطيم إرادتها وروحها المعنوية لفرض السيطرة على الحكم لغرض إشباع شهواتهم وتعطشهم للتسلط والتحكم...» ـ ص ٢١.

أما الأساليب التي استخدمها معاوية لترسيخ دعائم حكمه فهي:

١ ـ الارهاب والتجويع. ٢ ـ احياء النزعة القبلية واستغلالها. ٣ ـ التخدير باسم الدين وشل الروح الثورية.

وفي الحقيقة، فان النظام الفاشي العراقي قد استفاد من كل هذه الوسائل، وطورها، وأضفى عليها سماته الخاصة، وفي هذا المجال أتفق مع الاستاذ الزيدي فيما ذهب اليه، لاسيما وان غالبية العراقيين يؤكدون بأن مربي صدام ومعلمه، خاله خير الله طلفاح، قد علمه وأوصاه بضرورة استخدام نفس الأساليب التي استخدمها سلفه الحجاج لقمع العراقيين، وخاصة شيعة الكوفة والبصرة. وكتاب الزيدي يحوي تفاصيل تاريخية لمدى ما

عانـاه أبنـاء الشيعـة على يد الحجاج وصدام نفسه ـ باعتباره نموذجاً محسناً للحجاج ـ ويعترف بأن العراقيين لا ينفع معهم غير هذا الأسلوب.

وبالرغم من احترامي لدور الشيعة الثوري في تاريخ العراق القديم، والمعاصر، واتفاقي مع الكاتب حول مدى المعاناة التاريخية التيعانتهساهذه الطائفة، إلا أنني اختلف معـه في المبـالغة بهذا الدور، حيث يقول الاستاذ الزيدي: «إن دراسة تاريخ العراق، قديمه، وحديثه ترتبط بتاريخ الشيعة الذين كانوا وما زالوا يشكلون الجزء الأعظم من سكان العـراق المعـروف في التاريخ الاسلامي، والذي كان يشمل ولايتي الكوفة، والبصرة، متضمناً معظم أرض العراق السياسية حالياً...» ـ ص ١٥.

واذا اتفقنا مع الكاتب المحترم بأن التاريخ، في أحد وجوهه هو صراع الارادات للقـوى المتناقضة ـ وبغض النظر عن الدور السلبي أو الايجابي لهذه القوى ـ فان هذا التاريخ تكتبه وتصنعه هذه القوى مجتمعة، وليس أية قوة منفردة ومهما بلغ دورها وحجمها التأثيري.

في حديثه عن المشكلة الطائفية في العراق، وبخاصة التمييز الطائفي داخل القوات المسلحـة العراقية، يرى الكاتب بأن هذه المشكلة قد لعبت دوراً كبيراً في تردي الروح المعنوية للمقاتل العراقي، ويورد أمثلة ملموسة عديدة تؤكد رأيه هذا، فبينما يشكل الشيعة في الجيش ما لا يقل عن ٨٥٪ من مجموع الوحدات العاملة، نراهم لا يشكلون بأي حال من الأحوال نسبة تزيد على ٢٠٪ من مجموع ضباط الجيش. ويقول الكاتب بأن القيادات الرئيسية داخل القوات المسلحة ظلت دوماً بعيدة عن أيدي الضباط الشيعة في كل العهود، كرئاسة أركان الجيش وقيادات الفرق والألوية الرئيسية والمناصب الهامة في وزارة الدفاع، إلا نادراً. تُرى لماذا؟ إن أي مراقب موضوعي ومحايد لابد أن تستوقفه هذه الظاهرة، نقول ذلك بعيداً عن أية روح طائفية، بل ان الكاتب والعديد من الذين يؤيدونه ـ وأنا واحد منهم ـ يرون بأن التمييز الطائفي هو أحد أهم أسباب التخلف في واقع مجتمعنا العراقي، لكن ذلك لا يمنع من كشف الحقيقة الموضوعية كما هي، وليس كما نرغب نحن.

لماذا يُفضّل أبناء تكريت، والدور، والشرقاط، والرمادي، على غيرهم في القبول بالكلية العسكرية مثلاً؟ إليكم هذه الأرقام التي يوردها الكاتب حول هذا الموضوع: «إن نسبـة التلاميذ الشيعة الذين يقبلون في الكلية العسكرية لم تكن تزيد في أي وقت من الأوقات عن ٢٠٪ من مجموع التلاميذ الذين يقبلون في كل دورة من دوراتها. ولم تستثن هذه القاعدة إلا نادراً، فقد شهدت الفترة التي تلت سقوط العهد الملكي، ومجيء عبد الكريم قاسم تغييراً ملحوظاً في هذه المعادلة التي لم تدم إلا قليلاً، فما أن جاءت سلطة شباط ١٩٦٣ وما بعدها، حتى عادت الأمور إلى ما كانت عليه أو أسوأ منها، وفي مسح

أجري للدورتين ٤٤، و٤٥ من الكلية العسكرية في عهد الاخوين عارف: كانت الخارطة الاجتماعية للدورتين كما يلي: ٢٠٪ من التلاميذ الشيعة من مختلف المحافظات، ٤٥٪ من الموصل، ١٥٪ من الرمادي، ١٠٪ من محافظة بغداد من مناطق السُنة، ١٠٪ من أكراد ومسيحيين ويزيديين وتركمان، ولم يكن ذلك يتناسب مع حجم أبناء الطائفة الشيعية التي تشكل في مجموعها أكثر من ٦٠٪ من سكان العراق. وفي مسح للدورتين ٥٧، و٥٨ في حكم الحزب العفلقي كانت النسبة مقاربة إلى النسبة التي كان يتم القبول على ضوئها في عهد الاخوين عارف...» ـ ص ١٥٩.

ماذا يقول القارىء الكريم في ذلك؟ لنترك الحكم له، فالارقام هي التي تتحدث الآن، ولغتها أقوى من أي تعليق!!

أما الباب الثاني من الكتاب فيحتوي على الفصول التالية: المشكلة الطائفية في العراق، تأسيس الجيش العراقي، تأثير الجيش العراقي على المجتمع، المشكلة الكردية، الطائفية في القوات المسلحة، التيار القومي في القوات المسلحة، الحركة الاسلامية السنية في القوات المسلحة، التيار الكردي في القوات المسلحة، التيار الشيعي في القوات المسلحة.

في هذا الباب يعطي لنا الكاتب صورة مفصلة عن واقع الجيش العراقي والتيارات السياسية الفاعلة فيه، تاريخ نشأته، كيفية تشكله، مراحل تطوره، ثم تياراته: تاريخ نشأتها، فاعليتها، الاضطهاد الذي لقيته على يد السلطة الدكتاتورية وأجهزتها القمعية، ودورها النضالي داخل هذه المؤسسة.

إلا أن ما لفت انتباهي هنا هو عدم ذكر التيار الماركسي إسوة بالتيارات الأخرى، وخاصة دور الضباط الشيوعيين العراقيين داخل الجيش العراقي، حيث يشهد الجميع بعمق تأثيرهم وفاعليتهم في هذه المؤسسة وخصوصاً أثناء مقارعتهم للحكم الملكي البائد، ودورهم الوطني في تفجير ثورة ١٤ تموز الخالدة، ومنهم على سبيل المثال: جلال الاوقاتي، وصفي طاهر، المهداوي، والرفيق المرحوم غضبان السعد الذي غادرنا في المنفى مؤخراً وهو يحمل راية النضال الوطني، والشيوعي ضد حكام بغداد. ترى لماذا؟ سؤال متروك للاستاذ الزيدي.

وهناك نقطة خلافية لابد من ذكرها، وهي مبالغة الكاتب في الدور السلبي للجيش العراقي، حيث يقول مثلاً: «لأنه ـ أي الجيش العراقي ـ كان ولا يزال أداة طيعة خنوعة لا تستطيع ان تقف مع الشعب وقضاياه العادلة...» ـ ص ١٠٢.

لا ينبغي الاطلاق هنا، بل ينبغي الفرز الدقيق لمواقف هذا الجيش منذ تأسيسه، يكفي أن أذكّر الكاتب هنا بموقف الجيش العراقي في تفجير ثورة ١٤ تموز، وتلاحمه مع

أبناء الشعب العراقي وطلائعه واحزابه الثورية، وبوجه خاص دور الضابط الوطنيين الاحرار في ذلك، وفي مقدمتهم، القائد الوطني الباسل عبد الكريم قاسم، والذي أنصف دوره أيضاً الاستاذ الزبدي في العديد من مواضع الكتاب.

وأضيف أيضاً إلى ذلك، دور العديد من وحدات الجيش العراقي في دعم انتفاضة آذار الباسلة هذا العام ضد النظام الفاشي العراقي، أو ليس هذا دليلاً ملموساً آخر على حيوية هذا الجيش، وعمق الصراع الدائر فيه، وبالرغم من إمساك القادة الموالين للنظام بالمفاصل الرئيسية فيه؟

أما الباب الثالث فيحتوي على فصلين: ركائز النظام الحاكم في العراق، والقوات المسلحة تحت ظل النظام الحالي.

ويرى الكاتب بأن النظام العراقي قد بنى ركائزه عملاً بما جاء في التقرير الذي كتبه عام ١٩٥٣ جيمس ايخلبرغر خبير وزارة الخارجية الامريكية بالأنظمة العسكرية في الدول النامية، ويقول فيه: «أ ـ الأنظمة والقوانين، ب ـ قوى الأمن الداخلي، جـ ـ أجهزة المخابرات والمباحث ذات الكفاءة العالية، د ـ وسائل الدعاية، هـ ـ قوة عسكرية بكفاءة عالية أو الجيش».

يفضح الكاتب في هذا الباب دور هذه الأجهزة في قمع الشعب العراقي وقواه المناضلة، ويعرّي أساليبها الفاشية، ويتحدث عن زمرة البكر ـ صدام ودورها التاريخي في التعامل مع المخابرات البريطانية والامريكية.

الباب الرابع تحدث فيه الكاتب عن «الدكتاتورية»، واعتبر النظام الدكتاتوري في العراق من نمط الأنظمة الدكتاتورية في العالم الثالث، مع سمات خاصة تميزه عنها، بل تضيف إلى السجل الاجرامي لهذه الأنظمة.

ويعدد الأجهزة القمعية التي استند اليها صدام في قمعه للشعب العراقي، وهي: أ ـ رئاسة المخابرات، ب ـ مديرية الاستخبارات العسكرية، جـ ـ مديرية الأمن العامة، د ـ جهاز الأمن الخاص.

ثم يجري الكاتب مقارنة تاريخية بين هتلر وصدام، ويحدد السمات المشتركة بينهما.

وفي الختام، يؤكد على ان نضال قوى المعارضة ما زال مستمراً بالرغم من كل آلات القمع والدمار التي استخدمها، ويستخدمها النظام لقمعها، ويورد فقرات ضافية تكشف نضال هذه القوى، مستنداً بذلك على وثائق اجهزة الأمن والمخابرات التي تكشف عن مدى الهلع الذي أصاب هذه الأجهزة نتيجة لتنامي نضال حركة المعارضة الوطنية العراقية. ويأتي بأمثلة ملموسة على ذلك: دور الحزب الشيوعي العراقي، ودور الحركة الدينية بكافة

فصائلها، ودور قيادة قطر العراق لحزب البعث العربي الاشتراكي.

أما الباب الخامس فيتطرق إلى: «كيف تبنى الروح المعنوية تحت ظل النظام الحالي». ويعدد العوامل المؤثرة في بناء المعنويات وهي: القائد ـ التدريب ـ التسليح والتجهيز ـ العقيدة ـ الضبط ـ التوجيه السياسي ـ الايمان ـ الشؤون الادارية والاخلاء الطبي ـ العلاقات الانسانية ـ الحرب النفسية ـ الانتصارات.

في هذا الباب يفضح الكاتب أهم الاخطاء التي ارتكبها صدام حسين في الحرب العراقية ـ الايرانية، بوصفه القائد العام للقوات المسلحة العراقية، وقبل ذلك يدين الكاتب إشعال هذه الحرب، وأهدافها العدوانية على شعب جار لتخدم مصالح الغرب الاستعماري والقوى الرجعية في المنطقة، وأهم هذه الاخطاء:

أ ـ عدم تقدير قوة الخصم الحقيقية.

ب ـ عدم معرفة ذهنية القيادة الايرانية.

ج ـ الكذب.

د ـ التدخل الفظ في وضع الخطط وتنفيذها.

هـ ـ مقتل القائد العام.

و ـ الارهاب.

ز ـ شراء الذمم.

ما أشبه اليوم بالبارحة، فقد كرر صدام العديد من الأخطاء السابقة في حربه ضد الشعب الكويتي الشقيق، وأثبت بانه قائد ميداني فاشل، بالاضافة إلى اخطائه السياسية القاتلة، وذلك حينما دفعه جنون العظمة، وشهوة التسلط، إلى اجتياح الكويت، دونما حساب لنتائج هذا الفعل الاجرامي، ودونما تقدير لموازين القوى الظاهرة والمحتملة. وفي النتيجة كان الخاسر الأكبر شعبنا، وامتنا العربية، جراء تهور هذا الدكتاتور وطيشه، وغروره الأعمى.

ختاماً، ليس بوسعنا أن نغطي بعرضنا، وبعض ملاحظاتنا النقدية، كل ما جاء في هذا الكتاب القيم، فذلك لا يغني القاريء والمتابع الجادكثيراً، لهذا أقترح على قارئنا الكريم ضرورة الاطلاع عليه والاستزادة من معلوماته القيمة، لاسيما وان الكاتب كشف بوضوح عن معرفته الشمولية الجيدة، ليس في مجال إختصاصه وحسب ـ العلم العسكري ـ بل معرفته واطلاعه الواسع على علوم كثيرة: السياسة، والاجتماع، والتاريخ، وعلم النفس العسكري.

ولا يسعني إلا ان أقدم شكري للكاتب بشكل خاص على.نزاهته وأمانته أثناء تطرقه لدور احزاب المعارضة العراقية ونضالها ضد صدام وطغمته الدكتاتورية.



اضواء على مشروع البحر المتوسط ـ البحر الميت الاسرائيلي

د. حسن الجنابي

لقد أثير الكثير من الجدل والمخاوف ومنذ عدة عقود، حول المشروع الاسرائيلي الذي يهدف إلى ايصال مياه البحر المتوسط إلى البحر الميت. يعتبر هذا المشروع من المشاريع الضخمة جداً من حيث تقنيته وكلفته وتأثيراته الاقتصادية والبيئية والهدرولوجية والاجتما ـ سياسية. واذ نترك التعقيدات السياسية للمشروع للمختصين مكتفين ببعض الاشـارات التي نعتقـد انها واضحة فاننا سنحاول من خلال هذا المقال المختصر القاء الضـوء على الجـوانب التقنية أو الفنية للمشـروع وتأثيراته البيئية والاقتصادية المحتملة متوخين ايصال أكبر قدر ممكن من المعلومات إلى القراء الكرام مهما كانت اختصاصاتهم لتكـوين وجهـات نظرهم الخـاصـة ازاء المشـروع كجزء من مواقفهم العامة ازاء الحل المفترض لمشاكل المنطقة وخاصة قضية الصراع العربي الاسرائيلي وحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني خاصة وإن مسار القناة المقترحة يمر بالاراضي الفلسطينية.

مقدمة

ان فكرة نقل مياه البحر المتوسط إلى البحر الميت هي فكرة قديمة نظراً لانخفاض كمية المياه في الأخير، والفرق الكبير في مستوى المياه بين البحرين المذكورين وتعود هذه الفكرة في حقيقة الأمر إلى المهندس ماكس بوركات الذي اقترحها في القرن الماضي،

إلا انه نضجت خلال النصف الأول من القرن الحالي. ومن المعروف ان الدراسات حول الموضوع لم تتوقف بشكل كامل خلال العقود الماضية، وقد تناولت مختلف البدائل المقترحة والحلول الفنية للمشكلات وخاصة تحديد مسار القناة وسعتها (كمية المياه التي تستطيع ايصالها) ثم سعة الخزانات التي ستستوعب هذه المياه عند الطرف الآخر من القناة لكي تستعمل عند الحاجة في توليد الطاقة الكهربائية. يمكن اعتبار الدراسات المتعلقة بالجوانب المذكورة اعلاه شبه متكاملة حالياً وقد تم الاتفاق على مسار القناة وتم تحديد الخصائص الفنية لعناصر المشروع الأخرى وسنأتي إلى القاء الضوء على أهم تلك العناصر.

اهداف المشروع

١ - ان الهدف الأساسي من المشروع (من وجهة النظر الاسرائيلية) هو توفير الطاقة الهيدروكهربائية الضرورية للاقتصاد الاسرائيلي الذي يعاني نقصاً في مصادر الطاقة (داخلياً) بأمل ان يسد هذا المشروع جزءاً كبيراً من الاحتياجات الطاقوية لاسرائيل خاصة وان قضية الطاقة في اللعبة السياسية الشرق اوسطية تعتبر من اخطر العوامل التي تؤثر على مستقبل المنطقة والعالم (الحرب الخليجية الأخيرة أكبر شاهد على مدى خطورة مصادر الطاقة كعامل في تحديد السياسة الدولية). ومن الجدير بالذكر هنا بأن الحماس الاسرائيلي للمشروع يتصاعد ويهبط تبعاً لتصاعد أو هبوط اسعار البترول في السوق العالمية. فطالما كانت مصادر الطاقة الأخرى (البترول حالياً) رخيصة فان مشروع ايصال مياه البحر المتوسط إلى البحر الميت يمكن اعتباره إلى حد ما مشروعاً مؤجلاً.

٢ - الهدف الآخر هو اقامة مشاريع أخرى على ضوء المشروع الرئيسي. وهذه تشمل اقامة مراكز جديدة للطاقة، مشاريع تحلية المياه ومشاريع الزراعة البحرية، والمشاريع الصناعية والسياحية وغيرها. وتكون هذه المشاريع مترابطة مع اقامة أماكن جديدة للاستيطان من أجل إسكان المهاجرين اليهود (وهذا بنظرنا هو الهدف الأهم على ضوء التطورات في المنطقة وتزايد الهجرة اليهودية).

٣ - يهدف المشروع كذلك إلى رفع مستوى مياه البحر الميت التي انخفضت انخفاضاً شديداً خلال العقود الأخيرة حيث تقدر قيمة الانخفاض هذا بأكثر من ٨ امتار خلال الثلاثين سنة الأخيرة فقط. ويعود ذلك إلى ارتفاع مستويات التبخر فيه أولاً، انخفاض ملحوظ في تدفق مياه نهر الاردن الذي سببه استعمال تلك المياه لاغراض الري والاغراض الصناعية الأخرى ثانياً

بعض المواصفات التقنية للمشروع

ان الفكرة الأساسية في المشروع هي الاستفادة من الاختلاف في منسوب المياه بين البحر المتوسط والبحر الميت والذي يقدر بحوالي ٤٠٠ متر وما يشكله ذلك من ضغط أو طاقة كامنة تعمل في حالة تدفق المياه على تدوير التوربينات الخاصة بتوليد الطاقة الكهربائية.

يمكن ايجاز أهم عناصر المشروع بما يلي:

١ ـ حفر القناة لايصال مياه البحر المتوسط إلى البحر الميت.

٢ ـ اقامة التسهيلات الخاصة بضخ مياه البحر المتوسط إلى تلك القناة.

٣ ـ اقامة مستودعات أو خزانات للمياه المنقولة في نهاية القناة قرب البحر الميت لكي يجري اطلاقها في أوقات الحاجة.

٤ ـ اقامة مولدات الطاقة الهيدرو ـ كهربائية عند البحر الميت.

سيكون الطول الكلي للقناة حوالي ١١٣ كم وسيتكون (حوالي ثلثي طولها) من نفق تجري المياه به خلال انابيب تصل أعماقها إلى حوالي ٥٠٠ متر في بعض الأماكن، أما الجزء المتبقي فهو عبارة عن قناة مفتوحة سيكون جريان المياه في القناة تحت تأثير الجاذبية الارضية (gravitationl) بعد ان تضخ اليها من البحر المتوسط إلى ارتفاع حوالي ١٠٠ متر. أما المستودعات المائية فهي لتجميع المياه في الأوقات التي يكون فيها الطلب على الطاقة أقل ما يمكن ثم اطلاقها في أوقات الطلب المتزايد على الطاقة لتدوير التوربينات المولّدة لها. يؤمل ان تكون الطاقة المنتجة بحدود ١٥٪ إلى ٢٠٪ من الاحتياجات الطاقوية لاسرائيل. أما تدفق المياه خلال القناة فسيجري على مرحلتين، الأولى تشمل العشرين سنة الأولى حيث يكون التدفق بمعدل ١,٦ مليار متر مكعب في السنة مما يؤدي إلى رفع مستوى مياه البحر الميت تدريجياً حتى يصل مرحلة التوازن (بعد عشرين سنة) ثم المرحلة الثانية التي يكون فيها تدفق المياه بمعدل ١,١ مليار متر مكعب في السنة وهو ما يعادل كمية المياه الكلية المتبخرة من سطح البحر الميت خلال السنة.

التأثيرات البيئية للمشروع

ان هناك الكثير من التأثيرات التي سيخلقها هذا المشروع نذكر فيما يلي أهمها:

١ ـ تسرب المياه المالحة.

من الجدير بالذكر ان المنطقة تخلو تقريباً من مياه سطحية عذبة بالكميات الكافية

مما جعل المياه الأرضية المصدر الرئيسي سواء للاغراض المدنية أو الصناعية أو لاغراض الزراعة والري. لذلك فان تسرب مياه البحر من القناة إلى طبقات الأرض الحاملة للمياه العذبة يعني كارثة حقيقية ليس فقط على صعيد البيئة التي ستتقحل (تصبح قاحلة وعقيمة) بل تهدد حياة السكان وظروف معيشتهم بصورة جدية، كما ان تقدير الضرر في هذه الحالة يعتبر من أعقد المشكلات ويتطلب سنوات من الدراسة والبحث خاصة اذا كانت الطبقة الأرضية تحمل مياه بكميات كبيرة أو ان حركة المياه بطيئة. ومما تجب اليه الاشارة هو ان مسار القناة قد اختير ليكون بعيداً عن الاماكن ذات الكثافة السكانية عدا المناطق القريبة من البحر المتوسط في قطاع غزة وقرب منطقة بير السبع في صحراء النقب، وهذه المناطق تتميز بوجود طبقات صخرية غير نفاذة لكن من يستطيع ان يجزم بعدم حدوث احتكاك هيدرولوجي مع طبقات الأرض الحاملة للمياه العذبة؟ [1]

٢ ـ خلط مياه البحر المتوسط والبحر الميت.

ان مياه البحر الميت من أكثر مياه العالم ملوحة (ثمانية مرات بقدر ملوحة مياه البحر المتوسط)، ومن الخصائص التي تتميز بها هي انها تتألف من طبقتين متميزتين، طبقة عليا خفيفة تكونها المياه المتدفقة من نهر الاردن، والأخرى طبقة تحتية كثيفة، نسبة الملوحة فيها عالية جداً، وهي عموماً ذات خصائص ثابتة وينعدم فيها التغير العمودي في الكثافة. والمشكلة هي كيف ستؤثر مياه البحر المتوسط على البحر الميت!. ان من الظواهر المعروفة هي ان خلط مياه البحرين يؤدي إلى ترسب الجبس الابيض نتيجة الفرق في التركيب الايوني بين نوعيتي المياه. وهذه الظاهرة تسمى (whitening) وقد حدثت سابقاً بنسب قليلة لكنها ستزداد حتماً بعد انجاز المشروع.

٣ ـ لا يمكن التنبؤ بصورة دقيقة بالتأثيرات الذي سيحدثه نقل كميات كبيرة من مياه البحر المتوسط على الموجات البحرية على طول الساحل المصري والفلسطيني والانعكاسات السلبية لمثل هذا الاضطراب على عملية صيد الاسماك.

٤ ـ من التأثيرات المباشرة لعملية اعادة مياه البحر الميت إلى مستواها السابق هو القضاء على الهياكل الاقتصادية التي اقيمت خلال العقود الأخيرة وخاصة في الاردن مثل الصناعات الكمياوية (صناعة البوتاس بشكل خاص) والطرق وخطوط الطاقة وغيرها.

خلاصة واستنتاجات

من الجدير بالذكر ان الفوائد الاقتصادية للمشروع محسوبة اسرائيلياً فقط، أما ما

سيخلقه المشروع في خال تنفيذه على سكان الأراضي المحتلة أو الاردن فنعتقد انه يتراجع لدى الاسرائيليين إلى مرتبة دنيا ان لم يكن معدوماً. ومما يجدر ذكره هنا هو ان الاسرائيليين يبدون أكثر جدية خلال الفترة الأخيرة في تناول المشروع. وقد طرحت دعوات أهمها على لسان وزير العلوم الاسرائيلي في نهاية العام الماضي لاعادة احياء المشروع الذي كان مجمداً رغم كلفته المالية. ويمكن هنا اجمال الاسباب التي أدت إلى تأخير المشروع لحد الآن بما يلي:

١ ـ انخفاض اسعار البترول وبالتالي توفر مصادر الطاقة بكلفة أقل.

٢ ـ كلفة المشروع العالية جداً.

٣ ـ رفض الاردن للمشروع ومعارضة السكان الفلسطينيين.

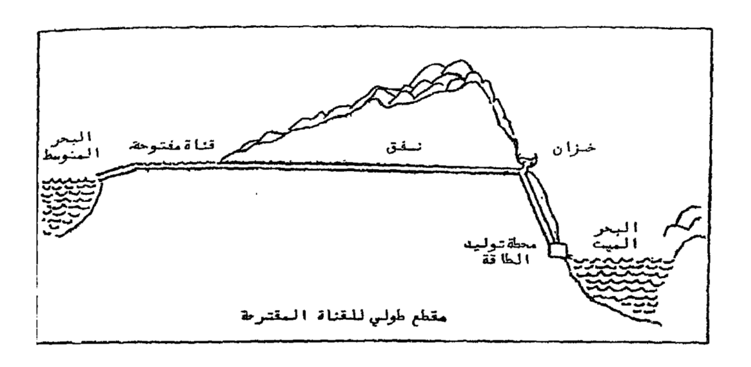
٤ ـ مرور خط القناة المقترح في قطاع غزة وما يعنيه ذلك من تعقيدات آنية ومستقبلية.

٥ ـ معارضة داخل اسرائيل للمشروع من منطلقات مختلفة.

٦ ـ تواجد بعض النشاط البركاني في الطبقات الأرضية القريبة من أماكن اقامة محطات توليد الطاقة الهيدرو ـ كهربائية المقترحة.

هناك بالتأكيد جملة من الشكوك والتساؤلات أهمها هو إلى متى يمكن للاسرائيليين ان يأخذوا بنظر الاعتبار كل تلك العوامل أو أهمها على الأقل؟ وما الذي يحصل اذا ارتفعت اسعار البترول ارتفاعاً كبيراً ولمدة طويلة؟ شخصياً لا أشك بأن المشروع قابل للتطبيق من الناحية التقنية ولكنني أشك قطعاً بالنوايا الاسرائيلية التي تهدف إلى توفير مساحات استيطان جديدة وأماكن عمل للمهاجرين اليهود الذين يتدفقون على اسرائيل وأرجح ان يكون هذا العامل من العوامل المهمة جداً في توجيهات السياسة الاسرائيلية فيما يتعلق بانجاز المشروع. أما فيما يتعلق بالمناطق العربية فان المشكلات ستكون كبيرة بل وخطيرة خاصة من الناحية الديموغرافية والتوازن السكاني، واذا كان الحديث يجري حول آفاق حل القضية الفلسطينية فلا نعتقد ان المشروع سيساهم في تسهيل حل تلك المشكلة بل ربما يزيدها تعقيداً اذ هل من المعقول ان يقوم الاسرائيليون بصرف مليارات الدولارات على مشروع يقع رأسه ضمن قطاع غزة لكي يتخلوا عنه بسهولة؟

ان اقامة مثل هذا المشروع لا يمكن ان تكون في ظل وضع متفجر أو قابل للانفجار لأنه يضيف عامل تفجر آخر. والأفق الوحيد لتنفيذه هو اقامة سلم عادل ودائم في المنطقة تكون فيه ارادة الشعب الفلسطيني حرة لكي يقول رأيه بالمشروع.



مقطع طولي للقناة المقترحة

مسار القناة الذي تم اختياره

البحر المتوسط

البحر الميت

تحولات الحركة الاسلامية

فايز سارة

يتفق الكثيرون على ان الصورة التي يحتفظ بها قطاع واسع من الناس لتنظيمات الحركة الاسلامية ولاسيما صورة الاخوان المسلمين هي صورة مشوشة، ولا ترضي كثيراً من العاملين في حقل السياسة العربية، وكذلك الذين عاشوا على ضفافها واهتموا بالشأن العام في السنوات الممتدة ما بين بداية الخمسينات ومطلع الثمانينات وبعد ذلك بقليل.

ومصدر التشويش وعدم الرضا - كلاهما - عن الحركة الاسلامية وتنظيماتها مرده ثلاثة عوامل أساسية. العامل الاول يتعلق بطبيعة ونشأة تنظيمات الحركة الاسلامية وعلاقاتها الداخلية والخارجية، والثاني يكمن في طبيعة المفاهيم والاطروحات التي طرحتها ورفعتها هذه التنظيمات، والعامل الثالث والأهم هو ممارسة بعض تنظيمات الحركة الاسلامية في الحياة السياسية العربية، وخاصة اللجوء إلى العنف والارهاب المسلح، ومحاولات الدخول على خط الصراعات الدينية - الطائفية في العديد من الاقطار العربية، وذلك في إطار مساعي هذا البعض للوصول إلى السلطة في تلك البلدان.

واختصاراً في شرح العامل الأول، نشير إلى ان ولادة تنظيمات الحركة الاسلامية في منطقة تدين الغالبية العظمى من سكانها بالاسلام، يتضمن اتهاماً مبطناً لـ «اسلامية» الأكثرية وتشكيكاً بمواقفهم العقيدية والسياسية على السواء، الأمر الذي يستوجب من فئات معينة اللجوء إلى اقامة تنظيمات اسلامية وفقاً للنموذج المعروف، مما يستوجب الحذر بشكل سلفي ازاء تنظيمات الحركة الاسلامية.

وبغض النظر عن النقطة اعلاه، فان ولادة تنظيمات الحركة الاسلامية بأصلها المعروف - الاخوان المسلمون ثم حزب التحرير الاسلامي - ترافقت مع اتهامات لهذه التنظيمات وقياداتها بالتورط في علاقات مع الدول الغربية واجهزتها الأمنية، بل ان اتهامات أبعد من ذلك ظهرت، اذ اعتبر الاخوان المسلمون في مصر الملكية «مجرد صنائع للقصر والانكليز» كان هدفهم اجهاض الحركة الشعبية المعادية للفساد والاحتلال البريطاني وسياساته، ويقدم أصحاب هذه الاتهامات عديداً من الاحداث والوقائع التاريخية للدلالة على حقيقة ما يذهبون اليه.

والعامل الثاني يكمن أساسه في جملة المفاهيم والاطروحات التي يصنعون صورة السلطة والدولة التي ينشدون على أساسها، وطبيعة الحكم، ثم آليات الوصول إلى

السلطة، وطريقة الاحتفاظ بها، وجميعها قضايا هامة، ينبغي التوقف عندها ومناقشتها بصورة دقيقة وتفصيلية حتى من وجهة نظر «اسلامية» خلافاً لنحو ما تم - ويتم - التعامل معها من جانب التنظيمات الاسلامية الأصل، التي رفعت على سبيل المثال شعار «اقامة دولة اسلامية»، وهو شعار عام وفضفاض، لا تدخل فيه تحديدات تتطلبها طبيعة الحياة. واضافت التنظيمات الاسلامية إلى ذلك، بأن الطريق إلى «الدولة الاسلامية» المنشودة هو طريق القوة، خلافاً للنزعة الانسانية العامة والرائجة في أوساط العرب والمسلمين الذين شبعوا استخداماً للقوة تمارس عليهم، وهم لا يتمتعون بأية قوة بأيديهم في الوقت عينه.

العامل الثالث والأهم في تشويش صورة تنظيمات الحركة الاسلامية وعدم الرضا عنها في اوساط وقطاعات عربية، هو جملة الممارسات العنيفة التي وصلت حد ممارسة الارهاب المسلح والدموي، قامت بها بعض تنظيمات الحركة الاسلامية سواء على مستوى دولة ومجتمع، أو ضد أفراد ومؤسسات. وهناك كثير من هذه الممارسات الممتدة ما بين عمليات الاغتيال السياسي إلى عمليات الارهاب الدموي الواسع النطاق، وهي ممارسات تكررت وتوالت منذ ظهور التنظيمات وحتى النصف الاول من الثمانينات،

تنظيمات الحركتين القومية والديمقراطية العلمانية قابلهُ نمو وتوسع في نفوذ تنظيمات الحركة الاسلامية، وهو أمر تم بصورة أو بأخرى برعاية من شخصيات واجهزة بل من دول معينة، وجاء انتصار الثورة الايرانية أواخر السبعينات، ليدفع تنظيمات الحركة الاسلامية بقوة نحو السلطة، بما مثله المتغير الايراني من حافز ملموس. وكان طبيعياً ان يصاحب تعمق حلم الاسلاميين بالسلطة القريبة، ازدياد مخاوف الحكومات واجهزتها في آن معاً، وكانت النتائج المباشرة لذلك اشتداد الصراع، واتخاذه طابعاً عنيفاً له ابعاد محلية واقليمية، يمكن رؤية تجسيدات واقعية لهـا في بعض فصـول الحرب اللبنانية للبعد المحلي. والحرب العراقية ـ الايرانية بالنسبة للبعد الاقليمي. غير ان كلاهما، لم يؤد إلى احداث تبدلات جذرية لصالح تنظيمات الحركة الاسلامية ومواقعها السياسية في بلدانها ومجتمعاتها.

ويبدو ان النتائج الاولى لصراع التنظيمات مع سلطاتها من جهة، ونتائج الحروب المحلية والاقليمية، التي كانت تنظيمات الحركة الاسلامية في أتونها، أو على هوامشها، هذه النتائج كانت من بين عوامل أدت إلى حدوث تغيرات وتبدلات هامة في طبيعة وسلوك ودعاية بعض تنظيمات الحركة الاسلامية. ثم جاءت متغيرات محلية واقليمية ودولية لتكون عوامـل تجـذير لتحولات في الحركة الاسلامية، ولعل الأبرز على الصعيد المحلي هو نهـوض الحـركة الجماهيرية في أقطار عربية عدة، كما في نموذجي الجزائر وتونس في المغرب العربي، ونموذجي الاردن وفلسطين المحتلة في المشرق العربي.

أمـا أبـرز العوامـل الاقليمية، فيمكن رؤيتها في اشتـداد التـطرف والتعصب الاسرائيليين، واتساع نزعة السيطرة والهيمنة الاميركية في وقت تتزايد فيه مظاهر الضعف والتمـزق العـربي. وقد جاءت تحولات اوربا الشرقية والاتحاد السوفييتي وما أعقبها من تطورات عالمية لتكون من بين أهم المؤثرات الدولية في تحولت الحركة الاسلامية في المنطقة.

ان التعبيرات البـارزة في تحـولات الحـركـة الاسـلامية كثيرة للغـاية، وتمتد في المستويات الايديولوجية والسياسية والتنظيمية. وطبيعي ان ينعكس ذلك على مواقف وآراء التنظيمات وقياداتها بصدد القضايا السياسية والاقتصادية ـ الاجتماعية، وهي ما تغافلت تنظيمات الحركة الاسلامية عن معالجتها أو ابداء أي رأي واتخاذ مواقف بصددها، ومن بين هذه القضايا المسائل الاقتصادية ـ الاجتماعية، وقضايا الصراع العربي ـ الصهيوني، وفلسطين، والوحدة العربية.

وانتقـالاً نحـو أمور أكثر تحديداً في التحولات، يمكن القول ان بعض تنظيمات الحـركـة الاسـلامية، تجـاوزت المنـاداة بشعـار «الدولة الاسلامية» ووضعته في جملة احتمالات مستقبلية، بمعنى انه متروك للمستقبل والتطورات اللاحقة. وقبلت تنظيمات

اسلامية العمل في إطار البنيان السياسي للنظام القائم، وبعضها أعلن استعداده للانخراط في إطار تعددي تقيمه قوى المعارضة بالاتفاق فيما بينها على نقاط محددة أو برامج عمل، الأمر الذي يعني استعداد قيادات وتنظيمات في الحركة الاسلامية للتفاهم - وربما التحالف - مع تنظيمات وقوى اعتادت، ان تكون معها في حرب ضروس ودائمة، كما حال الحركة الاسلامية مع تنظيمات الحركتين القومية والشيوعية.

وثمة جانب آخر في التحولات السياسية لقيادات وتنظيمات الحركة الاسلامية، يتبدى في القبول بدخول اللعبة الديمقراطية للانظمة العربية القائمة، بما في ذلك من تعامل وتفاعل مع بنى سياسية ومؤسساتية تنضوي في إطار يضم السلطة وأطراف المعارضة والحركة الجماهيرية، ولكل منها شروطه واشتراطاته على تنظيمات الحركة الاسلامية في أفكارها وخططها وفي ممارساتها.

وهناك جوانب أخرى في التحولات السياسية، الأكثر أهمية واثارة فيها هو موقف التنظيمات من المسألة القومية العربية، ومن الصراع العربي - الصهيوني والقضية الفلسطينية، وكلاهما كان من بين النقاط الأقل حظاً واهتماماً لدى قيادات وتنظيمات الحركة الاسلامية منذ اواسط الخمسينات.

لقد تجسد التبدل في موقف تنظيمات الحركة الاسلامية من الصراع العربي - الصهيوني أولاً في لبنان، حيث بادرت تنظيمات اسلامية إلى خوض الصراع المسلح ضد الاحتلال الاسرائيلي وضد الميليشيات العميلة للعدو في جنوب لبنان، وترافق ذلك مع قيام هذه التنظيمات بحملات دعاوية - سياسية واسعة للتعبئة الشعبية المعادية للصهيونية واسرائيل، وأعقب ذلك حصول تبدل مماثل في فلسطين المحتلة بشقيها (مناطق ١٩٤٨ و١٩٦٧)، اذ انخرطت جماعات اسلامية في النهج المعادي للاحتلال منهية بذلك هدنة غير معلنة مع الاسرائيليين، الذين كانوا يدعمون بصور شتى صراع الجماعات الاسلامية مع الجماعات العلمانية الفلسطينية، ثم اتسع تالياً نشاط تنظيمات الحركة الاسلامية الفلسطينية ضد الاحتلال ليأخذ شكل العمل المسلح. ومن المعروف ان عمليات الجهاد الاسلامي في قطاع غزة، كانت من المقدمات المباشرة لانتفاضة كانون الاول/ ديسمبر ١٩٨٧، ومع استمرار الاخيرة وصمودها دخلت الحركة «حماس» التابعة للاخوان المسلمين في فلسطين في إطار حركة المقاومة الشاملة، وهو أمر لم تكن تنظيمات الحركة الاسلامية تقره، أو تقبل به فيما سبق.

لقد انتقلت بسرعة كبيرة تأثيرات هذا التغير في مواقف تنظيمات الحركة الاسلامية في لبنان وفلسطين تجاه الصراع العربي - الصهيوني وقضية فلسطين إلى تنظيمات اسلامية خارج هذين البلدين، وترافق ذلك مع صعود العداء للقوى الغربية ولاسيما الولايات

المتحدة الاميركية. وفي الحالتين كان ذلك يؤدي إلى حدوث تقارب من طبيعة «قومية»، وهو أمر كان مرفوضاً فيما سبق على اعتبار ان الرابطة الاساسية بين المسلمين هي الرابطة الدينية الاسلامية، وهي رابطة عالمية، وليست رابطة قومية.

وانتقالاً إلى جانب آخر في موضوع تحولات الحركة الاسلامية، نشير إلى تحول خطير وهام في آن معاً، ويظهر للمرة الأولى عند تنظيمات الحركة الاسلامية، وهو أشد وضوحاً في أقطار المغرب العربي عنه في المشرق، ويتجسد هذا التحول في اتجاه التنظيمات لمعالجة الاوضاع الاقتصادية ـ الاجتماعية لبلدانها، وفي هذا الجانب تبرز اطروحات كثيرة فيها محاسبة المسؤولين عن الخراب والفساد الاقتصاديين والاجتماعيين، ومعالجة موضوعات الديون الخارجية، واستنهاض الاقتصاد الوطني بقطاعاته، وبايجاد فرص عمل للعاطلين، مما أعطى تنظيمات الحركة الاسلامية ابعاداً اجتماعية كانت تفتقدها ووسع من دائرة وجودها ونفوذها في الأوساط الشعبية.

وفي الخلاصة فان هذه التحولات في جوانبها السياسية والاقتصادية ـ الاجتماعية، أعطت تنظيمات الحركة الاسلامية في مستوياتها المحلية ـ الوطنية والقومية ابعاداً جديدة، وهوامش أوسع للنشاط، ليس فقط للخروج من تاريخها وصورتها، بل للدخول حيز المنافسة الجديدة والحقيقية لتنظيمات اغلقت فيما مضى أبواب ميدان العمل السياسي واحتكرته على نحو ما فعلت تنظيمات الحركة القومية مثلاً بقضية الوحدة العربية، وكذلك على نحو ما فعلت تنظيمات اشتراكية وشيوعية في موضوع تبني شعارات التغيير الاقتصادي ـ الاجتماعي لصالح الفئات الدنيا وما فعلته تنظيمات وطنية فلسطينية وعربية في موضوع الموقف من الصراع العربي ـ الصهيوني، ودخولها في مواجهات مسلحة ضد الاحتلال الصهيوني.

ان هذه التحولات بما تعنيه من النقاط والقضايا الجوهرية في الحياة العربية، تعني ان الحركة الاسلامية بتنظيماتها التي أقرت هذه الاتجاهات، دخلت بالفعل الميدان الأرحب والأكثر اتساعاً وأهمية في الحياة السياسية العربية، خاصة اذا كانت هذه التحولات تعكس فهماً حقيقياً لا زائفاً، وانها غدت بالفعل تعبر عن مواقف ووجهات نظر تتعدى المسائل التكتيكية، وهو أمر جديد على ضوء الخبرات المتراكمة عن تنظيمات الحركة الاسلامية ولكنه ليس مستبعداً أو مستهجناً اذا نظرنا بعمق وجدية إلى المضامين العامة للحياة الاسلامية، وفيها ضرورة الانتباه إلى قضايا المجتمع الملحة ومعالجتها، والتفاعل مع أصحابها.

عن (السفير) ٧/٢٩



السريان واشكالية التسمية

أ ـ أكاد

من المعلوم أن السريان الحاليين هم استمرار حي متواصل لشعب وحضارة ما بين النهرين. وهم حالياً ينضوون تحت تسميات طائفية وجدت لها تبريراً عبر مراحل تاريخية مختلفة. ويكاد المرء عندما يسمع بهذه التسميات يحار ويدهش أن كانت تخص شعباً وحضارة واحدة. ويحار أيضاً عندما يسأل أشخاصاً من هذه الطوائف عن انتمائهم التاريخي فيجد اجوبة مختلفة ومتباينة. ويعود سبب ذلك لحالة الجهل بحقائق التاريخ ولتأثير الحساسيات المذهبية التي فعلت فعلها في مراحل الانحطاط الثقافي والسياسي للسريان. وكذلك عوامل خارجية وخصوصاً دور الدول الاوربية ابتداءً من الاحتلال البيزنطي، وبعده الصليبي وآخره تدخل هذه الدول في شؤون الدولة العثمانية ابتداءً من القرن الخامس عشر الميلادي، سيما بعد حصولها على امتياز بتشكيل مراكز تبشيرية لمذاهبها الدينية ليكون لها في المستقبل موطىء قدم كحجة للتدخل لحماية اتباعها من المسيحيين. فبدلاً من قيام تلك البعثات التبشيرية بمهمة التبشير بين غير المسيحيين راحت تبشر المسيحيين السريان ممن كانوا شهداء المسيحية الأوائل وناشري لوائها في اقاصي الأرض ولذا كانت البشارة الجديدة تقسم السريان إلى طوائف جديدة. فبدلاً من كون المسيحية عامل وحدة أصبحت عامل تفرقة وانقسام بين الشعب الواحد. ونجد الآن السريان تحت التسميات الطائفية التالية:

أ ـ ١ ـ السريان الشرقيون النساطرة: ويسمون حالياً بالآشوريين وكنيستهم «كنيسة الشرق القديمة» وبدّل اسمها حالياً إلى «الكنيسة الشرقية الآشورية».

٢ ـ السريان الشرقيون الكاثوليك: ويسمون حالياً بالكلدان وكنيستهم «كنيسة بابل للكلدان». والسريان الشرقيون يتكلمون اللغة السريانية بلهجتها الشرقية.

ب ـ ١ ـ السريان الغربيون الارثوذكس: ويطلق عليهم أحياناً السريان اليعاقبة.

٢ ـ السريان الغربيون الكاثوليك.

٣ ـ السريان الغربيون الملكيون: ويعرفون حالياً بالروم الارثوذكس والروم الكاثوليك. وقسم آخر منهم يعرف حالياً بالسريان الموارنة.

جـ ـ السريان البروتستانت: وهم قلة ويعرفون بتسميات كنسية مختلفة.

د ـ السريان الصابئة: وهم سريان شرقيون يدينون بديانة وثنية قديمة ويتواجدون فقط في العراق.

وقبل البحث في كيفية تكون التشكيلات التنظيمية الكنسية للسريان لابد من البحث في معنى الكلمة «السريان» ومن أين جاءت ومتى اطلقت على شعب وحضارة ما بين النهرين.

لقد تكوّن فيما بين النهرين تشكيل حضاري واحد ابتداءً من الألف الرابعة قبل الميلاد وحتى القرن السادس قبل الميلاد. واتسمت المراحل التاريخية بتسميات متنوعة عرفت كل مرحلة منها باسم مختلف تبعاً لاسم الشعب واسم عاصمة تلك المرحلة علماً أن تسمية الشعب نفسه جاءت من اسم مدينته أو عاصمته أو منطقته فسُمي السومريون نسبة لمدينة «سومر» والأكديون نسبة إلى «أكد» والبابليون نسبة لمدينة «بابل» والآشوريون نسبة لمدينة «آشور» والإله آشور. والاراميون نسبة لمواقعهم الجغرافية المرتفعة في شمال ما بين النهرين (ما بين النهرين العليا) والأرض المرتفعة بالآرامية تعني «ارعارمثا» فسُميوا بالآراميين، أي سكان الأراضي المرتفعة. والكلدانيون نسبة لمنطقة كلدا في جنوب ما بين النهرين. وأيضاً لمعنى فلكي أو منجم بالآرامية بحيث شكل الكهنة والفلكيون طبقة في بابل تسلمت دفة الحكم وسميت المرحلة باسمهم «المرحلة الكلدانية» ونجد بذلك أن كافة التسميات التي ترد في تاريخ ما بين النهرين من سومرية وأكدية وبابلية وآشورية وآرمية وكلدانية هي تسميات وطنية جزئية ضمن إطار وطني عام هو بيث نهرين «ܒܝܬ ܢܗܪܝܢ».

وفي محاولة مختصرة للتعريف بالمراحل التاريخية:

نجد المرحلة السومرية وتبدأ منذ الألف الرابعة قبل الميلاد في جنوب ما بين النهرين في مدن «سومر» العاصمة وسيبار ولارسا وايبسن واوروك ولغش ونيفور. ومن اعلام المرحلة جوديا ملك لغش وانمر كار ملك اوروك واوركا جينا انزي لغش وجلجامش ملك اوروك. ومن انجازات المرحلة اختراع الكتابة المقطعية بالخط المسماري وتشريع اورنامو الشهير

وابتكار التقويم الزمني وتنظيم الاساطير الدينية الشهيرة «كملحمة جلجامش».

وتأتي المرحلة الاكدية بانتقال السلطة إلى مدينة أكد (٢٣٥٠ ـ ٢٢٣٠) ق. م.

ومن أهم رموزها سرجون الأول الذي وحّد أرض ما بين النهرين في وحدة سياسية قوية متماسكة وأسس أول امبراطورية. واستمر ابنه نارامسين على خط أبيه وكانت مدينة «تل براك» إحدى حواضره. ويذكر له تدمير ايبلا وحرقها حيث بفضل ذلك الحريق بقيت ألواحها الطينية محفوظة لحد الآن. وعلى أعقاب أكد تأتي المرحلة البابلية وأهم رموزها حمورابي (٢١٢٣ ـ ٢٠٨١) ق. م وأهم إنجازاتها شريعة حمورابي الشهيرة. ثم ينتقل ميزان القوى بعد بابل إلى آشور لتبسط نفوذها على مجمل ما بين النهرين ابتداءً من القرن الخامس عشر قبل الميلاد والتي استمرت لغاية القرن السادس قبل الميلاد ومن أشهر رموزها تغلات فلاصر وشلمنصر وسنحريب واسرحدون وآشور بانيبال. وقد بلغت الحضارة والقوة والتماسك في ما بين النهرين أوجها في المرحلة الآشورية، وبسط الاسم الآشوري وجوده على مجمل أرض وشعب ما بين النهرين، نظراً للقوة والازدهار والزمن الطويل للمرحلة الآشورية. وبذلك عرفت الشعوب المجاورة لهذه الأرض وشعبها بأرض آشور وشعب آشور من خلال تسمية الجزء على الكل، بالرغم من بقاء الاسماء الجزئية الأخرى من آرامية وبابلية وكلدانية متداولة داخلياً. وبعد المرحلة الآشورية تأتي المرحلة البابلية الحديثة «الكلدانية» بين عامي (٦٠٨ ـ ٥٣٩) ق.م ومن أهم رموزها نبوخذ نصر حيث بلغت الدولة الكلدانية أوجها في الانتشار والقوة. وآخر الملوك نبونيد الذي كان آخر ملوك بابل حيث سقطت على يد كورش الفارسي عام ٥٣٩ ق.م.

ورغم كون المرحلة الكلدانية هي آخر المراحل إلا أنها نظراً لقصر مدتها لم تفرض اسمها على شعب وحضارة ما بين النهرين. ويبقى الاسم الآشوري هو المسيطر وهو المعروف لدى الدول والشعوب المجاورة حتى مجيء اليونان وبعدهم الرومان، فمع الغزو الروماني عام ٣٣١ ق. م. بقيادة الاسكندر الكبير. فقد عرف اليونان هذه الأرض وشعبها باسم واحد هو الاسم الآشوري ولم يميزوا ويدققوا التسميات الجزئية الداخلية الأخرى.

فاطلقوا على كامل المنطقة لفظ «اسوريا» اشتقاقاً من ܐܫܘܪ «آشور» وذلك لغياب حرف الشين في اللغة اليونانية وتحولت التسمية فيما بعد إلى «أسيريا» ومع هذا اللفظ أخذ شعب ما بين النهرين اسمه الجديد بعد حذف الألف من أول الكلمة فقال بلغته الآرامية ܣܘܪܝܝܐ «سوريايا» كصفة جديدة عن الوطن والشعب واللغة: ܐܬܪܐ ܣܘܪܝܝܐ «اضرا سوريايا» أي «الوطن السرياني» وܥܡܐ ܣܘܪܝܝܐ «عما «سوريايا» أي الشعب السرياني وܠܫܢܐ ܣܘܪܝܝܐ «الشانا سوريايا» أي اللسان السرياني. وعرفت هذه التسمية بالعربية، بعد إضافة الـ التعريف في بداية الكلمة وإضافة النون في نهاية الكلمة لحالة الصفة فقيل

السرياني بدلاً من ܣܘܪܝܝܐ «سورييايا» كما يقال أيضاً بالعربية العبراني بدلاً من «عبرايا» واليوناني.بدلاً عن ܝܘܢܝܐ «يونايا». وعرفت المنطقة أيضاً من خلال الاسم الجديد بـ «سوريا» المشتق من «اسوريا» وهي اللفظ اليوناني لـ «آشور».

إن الأسم السرياني الجديد فرض نفسه على شعب وحضارة ما بين النهرين بقبول ورضى وأصبح مخرجاً نظرياً ملائماً بدلاً من التسميات الجزئية فاضحى الآرامي والكلداني والسومري والبابلي والآشوري يعرف نفسه «سريانياً» بالعربية وسورييايا ـ بالسريانية.

أما اللغة أيضاً فسميت تبعاً للتسمية الجديدة باللغة السريانية وكانت تسمى قبل القرن الرابع ق. م باللغة الآرامية، وهي اللهجة الآرامية الرهاوية التي سادت ثقافياً على بقية اللهجات الآرامية الأخرى. وبالرغم من وجود تسميات جزئية للغة شعب ما بين النهرين تبعاً للمراحل التاريخية (فسميت بالأكدية والآشورية البابلية والآرامية) فقد كانت مجرد لهجات متقاربة يمكن اعتبارها لغة واحدة. وقد سادت اللهجة الآرامية على بقية اللهجات نظراً لسهولتها ولابتكار الآراميين للحروف الهجائية مما ساعد على سهولة نشرها وتعلمها ونظراً لانتشار الآراميين في مختلف أرض ما بين النهرين. وقد اعتمدت لغة رسمية للدولة الآشورية في عهد سنحريب. ولذلك تسمى اللغة السريانية لدى الباحثين اللغويين بالآرامية أيضاً فيقولون اللغة السريانية الآرامية.

وبذلك نجد تسمية جديدة لشعب وحضارة ما بين النهرين هي التسمية السريانية.

اعتناق السريان المسيحية:

خلافاً لقسم قليل من السريان وهم الصابئة ممن حافظوا على ديانتهم القديمة إلا أن معظم السريان اعتنقوا المسيحية في عهودها الأولى ابتداءً من القرن الأول الميلادي. وقد قبلوا المسيحية بحماس شديد حيث وجدوا فيها ملاذاً وخلاصاً من الظلم والاستبداد على يد الاستعمار الفارسي في الجزء الشرقي من وطنهم ومن الاستعمار الروماني في الجزء الغربي، كما وجدوها تعبيراً عن حالة الرفض والاحتجاج، ووسيلة لمساواة القوي والضعيف، السيد والعبد. ورأوا فيها أيضاً تعبيراً عن الاستقلال وحماية شخصيتهم القومية في إطار تنظيمي جديد هو الكنيسة، وساهم السريان مساهمة نشيطة في نشر المسيحية في وطنهم في شرقه وغربه وأصبحوا من خلالها أكثر تماسكاً وارتباطاً فشكل ذلك خطراً على كلا الدولتين الفارسية والرومانية وبعدها البيزنطية. ونظراً للخوف من الاحتجاج السياسي والعسكري لدى السريان الموحدين في هيئة قوية واحدة هي الكنيسة ـ بالذات كنيسة انطاكية ـ فإن الحكام خلقوا واستغلوا أول فرصة للخلافات الفكرية ،الدينية واستثمروها

لهدف تمزيق وحدتهم. وقد تكرس هذا الانشقاق في مجمع خلقيدونيا المنعقد عام ١٥٤ ميلادي، حيث انسحب الوفد السرياني الممثل لكنيسة انطاكية ووفد الكنيسة القبطية اللتين تمسكتا فقط بقرارات المجامع الثلاثة الاولى، نيقية وقسطنطينية وافسس، وهي تؤكد على الطبيعة الواحدة للمسيح المركبة من طبيعتين، اللاهوت والناسوت، بدون اختلاط أو استحالة، أما المجمع الخلقيدوني فقد نص على طبيعتين للمسيح فهو إله تام وإنسان تام.

وكان المجمع الثالث (افسس الأول) قد عقد عام ٤٣١ ميلادية للنظر في أفكار البطريرك السرياني نسطور وكان وقتها بطريرك القسطنطينية والتي تؤكد «أن للسيد المسيح اقنومين وطبيعتين بعد الاتحاد. وأن العذراء هي والدة المسيح». لقد حرَّم في هذا المجمع أفكار ومؤيدي نسطور. وكان وقتها جزء هام من الاكليرس السرياني في سوريا وخصوصاً بالرها من مؤيدي نسطور، الذين لوحقوا من الدولة البيزنطية وطوردوا واضطهدوا أو اجبروا على الهرب إلى فارس بقيادة الراهب برصوما وهناك منحوا التأييد الكامل من السلطات لنشر أفكارهم بين سريان فارس وكانت تلك فرصة ذهبية للحاكم الفارسي لجني مكاسب سياسية في تسخير السريان لديه ضد بيزنطا وضمان عدم تعاطفهم مع اخوانهم في تخوم بيزنطا. وتتشكل في العراق كنيسة سريانية منفصلة عن كنيسة انطاكية هي كنيسة المشرق القديمة. ودعي أبناؤها بالسريان النساطرة، ابتداءً من منتصف القرن الخامس الميلادي.

أما السريان الذين تمسكوا بالمجمع الثالث فقط ورفضوا الاعتراف بالمجمع الخلقيدوني فقد اطلق عليهم أصحاب الطبيعة الواحدة «المينوفيزبين». أما هم فقد سموا أنفسهم بالارثوذكس وهي كلمة يونانية تعني الايمان المستقيم ولا زالوا يعرفون بالسريان الارثوذكس واسم كنيستهم «كنيسة انطاكية للسريان الارثوذكس». أما التسمية اليعقوبية التي أطلقت عليهم فهي تنسب للراهب يعقوب البرادعي الذي ساهم في إنقاذ الكنيسة السريانية االارثوذكسية في القرن السادس خلال فترة الاضطهاد البيزنطي لها، حين حصل على تفويض مطلق من اساقفة الكنيسة المعتقلين في سجن القسطنطينية لبعث الكنيسة، بعد أن وضعوا عليه الايادي.

ولذلك يعرف السريان الارثوذكس أحياناً باليعاقبة تيمناً بالراهب يعقوب البرادعي.

وقد تبع قسم من السريان في سوريا في القرن الخامس أفكار المجمع الخلقيدوني وقد يكون ذلك اقتناعاً منهم أو كنتيجة لعوامل الضغط البيزنطي عليهم. وسموا بالسريان الملكيين لكونهم تبعوا اتجاه ملك بيزنطا. وفي القرن السابع انفصل عنهم جزء من مؤيدي الراهب الناسك مارون نتيجة خلاف فكري وأسسوا لهم كنيسة سميت بالكنيسة السريانية المارونية.

وهكذا تتشكل ثلاث تسميات طائفية مع حلول القرن السابع الميلادي وهي السريان النساطرة ـ السريان الايثوذكس ـ السريان الملكيون ومنهم الموارنة. ويطل القرن الخامس عشر وتفلح البعثات التبشيرية في فصل مجموعة من الكنيسة السريانية الشرقية «كنيسة المشرق القديمة» في فترة انعقاد مجمع فلورنسا بين عامي ١٤٣٩ ـ ١٤٤٢ وضمها إلى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. وسماهم البابا اوجانيوس الرابع بالكلدان. وكنيستهم بالكنيسة الكلدانية. وبعد فترة قصيرة عادوا لكنيستهم الأم وتركوا الكثلكة، وتكرس الانشقاق أخيراً في عام ١٦٧٢ حيث قام المطران يوسف اسقف ديار بكر باعلان انفصاله عن كنيسته النسطورية الأم والانضمام إلى الكنيسة الكاثوليكية في روما. فمُنح في عام ١٦٨٣ من قبل البابا لقب بطريرك الكلدان. وقد شكل ادخال الاسم الجديد «الكلدان» إشكالاً جديداً في عملية وحدة التسمية للشعب الواحد، ولا يمنعنا عدم وجود التبرير المنطقي لاطلاق الاسم «كلدان» بدلاً من «سريان كاثوليك» من التشكيك في مقاصد البابا في تكريس تفريق دائم بين القسمين المذكورين من خلال ابراز تسمية تاريخية وإن كانت تسمية وطنية في تاريخ ما بين النهرين. ولهذا نجد كثيراً من الكلدان الحاليين يعتقدون خطأ بأن تسميتهم بالكلدان هي استمرار متواصل للكلدان تاريخياً أما الكنيسة السريانية الارثوذكسية فقد تعرضت أيضاً في القرن السابع عشر لتأثير الارساليات الكاثوليكية وخصوصاً الفرنسية. وبتدخل مكشوف من قبل القنصل الفرنسي في حلب فرنسوا بيكه تم فصل مجموعة من السريان الارثوذكس في حلب عن كنيستهم الأم وتشكيل كنيسة جديدة ثانية لروما. واعترف البابا في عام ١٦٦٢ بتسمية البطريرك الأول للكنيسة الجديدة وهو اندراوس اخيجان وبهذا تشكلت الكنيسة السريانية الكاثوليكية.

أما السريان النساطرة، أبناء «كنيسة المشرق القديمة» فقد أعادوا ـ ابتداء من نهاية القرن التاسع عشر ـ إطلاق الاسم الآشوري القديم على أنفسهم وذلك مع بدايات النهوض القومي والسياسي لديهم وقد غيروا اسم كنيستهم في السنين الأخيرة من كنيسة المشرق القديمة إلى الاسم الجديد «الكنيسة الشرقية الآشورية» ومع هذا التغيير في تسمية الكنيسة وبالرغم من كونه عودة جميلة للجذور، إلا أنه ولكونه بدأ لدى مجموعة واحدة فقط من السريان اضاف إلى ساحة الواقع إشكالية جديدة في مجال تسمية الشعب الواحد باسم واحد. فنرى كثيرين من النساطرة الآن يعتبرون أنفسهم أحفاد الآشوريين التاريخيين وبأنهم ورثو الحضارة الآشورية العظيمة.

ضمن السياق التاريخي لمسألة التسمية نجد أن السريان أحفاد حضارة ما بين النهرين من سومر وأكد وبابل وآشور وآرام، قد انقسموا إلى طوائف مذهبية، وكل طائفة تنفرد باسم متباين. وبسبب عوامل الجهل والحساسيات المذهبية القديمة وبسبب عوامل

تفرقة خارجية نجد ان هذه التسميات، ورغم كونها صفات لشيء واحد، فانها بسبب غياب المناخات المناسبة تصبح عوامل تفرقة وليس عوامل توحيد. فقسم من الكلدان، يعتبر نفسه حفيد الكلدان القدماء وقسم من السريان النساطرة، يعتبر نفسه حفيد الآشوريين القدماء، وقسم من السريان الغربيين يعتبر نفسه وكأنه حفيد الآراميين القدماء. علماً بأنه لا دليل مقنعاً على ذلك فالسريان الحاليون من نساطرة ويعاقبة وكلدان وملكيين هم أحفاد الحضارة البابلية والآرامية والكلدانية والآشورية والأكدية والسومرية والتي تمازجت عبر الزمن في صفة حضارية مشتركة هي حضارة ما بين النهرين التي عرفت بالحضارة الآشورية من خلال اطلاق تسمية الجزء على الكل ومنها اشتقت التسمية السريانية واسم الشعب السرياني ولغته السريانية وثقافته السريانية هي وريثة حضارة ما بين النهرين.

مراجع البحث:

١ ـ المسألة الآشورية في العصر الحديث ـ ماتفيف.
٢ ـ تاريخ الكنيسة الشرقية ـ اغناطيوس ديك وميشيل يتيم.
٣ ـ قصة الحضارة ـ الجزء الثاني ـ ويل ديورانت.
٤ ـ تاريخ البشرية ـ ارنولد توينبي.
٥ ـ تاريخ الآشوريين ـ ماتفيف.
٦ ـ مجلة الجامعة السريانية «المجلد العاشر» الكاتب السرياني.

عن «دراسات اشتراكية»
آذار ١٩٩١


أدب وفن





طير العراق المهاجر

تحتفظ «الثقافة الجديدة» إلى جانب صحف الحزب الشيوعي العراقي الأخرى، بالامتنان لما قدمه الشاعر المجدِّد سعدي يوسف في ميدان الأدب والفن، وهو الذي تحمّل مسؤولية هذا القسم فترات طويلة جعل فيها من صفحاتنا الثقافية منبراً للجديد، الحداثوي، المختلف.

لم يتردد سعدي يوسف، إضافة إلى اعبائه العديدة، من إعادة تحرير مادة، أو تصحيح ماكيت، أو إعادة نسخ عمود بخط يده... كان سعدي يمنح هذا العمل من وقته وصبره ودأبه مثلما يمنح لقصيدته.

كما خاض سعدي غمار العمل الديمقراطي في وسط المثقفين، داخل الوطن وخارجه، وبذل ما في وسعه من أجل انجاح هذا العمل وتطويره، وبجهود مشكورة تأسست رابطة المثقفين الديمقراطيين في المنفى وبقلمه صاغ نظامها الداخلي وعلى طاولته نشأت مجلة «البديل» وانتخب رئيساً للرابطة.

إذن، لم يختزل سعدي يوسف حياته بقصيدة حسب، رغم إنها (القصيدة) مبرر حياته مثل أي مبدع...

ومنذ «القرصان» مجموعته الشعرية الأولى، دفع سعدي ثمن ابداعه غالياً: السجن.. الحصار.. النفي حتى اللحظة.

وسعدي قصيدته صديقته، من أجلها حزم حقائبه، وحزنَ، وأحبَّ، وغامر، وصارح، وهاجر، وسكن «بعيداً عن السماء الأولى»، وقصيدته هي ستراتيجه، وكل ما عداها فهو تكتيك...

و «الثقافة الجديدة» إذ تقول هذا، بمناسبة ملفها الخاص بسعدي يوسف، فانما تقوله وفاءً واعتزازاً وفخراً... وان ما حظي به هذا الشاعر من جوائز وتكريم واحتفاء هو تكريم لها واحتفاء بها، ليس لأنها تدّعي مِلكّية الشعر والشاعر، ولكن لأنها، كمجلة للشيوعيين العراقيين، كلمةٌ من حلم ومن أجل الحلم، به تصيغ بيانها وعلى ضوئه تحتفي بصانعيه مبدعون ومناضلون وشهداء.

... ولأن الشعر تثقله التفصيلات، والحب لا يحتاج إلى بلاغة بل إلى فعل، ها هي «الثقافة الجديدة» تكرم صديقها الحميم بما تستطيع لا بما ترغب وتود، ونحن أبناء بيت واحد: العراق/ الشعر.

واذ نحيي سعدي شاعراً للسنة الايطالية، فاننا نحييه شاعراً للزمن العراقي الصعب، الجميل، المنتَظر.

لقد حلّق سعدي، كطير، شرقاً وغرباً، بعيداً وقريباً، وحوّم حول بغداد في طريقه إلى دفء البصرة، وصعد نحو «حاج عمران». ومن منفاه هاجر نحو منفاه وتعددت عواصم قصيدته، وهو الذي يضيق بالثبات، لكنه لم يتخلَّ عن أصالة الشعر.. عن انتمائه الحميم لمكوّناته الأولى، فهو مهما حوّم بعيداً، هذا الطير، فلابد له ان يحط في لحظة تعبٍ عابر، على مأذنةٍ عراقية أو في حانة شعبية مزدحمة بالحكايات والشرود الجميل.

الثقافة الجديدة





الشاعر

عواد ناصر

حين نشر شاعر المانيا الكبير ريلكه شروطه القاسية من اجل كتابة سطر واحد من الشعر، فانه وضع من يطمحون لكتابة ذلك السطر أمام امتحان الذات واحترام النفس والآخر. لكن القلائل استوقفتهم تلك الشروط، والأقل منهم ـ خصوصاً في منطقتنا المبتلاة بـ «الشعر» ـ اجتازوا امتحان الذات واحترموا أنفسهم والآخرين ومنهم سعدي يوسف.

يشترط ريلكه على من يريد كتابة سطر واحد من الشعر رؤية الكثير من المدن والناس والحيوانات والأشياء والبحار، والعودة إلى أيام الطفولة والغرف النائية وليالٍ طارت بالانسان بعيداً، إلى الأعالي وعرّفته بالانجم. ويضيف ريلكه: «يجب ان تكون لك ذكريات تتمكن من نسيانها فيما بعد، وعليك ان تتذرع بالصبر كيما تعود اليك ثانية، على ان السرّ ليس في الذكريات، حسب، إنما تحوِّلها إلى دمٍ يسري في العروق، إلى نظرةٍ ونبض لا أسم لهما ولا يمكن تفريقهما عن ذاتك.. آنذاك، وفي تلك الساعة النادرة يمكن ان تظهر الكلمة الأولى للقصيدة».

شروط ريلكه تلك، مهما بدت صادقة وضرورية فهي وليدة عصره ورؤيته الخاصة وتقاليد، أو جزء من تقاليد القصيدة الالمانية، لكن فيها الكثير مما في حياة وتقاليد قصيدة سعدي يوسف الذي رأى أكثر من ذلك ليوقف ميتافيزيق ريلكه على قدميه، لأنه حوّل رؤيته وخبرته وثقافة قصيدته إلى موقف ابداعي لنقد الواقع ونقضه... إلى شعر يزخر بشؤون الناس وصبواتهم وأحلامهم بالطيران العالي، وهو الذي قال للكلاب «انبحي كي أطير».

واذ نحتفي بسعدي ، بقصيدته ـ قصيدتنا ، فاننا نستعيد حياة شاعر غنيّة ، اكتسب فيها نضاله وابداعه بعدين متفاعلين أغنى كل منهما الآخر لكتابة قصيدة مهمة.

سعدي يوسف محطة شعرية بارزة في مسار الشعر العراقي ، قبل أن يكون ـ بالطبع ـ واحداً من شعراء الحداثة العرب البارزين ، وبامكاننا القول ان سعدي شاعر مرحلة ما بعد الرواد وحتى اليوم بامتياز. ان موهبته اربكت تجارب الشعراء الذين جايلوه، خصوصاً مقلديه والسائرين على خطاه إلى الحد الذي امحت فيه الملامح الشخصية لقصائدهم. وتلك مشكلتهم لا مشكلته. من المستحيل ان نطلب منه ان يقطع أصابعه كي لا تظهر بصماته على أوراق الآخرين.

ومثلما جعل سعدي من قصيدته وطناً له، فقد استثمر منفاه كفسحة للتأمل والنظر، فهو لم يختزل الوطن بجغرافيا ولا المنفى بهرب اضطراري من سلطة غاشمة وأميّة، انه المتوحِّد في جذره (الوطن) وأوراقه (المنفى) وليس له، أو لأحد غيره، ان يفصل الجذر عن الاوراق ليعود كلٌ منهما بلا معنى.

منذ ديوانه «نهايات الشمال الافريقي» ـ الذي كان نقلة واضحة في تجربته الحديثة وديواناً عن المنفى بامتياز ـ لم يزل سعدي في أقصى حالات التجريب لغة وشكلاً إلى الحد الذي لم يستوقفه المضمون ـ بالمعنى التقليدي ـ كثيراً، إذ انه نجح في تحويل لغته الجديدة إلى مضمون جديد بحد ذاته وان بلغ تخوماً بعيدة من التجريد في عددٍ غير قليل من قصائده.

* * *

واذا ما اتيحت لسعدي فرص ليتولى مسؤولية الصفحة الأدبية (طريق الشعب) أو سكرتير تحرير (الأقلام) ـ (التراث الشعبي) ـ ورئيس تحرير (البديل) فانه حوّلها إلى مساحة للمغامرة والرهان على الجديد وتبني المختلف والعناية بشعر الشباب (كلما تسنّى له ذلك) وبذا جسّد سعدي الجانب العملي من رؤيته الشعرية في ترويج القصيدة الأخرى بمواجهة شعراء الحزب الحاكم وشللية شاعر الوزارة وعقد أوثق الصلات والصداقات مع شعراء المقهى الصغير والحانة البعيدة، المبعدَة، والرصيف الضيّق، واحتفى بشعراء الضد والقصيدة الواعدة والتجربة المعتّم عليها، كان سعدي يقول لهؤلاء الشعراء: «تعالوا نفعل شيئاً». وفي كل منعطف حاد يهتزّ فيه الوطن، وتنشحب القصائد، أو يميل فيه المنفى بقامات المبدعين العراقيين، كان لسعدي واجب الشاعر الحر: الدعوة لمنظمة ثقافية (رابطة المثقفين العراقيين ـ الجبهة الثقافية العربية (كميثاق شرف بمواجهة الثقافة غير الشريفة) كان لا يتوانى عن دعم اصغر اجتماع ثقافي (اتذكّره، حين حضرنا معاً في بيروت عام ١٩٧٩، اجتماعاً للمسرحيين الشبان).

ومن كل ذلك ثمة ما تحقق، ومنها ما تعثر ومنها ما أجهض ومنها ما لا يزال قيد الوهم الجميل... ومع كل ذلك بقيت قصيدته، هي الأُولى والأولى، رهاناً وارتهاناً ومحبساً وانطلاقاً وطلاقةً.

بمن، وبماذا، يمكننا ان نقارن سعدي يوسف؟

رغم الأهمية النقدية لهذا السؤال، إلا انه ليس مهماً اذا ما نظرنا لعبقريته الواضحة، فكيف لنا ان نقارن بين شط العرب والنيل والعاصي وبردى حيث لكل مصبّه واتجاهه، ولكل منها قدرتها على تحقيق المنفعة العامة للضفاف والاتيان بالموجة المدهشة أو الاكتفاء بالقطرة الصافية.

... أخيراً،

إن تكريم شاعر، كسعدي، عالمياً - ومن ايطاليا بالذات، ايطاليا ميلانيا، سيدة روما الشريفة، ايطاليا ميكايل انجلو، إيطاليا البرتو مورافيا الذي قال: إن العرب هم الأقرب الينا نحن الايطاليين من غيرهم... أقول إن هذا التكريم هو تكريم للشعر العراقي. ويحق لنا - نحن الشعراء العراقيين ان نفخر: لقد فزنا بجائزة السنة الايطالية للشعر!

وكم لحديث الجوائز من مرارات ومؤامرات ليفوز بها من لا يستحق، فان سعدي بين القلائل الذين يستحقون الجائزة حقاً.

شكراً لمن وضع اسم سعدي يوسف، الشاعر العراقي المنفي منذ بدأت قصائده تشكل خطورة على السائد المتخلف والمتزلّف، على قائمة المرشحين للجائزة.

شكراً لمن تحمّس لفوزه...

شكراً له لأنه سفيرنا الشعري المتجول الذي انتصر لشعرنا الجديد... لأحلامنا الانسانية في ان يصبح وطننا طليعياً وجميلاً وحراً كالشعر.

اوائل آب ١٩٩١

---

* ميلانيا (٣٨٣ - ٤٣٩): قديسة رومانية كانت ثرية فوزعت وزوجها مالهما على الفقراء، ثم ترهّبت في أورشليم.





علامة الشعر نفسه

كاظم جهاد

اعزائي،

ما هذه إلا عجالةٌ ارتجلها، وما عرفتُ بفحوى هذا اللقاء، للأسف، إلاّ منذ هنيهات.

لا يخفى على أحد منكم ان جائزةً في الشعر لسعدي يوسف هي جائزة للشعر العراقي كله، باصواته العديدة المتميزة، شعر يقف سعدي بين أنقى اصواته وأرقاها.

ولا يخفى على أحد أنها كذلك جائزة للشعب العراقي الذي يغوص الآن في هاوية للموت منها سيطلع من جديد إلى صباح لن يكون، وقد اجترحه العذاب والألم والدم، إلا صباحه الخاص وحده.

وهي أيضاً جائزة للشعر العربي الذي تعرّف منذ البداية في صوت سعدي على نغمة فريدة من نغماته، وبحر مديد من بحوره.

البحور، بمعناها الفراهيدي الذي تعرفون، والذي آخذُه هنا على المجاز فالأمر يتعلق بالايقاع لا بالوزن...

والبحور، بالمعنى الجغرافي الذي لا يخفى على أحد...

هذه المفردة الواحدة، البحور/ البحار، لعلها كفيلة باحالة مسيرة سعدي إلى بُعدَيها الأساسيين منذ البداية:

الاطلالة، انطلاقاً من مياه البصرة، على مياه العالم. أي جَمْع الخصوصية البالغة بالانفتاح البالغ،

وهذا كله إنما يتم عبر تجديدات موسيقية غير منقطعة منحت إيقاعات الشعر العربي ألف إيقاع مضاف، وعمّقت نبراته بألف نبرةٍ ونبرة.

شأنَ كافافي ، الذي ترجمه هو، يطل سعدي على عبقرية المكان ، يقرأها في كثافتها التاريخية والوجودية .

وشأنَ لوركا، الذي ترجمه هو أيضاً، والسيّاب، الذي كان هو قريبه، بمعنى القرب ومعنى القرابة، يستلهم سعدي موروثنا الغنائي الشعبي ويفرضه على لغة الضاد في تركيبة فريدة لا تعـود إلاّ له وحـده. تركيبـة تسمـح بقراءة مقاطعه التي يستلهم فيها الموروث الشعبي ، أقول قراءتها فصيحة وعامية فتنتعش الروح الجماهيـرية الحية ، وفي الاوان ذاته تثرى اللغة العالية، ولا أحد ينعش «اكاديمية» اللغة قدر ما يفعل الشاعر الذي يأتي ليهزّها ويفجرّها من داخل .

وشـأنَ ويتمـان، الـذي ترجمه هو كذلك، يجوب سعدي في العالم، حاملاً في تغريبته الشخصية تيه عراق مجروح وعربية تنقلبُ الآن على فسادها.

ومستلهماً درس أبي تمام، الذي هو قارئه المسحور ـ والمسحور هو نفسه ساحر ـ، يعمد سعدي إلى التركيب الصارم على سيولة صارمة. فكأنما يُسيِّل الحجر حيثما ينحتُ سواه في الصخر.

واليوم، أكثر من أي وقت مضى، تكتشف هذه العربية نفسها، بعد تهافت الكثير من التحديثات الكاذبة، ان صوت سعدي، الذي نضج بهدوء، أي بثقة، هو الحامل، كما لا يقدر عليه إلاّ القلائل، سرّ الانفتاح العميق الذي هو ابداً علامة الشعر نفسه .

باسمه، غنّيتُ قبلَ سنوات، إذ نشرتُ في مجلة «الآداب» البيروتية، في ١٩٨٠ ، وكانت ملاحقة طغمة صدام للثائرين قد بدأت على النحو المسعور الذي تعرفون، أقول نشرتُ قصيدةً قلتُ فيها :

«وحدكَ ياسِعدي وهذا الليل
ليلٌ عراقيٌ بلا منتهى
ليلٌ ولكن لا كمثل الليل» .

لسعدي، لليل العراقي الطالع مؤكداً عن صباحات عراقية ساحرة، لأرواح الغائبين المرفرفة فينا وحولنا، ولكم أعزائي الحاضرين، جميل التحايا.

باريس

٢٣ تموز ١٩٩١





إلى سعدي يوسف

محمد سعيد الصكار

كلماتٌ على الجسورْ
كلماتٌ على الحدودْ
كلماتٌ على تراب الحدائقْ
كلماتٌ على الثغورْ
كلماتٌ على رماد الحرائقْ
كلماتٌ تنأى وتقربُ
لا العينُ تراها، ولا اليدان تلمُّ
كلماتٌ طارتْ وأخرى تهمُّ
كلماتٌ في كل منحى فمن يجمعُ هذا النُّثارَ من كلِّ منحى
ويعيد التشكيلَ واللونَ والايقاعَ، يرمي به على الليلِ صبحا
لعبةً تُشتهى
وقد أغوت الطفلَ
وصاغتْ أحلامهِ
ومضت تنسابُ جدولاً في حناياه
رخيّاً طوراً، وتارةً يتلوّى
مثلما الدربُ حين يُفضي إلى باب سُليمانَ
ترابٌ. . .

تعرّجُ. . .
ونخيلُ
لعبةُ أبعدته عن لُعبِ الأطفال، ألقتهُ غريباً على حدود الخيالِ
يتقرّى ملامحَ الكونِ مبهوراً ويصبو إلى احتضان المحال

* * *

بدأتْ غربتُهُ الأولى من باب سُليمانَ
مع الخيط الأول من فجر الكلماتْ
أسلمَ طيارته الورقيةَ للريح ،
وراح مع المدّ
فلم يسأل عن زمنٍ
عن سكنٍ
لم يسأل إلاّ عن سحر الكلماتْ
كانت سعفاتُ النخلِ تداعبُ جبهتَه
ومياهُ الشط تضاحكه، وتقول:
اذهب يا شيطانَ النخلِ إلى أقصى الأرضِ
ولا ترهبْ مُخبرِها البدويَّ
فأنتَ هنا، في باب سليمانْ،
ولن تبرَحَ هذا الدربَ المتربَ
والجدران الطينيّةَ
والأيدي المشقوقةَ بالمسحاةْ
صدَّقَها الطفلُ، وراحَ بعيداً
يجري خلفَ الكلمات،
يسابقها
ويسائل عنها أفواجاً من أممٍ شتّى.
في ليل الكلمات الحالك

كان الحلمُ نقيّاً
شفّافاً
والنبرةُ أصفى من دمع الأطفالْ
وتراءتْ قامةُ جونِ بتلرييتس
فانبهر الطفلُ بطلعته
وتهيَّبَ أنْ يلمَسَهُ
لكنَّ الشاعر مدَّ براحته نحو الطفل
وصافحه، وأسرَّ له:
«ما من شيء يتوحَّد أو يتكاملُ ما لم يتمزقْ».
في زاوية الحلم الأخرى
كان الطائيُّ أبو تمام يراقبه
فتلقّاه وأجرى راحته فوقَ الشَّعر المبتلّ، وقال:
ياسعدي،
ياشيطان النخل،
تَغَرّبْ وتبدَّدْ كي تتوحَّدْ
فهـا أنـذا «لـم أحـوِ وفْـراً مجمّعاً
ففُـزْتُ به ألاّ بشَـمْـلِ مُبـدَّدِ
ولـم تُعـطني الأيـامُ نومـاً مسَكـنّـاً
ألـذُّ به إلاّ بنـومٍ مُسَـهَّـدِ»
حين استيقظ شيطانُ النخل من الحلم
ابتدأتْ غربته الأخرى
في مجرى الروحِ
وفي بابِ سُليمانَ
وفي فَوْضى الكلماتْ
وها هو ذا

بعد خمسينَ عاماً
يمارس لعبَته الأولى
يمزّقُ ويتمزَق
يُبدّدُ ويتبدَّدُ
وما زالت غُوايةُ الكلمات
تأخذه في رحلةٍ أبدية من الانبعاث والتوحُّد
وما زال بعد خمسينَ عاماً
يتساءل ببراءة الأطفال:
«ولــربّــمــا غمْــغَــمْــتُ إن يداً
مُدَّتْ إلــيَّ عمــيــقــةَ الــخــضــره
آنـــســـتُ فِي باريسَ ملمــسَــهــا
أتــكــونُ في أثــوابــيَ الــبــصــره»

١٩٩١/٧/٢٣

ثلاث قصائد إلى سعدي يوسف

صلاح الحمداني

(١)

صدفة
تفتح نهاراً
فتنهال عليك ازمنة جدباء
معصوبة الرؤوس

(٢)

مرات
تضع نفسك في كتاب
وتضع الكتاب فوق رف
وتنتظر
وعندما تهبطُ مرةً أخرى
تكون جميع الجدران قد رحلت
والافكار تعدو
مرايا تتعثر في الرؤيا..

ومرات
يزورك دم قتلى
عصافير نحليةً
تحط خلسة فوق اضبارات ورق
تفشي بعضاً من اسرارها لجفاف الماء
وللحقول المجهولة المبعثرة في الذاكرة.

* * *

دولار الآلام

إلى سعدي يوسف

(١) الحزن يدق كالناقوس
في نقطة مفترق للصحو
يؤشر على خارطةٍ غير موجودة للنهار

والزمن يحمل أمتعته، الزَبَد المُتبقي
كالليل يُراقب ظلمته المفروضة عليه
عجباً، إن العصافير يجب أن تُغرّد للصباح
وأبناء آدم يتغافلون بلوج باكورة الضوء الفطري
نيام في ساعات اليقظة الموسِمه
(٢) السودان تحتفلُ مع أثيوبيا بجحافل العظام المتحركة
وبلاد النهرين ثوب بلا نسيج
الذبابُ يقنطر على نهر الخرافه
وجسد الفجر معطّل في كثير من أعضاء هذه الأرض
المخيّبة لآمال جثثها المحسوبة عليها
والدولار مُتعَب لرحلته بين مكة والمدينة
آهٍ يا آلهة المخاوف.
(٣)البحرُ مدمن شرابَ السموات والنجوم
فاطلقت التيّارات الموحشة عنانها
نحو سُفن الخيبه
التي إرتمت بقاياها على سواحل الفَراغ
والبحارة عراة إلّا من خرقة المَسْكنه
ملتصقون على اللوح كالمسيح
والحزن يدق بلا توقف،
بلا نهاية.

علي صبيح
باريس ٢٤/٦/١٩٩١

يحدث ان...

شوقي عبد الأمير

يحدثُ أن يتوقفَ النبضُ في أوردة نهرٍ أخافُ أن أسميهِ الفرات لكي احتمي بشاطيءِ للبقاء فأنا ما زلتُ أسمعُ في منفايَ البعيد هذا عويلاً يجرحُ جبهة الليلِ آتياً إليّ من جنوب النار: البصرة.

يحدثُ أن يُحكَمَ بالموتِ على شعب فَيُحشَرَ إلى جدارٍ ثمّ يُنفّذ فيه الحكم رمياً بالصواعق والرعود والبراكين فتسقط المدن والنهاراتُ والأجسادُ معاً. . .

عندها أخافُ أن أرى

وأخافُ أن أسمع.

يحدثُ أن تمرّ أعوامٌ طويلةٌ في تأريخٍ كما تمرّ جيوشُ برابرةٌ تحرقُ في طريقها الحرثَ والنسلَ خشباً في موقد الجلاد.

وعندما أسميها تأريخ العراق

أخافُ من صوتي

وأهربُ من سنواتي.

يحدثُ أن يقضي حفّارُ قبور ربعَ قرنٍ في تشييدِ مقبرة له يضعُ فيها تمثالهُ شاهدة وعندما أتلمّسُ حدودها على الخارطةِ كأضلاعِ طفلٍ يموت أخرجُ مثلَ سجينٍ من دمي وأهرولُ بينَ أخاديدِ موتي.

يحدثُ أن ندخلَ في أغنية كما نهربُ إلى خندق، أو نفترشَ السماءَ كدُعاءٍ قروي أو نفلتَ كالطيورِ بينَ أقواس النارِ، فتُعمّرُ الأغاني طويلاً كالشعوب ونهرمُ نحنُ في سماء الجناح.

يحدثُ أن يأتي شاعرُ إلى جرحنا مثلَ صباح يعودُ إلى قريته، شاعرٌ يعيدُ على الخارطة ارتماءَ السفوح فوق هضبة الصوت

شاعرٌ اسمهُ سعدي يوسف،

فنغذّ السير. . .

باريس

٢٣ تموز ١٩٩١





شكرا لامرىء القيس*

سعدي يوسف

اخيراً
وفي غرفةٍ نصفِ مفروشةٍ
قرب نيقوسيا
اتيتَ لتلقيَ على شفتيك السلامْ...
امِن بعدِ خمسة آلاف ميلٍ
وجدتَ الكلامْ؟
امِن بعدَ ان سكن الطحلبُ المْيتُ بيتَكَ
وانتثرت في البحار السهامْ؟
سلامٌ لدوحةِ تينٍ
سلامٌ لهذا الظلام
سلامٌ لقوقعةٍ خبّأتْ دمها في نعاسٍ بليلٍ
سلامٌ لهذا الحطامْ

●

* اختيار «آدب وفن»

لكأنَ نبعاً من يدين نحيلتين
يزيح اغطيتي، وئيداً،
مثل فلّاحٍ يزيح لحاء مشمشةٍ
ـ أتبرُقُ فضةٌ بيضاء والدنيا رصاصٌ؟ ـ
كلُ ما حولي سواحلُ
هل دخلنا مرةً؟
مدنٌ يقال هناك : : بلداتُ، قرىً، وعواصمُ
اختلفتْ بنا الطرقات واشتبكت
اندخلُ في الخروج هنا؟
انخرجُ في الدخول هناك؟
نائيةٌ مدينتنا
وناءٍ ذلك الأبدُ المجرّحُ في الجفونِ.
إني أريد يديكِ ناحلتين
لن احيا طويلاً فاشر بيني أنتِ،
لن احيا طويلاً . . . فأقتليني.

●

غيومٌ مثبتةٌ كالجبالِ الطباشيرِ
يمرقُ طير السنونوِ
ويبلغ برج الكنيسة في آخر الحيّ
ثمَّ ثلاثُ شجيرات أرْزٍ
ـ سأرسمها ذات يومٍ ـ
ومنفضتي بالحلازين مكتظّةٌ
والضحى ابيضُ
النبتةُ المنزلية تختصُ
والطاولةُ . . .

أهذا الهدير البعيد؟
أهذا الدم المتراكض في مرفقٍ أو وريد؟
سلامٌ لنحلة هذا الصباح!

●

أيامَ جئنا نزرعُ الطرقاتِ
فكّرنا بأن الليلِ اقصرُ من مقدمةِ ابن خلدونٍ.
وقلنا: المغربُ الأقصى بَرانِسنا
تَقينا القيظَ والقَرَّ المسنَّنَ.
ربما كنا صغاراً.
ربما عدنا لنأكل حصرماً قد عافه الآباء
ايةُ حكمةٍ في دورة الخُذروف؟
أيُ الموتِ اهونُ؟
لم نقل حتى ولو في السّرِ: أيُّ الموتِ اجملُ؟
سروةُ المرسى وسامرّاء
بسكرةُ التي التمتْ بزاويةٍ على ينبوعها.
والرفقةُ الفتيانُ يقتسمون ـ حتى القتل ـ صندوقَ الذخيرة.
هكذا نمضي كما كنّا.
تعلّمنا.. ولكنْ دورةَ الخذروفِ.
شكراً لأمريء القيس القتيل.

●

إلى الجلّنارِ المبكر ترسلُ عصفورةٌ ريشةً.
سنونو يطير، مُسِفاً، إلى ستتيمتر من الشارع.
الشرفاتُ الصغيراتُ في وحشة المتنأى
والصباحُ انتهى منذ جاء الصباح
فمن سوف يأتي؟

ومن سوف تأتي؟
ومن ستلوِّنُ اقصى الملاءةِ؟
من تحتفي بالأنامل؟
من تختفي في ذهول الصباح؟
قواربُ اربعةٌ في بياض الجدار
قواربُ اربعةٌ في القرار. .

●

تتدخل المرآةُ
كنت اريد صوتاً لا مثيلاً
غير اني عبر قاعات المرايا:
اغمضُ العينين أم أغضي مع العينينِ؟
هذا الدرب طالَ
ولم تزل تتدخل المرآةُ.
أحياناً اغيبُ مرنَّحاً في ماء خلجانٍ مصغَّرةٍ.
أمامي يلمع الفوسفور
اعشابٌ من القاع المخادعِ في يدي ومحارةٌ
تتخاطف الأسماك
من حولي فراشاتٌ. قنافذُ. انجمٌ. وعيونُ غرقى. .
أيها الصمت السديميُّ الذي يقتاتني. .
من أين يأتي الصوتُ؟
بعد هنيهةٍ سأعود اخطو عبر قاعات المرايا.

نيقوسيا
١٩٨٦/٥/٩





مدينة القرن الأول *

سعدي يوسف

لو كانت البصرة أرضاً لتخطيّتُها. لكن البصرة سماء.

السماء خضراء، ثَمَّتَ النخْلُ والماء اخضر. خضرة متبادلة بين السماء والماء. ونحن، نحن الصغار، أبناءُ لونٍ نادرٍ في حضارة العرب. أهي مصادفةٌ محضٌ أن اول مدينتين مُصرِّتا في القرن الأول الهجري كانتا: الكوفة والبصرة؟ أولاهما صفراءُ حتى اليوم من مجاورة الرمل، والثانية خضراء (حتى اليوم؟) من مجاورة السماء والماء.

ليس في البصرة ما يُفقَدُ.

فيها كل ما يُفتَقَدُ:

سفينة الخشب الآتية من مومباسا، ورائحة التفّاح في النحو، واناس الجاحظ الذين يضطربون في فُجاءة الحياة الدائمة، والاضراب الأول لعمال نقابةٍ سريّة.

أقولُ: لا، للقتل.

الآلافُ الخمسون من أهل البصرة (كم احبُّهم الحريري!) لم يتذرَّوا تحتَ القصف الأميركي. لقد تكفَّلَ الاميركيون بالجنود

* خص بها الشاعر «أدب وفن ـ الثقافة الجديدة».

الذين ليس لهم من الجند سوى البدلة التي تجعلهم هدفاً مُعلناً.

أقول: الآلاف الخمسون من اهل البصرة لم يقتلهم الاميركيون إلا بواسطة الوحش الذي خنق في دقيقةٍ واحدةٍ، الآلاف من بلدةٍ كردية، اسمها حلبجة.

القطيعة العظمى أغلقت دائرتها.

الخليفة العباسي، الموفق، سار بجيشه إلى البصرة ليذبح الزنج، وليحتفظ حتى اليوم بشارعٍ في المدينة يحمل اسمه. لكنّ الوحش الذي وجّه مدافع دباباته الـ T72 إلى بيوت المدينة، وصدور أطفالها، أبناء اللون النادر في حضارة العرب، لم يترك ولو شارعاً واحداً قد ترتفع عليه، ذات يوم، مسلّةٌ تطلّ علينا، منها، اسماء شهدائنا، اطفال البصرة.

إنها الصحراء، تعيد إلى ناموسها الفظّ، مدينةً من القرن الأول الهجري.

لكن البصرة ليست أرضاً.

إنها سماء.

باريس ٧ آذار ١٩٩١



ـ من كتاباته النثرية حول الغزو الاسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ .

«شمس المتوسط» تنتظر

سعدي يوسف

«شمس المتوسط» كانت السفينة الأخيرة التي تغادر بيروت. كان ذلك في الاول من ايلول (سبتمبر) ١٩٨٢ (يا لوحشة الذاكرة!). والمقاتلون الفلسطينيون يتوجهون هذه المرة، في دفعة أخيرة، إلى مرفأ طرطوس السوري. اما لماذا كنت، أنا، مع هذه الدفعة الأخيرة، فتلك حكاية طويلة، طويلة إلى حد أعجز عن بلوغه، ربما لأنه يمتد غائراً في النفس حتى لا تكاد تحاول مداه، ربما لأن رشيش الباريتا الايطالي كان مصقولاً بشكل عجيب، وربما لأن الكتب صارت توزع بالمجان في الجامعة الاميركية. لماذا تتذكر الآن (الآن بالذات) ان دفعتك لم يودعها أحد. لم يودعها إلا فتى لبناني واحد أطلق صلية من رشاشة حين مرت الشاحنة العسكرية، ثم اختفى مسرعاً في زقاق قريب. كانت المدينة تعود إلى أعماقها، وبانتظار البرابرة (كما في القصيدة الاغريقية) كان رجال قانون ومحترفوا سياسة مزمنون. بانتظار البرابرة (كما في القصيدة اللبنانية) كان ثوار واطفال ملتحون. أما المتاريس والسواتر الترابية، فقد سويت تماماً. لم تعد خارطة طرق العاصمة تتغير على مدار الساعة. الطرق مفتوحة. المدينة مفتوحة.

ومن ذلك الموقع العالي، المطل على المخيم، ينشر آرييل شارون خريطة لأزقة الدم. السماء زرقاء زرقة مذهلة. المدينة مقفرة تماماً. رائحة البحر تقترب. كنت ودعت محمود درويش، وقبله ادونيس وخالدة. آخر المودعين محمد كشلي وحبيب صادق، جاءت منى السعودي مع ابنتها التي شرعت تعابث البيانو في «فندق كافالييه». تقول سأبقى مع تمثيلي المنثورة في الحديقة والمشغل. اذهبوا جميعاً واتركوني هنا. لكنهم يعرفونك يا منى. محمود رفض البحر. جاؤوه بالكوفية والبدلة العسكرية والكلاشن، وحددوا ساعة

رحيله. قال: اني أكره البحر. ثم غادر الفندق. اختفى. وسفينته غادرت. قبل يومين التقيت بحسين مروّة ومحمد دكروب في مستشفى الجامعة الاميركية. كانا يعودان جريحاً. قالا: ستكون الظروف عسيرة و«اسير الضاحية»؟ ما قصة أسير الضاحية؟ الذي دخل التاريخ يبدأ مستقبلاً في المفاوضات؟ السواتر مسوّاة بالأرض. المدينة مفتوحة. الطرق مفتوحة. البحر مفتوح. جنود اميركيون متدرعون متجهمون. لماذا تولد لديّ احساس بأن كل الجنود الاميركيين ذوو نظارات طبية؟ جنود فرنسيون أقل كلفة واوضح حرفة. ينبغي عليك ان تقفز من الشاحنة العالية بخفة الفدائي. ألست ترتدي بدلته، وتعتمر كوفيته؟ في المرفأ جنود لبنانيون في غاية الاناقة. تسجيل اسماء المغادرين. حقيقة؟ البحر وحده هو الحقيقي. الناس والوجوه والأشياء في حالة من ذهول التحول. «شمس المتوسط» تنتظر. ضعوا اسلحتكم هنا. في هذه الحاوية. الباريتا قصير، وما هو بالحمل العسير. «شمس المتوسط» فارهة. والبحر وحده الحقيقي.

●

وقف لاطلاق النار. نحن في «حي السلم»، بيننا وبين الاسرائيليين بضع شجرات رمان. قبل أيام، وفي الحي نفسه، كان الاطلاق غزيراً، والطائرات تهدر في سماوات صافية منطلقة نحو أهدافها، نحن. بيننا وبين الاسرائيليين جدار يمتد طويلاً. خلفه، وفي الأرض الحرام دبابة اسرائيلية معطوبة. أراد الاسرائيليون سحبها فواجهتهم نيران قنص. عليك ان تنحني وأنت تركض لصق الجدار. ان رفعت رأسك فقدته. في الملجأ كان مقاتلون وضباط. لماذا جئتم في هذا اليوم؟ انه من أشد الأيام ضراوة. نحن هنا قوة تعويق مهمتنا الاشتباك مع العدو وتأخير تقدمه

ألم تروا الدبابة في المنطقة الحرام؟ مشكلة مقاتلينا انهم يتمشون في الطريق كأنهم في نزهة. الاشجار مغرية. لكن ماذا سيحدث لو داعبتهم طائرة اسرائيلية؟ يا ملازم... قل لهم يستتروا. بيوت الحي مثل تلك البيوت المتناثرة في غوطة دمشق. خفيضة ذات نبات متسلق وظلال شجر ورائحة ربيع دائم. أهل الحي هجروه منذ أمس من خطوط التماس، وجاء هؤلاء المقاتلون المترحلون ذوو الاسلحة الخفيفة. المدافع؟ كيف نأتي بالمدافع إلى هذا المكان؟ ألست ترى طائراتهم تمشط حتى سيارات الصليب الأحمر؟ ولو افترضنا اننا جئنا بمدفع.. اتعرف ما سيحل بالجميع؟ الستم جئتم من «الطريق الجديدة».. ألم ترو ما فعلته الطائرات بالعمارة الملاصقة لمطعم «التوليدو»؟ ثم.. دعني اسألك: اهذه البيوت من املاك ابي ليحق لي ان اسكنها اليوم واهدمها غداً؟ عجيب! هل قطعت الطريق كله من «البربير» إلى هنا، متعرضاً للموت، ومعرضاً السيارة وهذا السائق المسكين للقصف.. هل قطعت الطريق كله لتسألني عن المدافع؟ عجيب والله! أكلُ ما تعرفه عن

العسكرية هو ان تشتم العسكر؟ ضحك الملازم ناصر. ياعمي خلصنا. غلط وسأل سؤالاً. بكرة يعرف كل شيء. تشربون شاياً؟ تأكلون؟ مقلوبة ولبن. هدرت الطائرات منخفضة مزمجرة كأنها ستدخل من باب الملجأ. لا تخف... انها متجهة صوب الجبل. السائق يتعجل العودة. القصف يشتد. من البعيد اصوات انفجارات مكتومة. والمقلوبة لم تأت بعد، وكذلك الشاي واللبن.

كان هذا قبل أيام. أما اليوم فنحن في وقف اطلاق النار. بيننا وبين الاسرائيليين بضع شجرات رمان. الفلسطينيون انسحبوا من هذه المواقع بعد ان بدأت السفن تأخذهم إلى البحر. اختفت الجبهات والفصائل باعلامها وشعاراتها وملصقاتها ووجوه شهدائها. المقاتلون الشتامون الضاحكون انسحبوا وأخذوا معهم سجائرهم وعدة الشاي. ونحن الآن بين فتيان ملتحين هادئين. يجلسون طويلاً إلى اسلحتهم ويتأملون حتى كأنهم يسبحون. أشار أحدهم بيده إلى ثالث شجرة: لا تقطع رماناً من تلك الشجرة.. ثمة جندي اسرائيلي وراءها. سألنا آخر: من أين أنتم؟ اجبناه. والمفاجأة العجيبة: لا نريدكم.. لا نريد أي واحد منكم. اتركوا بلدنا. نحن نتكفل باليهود. الفرنسي تساءل عما قاله الفتى الملتحي: ابتسمنا. سلّمنا على الفتى: نحن راحلون بعد يومين. أجاب: مع السلامة. الشجرة الثالثة ما تزال كما كانت، مثقلة بالرمان الاخضر، ووراءها جندي اسرائيلي.

●

زحف المخيم على «الحمرا». احتلها. الفنادق ودور السينما والمعاهد امتلأت بنساء واطفال على غير شاكلة من عرفتهم. شارع الحمرا ومتفرعاته سوقٌ شعبية هائلة. ملابس. فول. فلافل. احذية. حقائب حقائب حقائب حتى آخر العالم. الصرافون في بهجة عيد. والمقاتلون يذرعون الشارع جيئة وذهاباً يشترون ملابس مدنية سوف يلبسونها يومين فقط كنت في شقة مقابل سفارة المانيا الغربية برأس بيروت. شقة في الطابق الثامن. من الشرفة كنت أرى البارجة الاسرائيلية المموهة حتى لتكاد تذوب في لون البحر. بدأ القصف ينال الحمرا. المشهد المروع لعمارة الصنائع. كنت اقطع الشارع ركضاً حين انفجرت قذيفة على مبعدة خمسة عشر متراً. في مدخل مستشفى الجامعة الاميركية ادخلوا قتيلاً محمولاً على نقالة... كان رأسه مفتوحاً، ومخه يتناثر على الأرضية. راقبت ارضية المدخل. عبرت النقالة، وظللت اراقب نثير المخ. الناس يدخلون ويخرجون. احذيتهم تمسح شيئاً لم ينتبهوا اليه. وتظل تمسح. بعد دقائق ذهب كل اثر. احسست بما يشبه الدوار. قتلى ما قبل الرحيل. ساذهب إلى شاتيلا. مركز المراقبة الاسرائيلي غير بعيد. عليك ان تسير لصق الجدار أيضاً. كانت ريح خفيفة تزوبع اوراقاً وصوراً. اطلال المخيم. لم يبق حجر على حجر. أي نظام متكامل اتخذه القصف كي يحول المخيم

فعلاً إلى اطلال؟ لا أحد في المخيم. فجأة رأيت ثلاثة فتيان داخل حجرة فاغرة، ماذا تفعلون هنا؟ نبحث عن شهاداتنا المدرسية. هذا بيتكم اذن؟ سرت وأنا انظر إلى الأرض كأني ابحث مثلهم. عمّ أبحث؟ وتمسك يدي بالصورة. صورة فوتوغرافية متقنة. صورة استوديو. كان فيها عائلة فلسطينية كاملة. اثنا عشر شخصاً. الأب. الأم الابناء. البنات. كلهم جالس في ثبات ينظر إلى الكاميرا بدون ان تطرف عيناه. كيف اجتمعت الاسرة كلها كي تلم شتاتها في هذه الصورة الثخينة؟ من يدري. . . ربما كان الأب يعمل في الخليج. ربما كان الابناء متوزعين على قواعد متباعدة. والبنات؟ أكن مع امهن في شاتيلا أم مع ابيهن وجئن يزرنها؟ كيف دخلوا الاستوديو؟ من تقدم؟ من افسح المدخل لسواه؟ كيف عدّلت الأم جلستها أمام الكاميرا؟ كم نسخة من الصورة ارسلوا إلى مدن بعيدة؟ إلى اصدقاء واقرباء؟ وهذه الصورة بالذات. هذه الصورة التي القاها طيران العدو بين الركام. . من كان يحتفظ بها؟ احتفظت بالصورة دقائق، ثم اعدتها إلى مكانها بين الركام. لمن احملها لو أخذتها؟ الن تعاتبني عيونها الاربع والعشرون؟ مخيم شاتيلا زحف إلى «الحمرا» لكنه سيعود. قالوا: سنعود. ان بقينا هنا فسوف نمنع من العودة. يجب ان نبني بيوتنا ال مهدمة. تعرف؟ أنا هنا منذ ٤٨، اعرف كل بيت في المخيم. كل اسرة. من أين جاؤوا من فلسطين. قراهم. مدنهم. اعرف متى بني كل بيت في المخيم. متى ولد الاولاد. متى تزوجوا. انا هنا منذ ٤٨، لم أعرف غير المخيم واهله. إلى أين اذهب؟ لا. لا تذهب في هذا الزقاق. انه مسدود. لقد انهار بيت وأغلق الزقاق. اذهب من هناك مع السلامة.

●

كانت دبابات سورية ثلاث في مدخل فردان إلى جانب الطريق ومدافعها مصوبة نحو البحر. اجتزناها بالسيارة الصغيرة العتيقة، ودخلنا كورنيش المزرعة لننحدر إلى الرملة البيضاء. المدفع الذي كنا نعهده يواجه البحر رأيناه انقاضاً بعد ان قصفه الطيران الاسرائيلي. في منحدر الرملة البيضاء، وعند المطعم الصيني، قبل عمارة الشاطىء الذهبي، اوقفنا جندي سوري: إلى أين تذهبان في مثل هذا اليوم؟ اخبرناه اننا نقصد شقة في الطابق السابع لنأخذ اغراضاً لنا هناك. سمح لنا الجندي بمتابعة السير. اوقفنا السيارة عند باب العمارة. خرج جنود سوريون: ماذا تفعلان هنا؟ الحالة خطرة، والقصف من البحر مستمر. أي طابق؟ الطابق السابع؟ هذا جنون. ألا تسمعان القصف؟ في تلك اللحظة بالضبط هزّ انفجار هائل أركان العمارة. احتمينا بالمدخل، تحت السلّم. هدأت الحالة قليلاً. كان عدد من الجنود السوريين يرتاحون على الارض. احدهم يدندن على العود اغنية شعبية بينما ينصت الآخرون صامتين مجهدين. ما العمل اذن؟ قالت فاطمة: يجب ان اصعد إلى الشقة لاجلب اغراضي، فقد لا أرى شقتي مرة أخرى. حين بلغنا

شقـة الطابق السابع (المصعد معطل دائماً) توالت انفجارات القذائف متسارعة الوتيرة. احنطت فاطمة غرصا من هنا، وآحر من هناك... اثوابا وكتابين. كان في الغرفة قنينة نبيذ. تركنا القنينة تتعتق وهبطنا مسرعين. جنود آخرون كانوا يتركون غرفهم ويهبطون إلى اسفل العمارة. ودعنا الجنود ومغنيهم وعدنا مسرعين إلى فردان. كانت لحية حيدر حيدر تزداد كثافة وشيباً، بينما يزداد هو نحولاً وقلقاً. رأيت سعد الله ونوس قرب صحيفة «السفير». قال انه سيغادر اليوم. سنغادر كلنا. «المودكا» ما تزال مفتوحة، تقدم خدماتها إلى زبائن متوحشين متقايسة بزبائنها القدامى. ايوب ينشر حكمته العجيبة. والسماء التي تصفو باستمرار، تقدم، بامتيار، مشهد الطائرات الاسرائيلية وهي تحلق منخفضة. واتذكر ذلك الفتى اللبناني، رامي الآر. بي. جي، الذي أراد ان يطلع من موقعه في القبو، إلى سطح العمارة، كي يسقط طائرة بسلاحه المتطور... امسك به مسؤول الموقع: ايها الأخرق، اتريد ان يدفنونا تحت انقاض العمارة؟

الاداعة التي طلت تردد: وحق الله ما نرحل. هده الاذاعة صمتت. و «الحرية» اصدرت عددها الأخير.

و «شمس المتوسط» تنتظر.

ملاحظة: انها اغنية مشهورة تغنى في المدارس والاحتفالات تعكس حب الشعب السويدي للحرية والسلام.



تظاهرة أولى*

● كانت البصرة من أكثر مدن العراق استقراراً، حتى في الفترات التي كان يتناوب فيها الغزاة على العراق، ولهذا يمكن القول بوجود استمرارية ثقافية فيها. بل إنها في وقت ما صارت مركزاً فكرياً لبلدان الجزيرة والخليج، يأتي الطلبة من هناك ليدرسوا على أئمتها ويذهب رجال ثقافتها إلى تلك البلدان، ليدرّسوا وينشئوا المدارس. وكانت في البصرة أسر اهتمت برعاية العلم والتعليم، كما ان الموقع الجغرافي للمدينة جعلها أكثر انفتاحاً على ما في المنطقة من تيارات وأفكار، واذا حاولت ان اضرب مثلاً هنا، فبامكاني اختيار جيكور: ان جيكور، شأنها شأن مناطق كثيرة في البصرة، هي ذات ملكية صغيرة للأرض، وثمة مساواتية كامنة يلحظها المرء في علائق الناس، وسلوكهم، وقد فعلت الحركة العلمانية فعلها في جيكور بخاصة. ومن جيكور خرج زعماء سياسيون ومثقفون، وشعراء، ومنها أيضاً كان يتم الاعداد للتظاهرات الوطنية واليسارية، وكان لطلبتها دور في انتشار الافكار الجديدة والحركات العامة، كما كان في جيكور ما يمكن تعميمه بصورة ما على البصرة، كان فيها تسامح وإقرار بالاختلاف في وجهات النظر وتقدير للثقافة وأهلها، لذا يمكن القول إن أرض البصرة كانت صالحة للاثبات في مجالات الفكر والثقافة، ولا بأس من إدخال الطبيعة في المشهد: فلا غرو ان البصرة من أجمل المدن، بحيث تهيء تنوعاً في المنظور وقرباً من الأرض والأشياء، إلى جانب ما تتسم به المدينة وأهلها من دعة وتواضع وطيبة. التظاهرة الأولى التي اشتركت فيها، والتي تعرضت لهجوم الشرطة كانت في أبي الخصيب. وإلى أبي الخصيب وبساتينها كان يلجأ السياسيون المطاردون. وأتذكر ان بيتنا، هناك، صار في فترة حرجة شبه معبر للملاحقين. كانو يبيتون عندنا ليلة ويذهبون في الفجر، إلى أين؟ لست أدري. وكنا فقراء لا نستطيع ان نقدم لهم سوى الخبز والتمر. بعضهم كان يخلّف أحياناً شيئاً وراءه، كتاباً، أو صحيفة سرية، أو حكايات عن عالم يبدو عجيباً بالنسبة إليّ. وما زلت حتى الآن أتساءل إلى أين كان يمضي هؤلاء، أين هم الآن، وأين أحلامهم؟

* جزء من حوار اجراه مع الشاعر هاشم شفيق ـ نشر في «الكرمل» ٢٣/ ١٩٨٧



«افكار بصوت هادىء» لـ سعدي يوسف »

محمد نوري الحسيني

سعدي يوسف المولود سنة ١٩٣٤ في ابي الخصيب (البصرة) بالعراق، كانت له اقاماته على امتداد الوطن العربي : العراق، الكويت، سوريا، لبنان، الجزائر، عدن، وله اسهاماته في الثقافة العربية منها سبع عشرة مجموعة شعرية، اختط الشاعر خلالها لنفسه مساراً بالغ التميز ولا زال دائباً في الاشتغال سعياً إلى القصيدة الجديدة. الشاعر «سعدي يوسف» ناثر بارع أيضاً، ولعل ترحاله وطوافه المستمر وقربه من مظان الثقافة وأسرارها وقربه من تجارب نضالية عديدة منها بيروت الحصار وعدن ـ التجربة الاشتراكية وما رافق هذه التجارب من فعاليات ثقافية، لعل هذا يعطي لكلام «سعدي» المنشور عَبَق الخبرة ونكهةَ الفنان المخضوم الذي يشهد نتاجه وهو ينضج على نيران هادئة. في «أفكار بصوت هادىء» الصادر مؤخراً عن الابحاث العربية بيروت، وخلال ما ينوف على الخمسين مقالاً، يقدم الشاعر لنا المشهد النثري الذي عايشه وكان في الخضم منه وقد تم توزيع المقالات على عناوين رئيسة موحية :

١ ـ في إلعمل الثقافي والكتابات تحت العنوان هذا سجالات في شؤون الثقافة العربية والمثقف العربي ومعاناته التي تبدأ من لحظة الكتابة حتى مشروع الحرية الكبير وينقل عن غالب هلسا :

«ان الأديب العربي يعلم الآن انه اذا لم يكتب ضمن مواصفات معينة فان ثلاثة ارباع

السوق العربية مغلق أمامه . . » ويطرح قيام جبهة ثقافية تدافع عن حقوق المثقف وتدعو إلى تكريس العقلانية والديمقراطية .

٢ ـ قابضـون على الجمـر: ينقل في هذا الجانب ذكرياته عن الحصار البيروتي المشرِّف، فقد كان مع ثلة من الأدباء العرب الذين صبروا وصابروا حينذاك، والنثر هنا ساخن كسخونة الجمر في راحات القابضين عليه والقامات عالية يقول: «في ١٩٨٣ وفي صباح الرابع من كانون اول اشتركت حوالي ثلاثين طائرة حربية اميركية منطلقة من حاملتي الطائرات كنيدي واندبندانس، في غارات واسعة على المواقع السورية بكفر سلوان وفالوغا وحمانا وضهر البيدر وصوفر وجبل الكنيسة ويتمكن الجيش العربي السوري من اسقاط ثلاث طائـرات وهنـاك أيضـاً طيار اميركي أسير. . . » ونقتطف له ايضاً «صارت الفئران المتضخمـة تدخل من النوافذ هكذا اخبرني مصطفى الحلاج «الرسام الملتحي» الذي اضطر إلى إعالة هر شهير حفاظاً على هناءة يومه . . زرت ادونيس كان متألماً جداً قبل يومين اصابت قذيفة الطابق الرابع من العمارة التي يسكنها. خالدة سعيد صامتة بشكل مذهل» .

٣ ـ أماكن: هو أكثر الشعراء العرب تنقلاً وشغفاً بالتجوال وان كان هذا قسرياً بالنسبة للعراقيين «القابضين على الجمر» الأمكنة التي حضرها كثيرة وهو لا يخرج منها إلا بثراء روحي لا يقدر، ان لم يكن بقصيدة وشهيرة أيضاً، شكلت منعطفاً في حياته الشعرية كما في حاله مع قصيدة «البحث عن خان ايوب» فهي دار دمشقية عتيقة، زارها الشاعر عام ١٩٥٧ وأقـام فيهـا وقتـذاك شهـوراً مع أصحاب له، فيحدد موقعها بانها خلف الجامع الاموي، بـ«حـريقة الميدان، حيث تتشابك الازقة، وتتلوى، وتضيق، وتتسع. الباب خشب والعتبة رخام. . . » وفي مهرجان الشعر العربي بدمشق أواخر ١٩٧١ يحضر الشاعر ولا حرف لديه فيزور الميدان أولاً ويدخل الجامع الاموي «وارتحت حيناً، تحت الثريات الخفيضـة والسماء المسكونة ومنه انطلقت باحثاً عن تلك النار الدمشقية. . تلك الليلة سألني صديق ألمْ تكتب شيئاً قلت: بداية لا أعرف كيف تمتد تساءلت حين دخلت المدينة /عن خان ايوب/ ما دلني أحد/ فالتففت ببعضي ونمت/ . . انها المرة الاولى التي سميت فيها تلك الدار الدمشقية العزيزة «خان ايوب» .

بمثل هذه الروح المترعة بالكشف واللوعة والعناد، لا يدع «سعدي» الأمكنة إلا وقد أسرت له سرها ومنحته مفاتيحها، هكذا هو في دمشق وعدن واديس ابابا وموسكو وصنعاء، حيث القات: «في صنعاء وبعد غداء دسم لذيذ في «دار الحمد» قيل لنا اننا ماضون إلى «مقيل» جميل. والقات في صنعاء «واجب» اجتماعي، جزء من طقوس حياة يومية عبر ستة قرون منذ أن دخلت هذه النبتة الشيطانية أرض اليمن» .

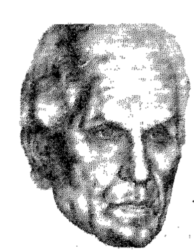
٤ ـ محـاولات في مذاق النص: قراءات في الشعـر والـرواية، لا تدعي النقـد، بقـدر ما

تقول انطباعات هي في الأغلب حميمية وتَظهر اعجاب الشاعر بكتابات اصحابه في الفن بدءاً من جراهام غرين الروائي البريطاني الذي «امضى حياته مسافراً إلى مناطق الاضطراب في العالم باحثاً عن ارضية لرواياته» ومروراً بمحمود درويش ومحمد بنيس وأمل دنقل الذي يسميه بـ «أمل» الشعر المصري. . أمل دنقل. . كان مكتفياً بنقائه، عازفاً عن الكرنفال، مطلقاً كلمته حرة، حقيقية، عميقة الجذور، ان قصيدته «لا تصالح» صيحة مناضلة في زمن-صعب» وحين يقرأ سعدي مجموعة شعرية لـ وليد خزندار يصفها بقوله: «الضجيج حرفة لها أهل وساحة وأسواق. أما الصمت فما أهله بالكثر. وليس للصمت من ساحة. ليس للصمت من أسواق أيضاً، اذ لا باعة ولا شراة» كان هذا في مذاقه للنص وفي الحديث عن الشعر وأهله. . .

٥ ـ رائحة معتقة: سفر في التراث، يقف متأملاً في الشواخص المنيرة والصوى المضيئة، ممجداً الحي من الأرث، الذي يغرف من نبع ازلي، يتشارك فيه البشر من مختلف العصور ومن أبرز الروائح المعتقة التي تهبّ علينا، عبقة من هذه الفقرة هو وقفته البديعة في مقام «محيي الدين بن عربي» بادئاً بتذكار شعره الشهير:

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة   فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف   وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهتْ   ركائبه فالحب ديني وايماني

وهدياً بنداء الشيخ «اتبعوني يحببكم الله «يصعد» من الميدان الدمشقي إلى هذا السفح الداني من قاسيون. . حيث الحي الشعبي. . الحي الذي يحمل اسم الشاعر منذ أكثر من سبعة قرون، ويضم رفاته، ويحتفظ له بالنبضة الناصعة للولي أو القدّيس ويحفظه، كما يُحفظ القلب، بين الستائر الخضر والبخور النافذ، والغلائل البيض للصبايا المتعبدات، جوار الضريح. . الوقت صباح، تقطعُ الباحة وتدلف إلى المصلى الواسع لتجد نفسك وحيداً، مع المنبر والثريات الدانية وخزانات الكتاب العزيز الصغير المبثوثة عند الجدران. . تلوذ بزاوية وتتناول «تفسير الجلالين» وتقرأ في سورة النحل «أفمن يخلق كمن لا يخلق. . .» الآية. . أجل ان من يخلق ليس كمن لا يخلق، فالخلق كان أبداً معاناة واحتراقاً بالنار التي اقتنصها «بروميثيوس». . «سعدي» في نثره، كما في شعره ينتمي إلى شجرة الابداع الوارفة. . انه حفيد أولئك المبدعين الاوائل، الذين حفظوا نبض القلب في اوراق البردي ونحتوه في جذوع الشجر.





يوسف ادريس... «الحكواتي» المبدع!

ع. ن

خير ما ينطبق على أدب يوسف إدريس هو ما قاله ناقد عربي قديم بأن «الشعر تكثيف أحاديث المارّة» وبتحوير بسيط، أي باستبدال كلمة «الشعر» بـ «القصة» فان قصة يوسف ادريس هي تكثيف حاديث المارّة.

تسببت لغة يوسف ادريس النحوية باثارة الكثير من الاسئلة حول لا أباليته بالنحو واصراره على اخطائه اللغوية، مما جعل الاستاذ د. طه حسين في تقديمه للقراء ـ كتاب يوسف ادريس «جمهورية فرحات» ، ان يقول: «وما أكثر ما يخطىء الشباب من أدبائنا حين يظنون ان تصوير الواقع من الحياة يفرض عليهم ان يُنطقوا الناس في الكتب كما تجري به السنتهم في أحاديث الشوارع والأندية. فأخصّ ما يمتاز به الفن الرفيع هو أنه يرقى بالواقع من الحياة درجاتٍ دون ان يقصِّر في أدائه وتصويره» ويجد القاريء مقال الدكتور طه حسين في مكان آخر من مجلتنا ـ الكاتب.

. . . ولكن ما الذي يَجعل يوسف ادريس على هذا الأصرار؟؟

باعتقادي ان اصراره جزء من تربيته التي دفعته لتناول شخصياته وعلاقاتها ببعضها من جهة واستيرواحها كحالات طيّعة لكاتب «شعبي» كيوسف ادريس.

إن انتماءه للحارة الشعبية، للناس الذين اغوتهم العاصمة واستجلبتهم من الريف، بتلك الاضواء المبهرة والشقق الفاخرة والفرص الوهمية لاستعادة شخصياتهم المنهوبة، أملت عليه تلك اللغة الهجينة والرضا بها كوسيلة تعبير مناسبة. فليس صعباً على مبدع كيوسف ادريس ان يتعلم أساسيات اللغة بعد قصة أو قصتين من منشوراته.

قال انه يضيق ذرعاً بسيبويه والاصمعي والثعالبي وأمثالهم، ومنذ مجموعته الاولى «أرخص ليالي» أصرّ يوسف ادريس على خطأ عنوانها بدلاً من صحيحه «أرخص ليالٍ» وهذا له دلالته على انه أرادها ان تلفظ بالعامية، وهو الكاتب الذي ليس صعباً عليه ان

يصححها!

ليست لغة يوسف المضطربة نحوياً ما يدلل على شعبيته، إنما مناخ قصصه وشخصياته وما يجري لأناسه في الغيطان ومحطات القطار ومصائر الناس البسطاء الذين ما ان يدخلوا القاهرة حتى يُقفل عليهم بشروط المدينة الصعبة، اخلاقياً واستهلاكياً وسياسياً.

يوسف ادريس القصصي، الذي لا يمكن الطعن بابداعه، يمكن الاشارة إلى تخبّطه وتناقضاته ونزواته. لكن الأمر على هذا الصعيد يبقى نسبياً... فليس من مبدع يمكن لنا ان نحسبه بالمسطرة، وحتى اذا حسبناه كذلك، بقسوة غير مبررة نقدياً، فله ان يخرج على حساب السنتيمترات العربية... وبمناسبة هذا الكلام - بصراحة - هو ما أخذه المعجبون العراقيون بأدبه على مناوراته مع نظام بغداد الذي فاز باحدى أكبر جوائزه: جائزة صدام حسين للآداب (!)، ونحن هنا لا نبرر له انخداعه!

هل يفتقر أديب، كيوسف ادريس إلى المنهج؟

... أي منهج؟

إن منهج يوسف ادريس كمبدع واضح ولا يحتاج إلى استئناف فهو حكواتي مبدع، بامتياز، ولولا منهجه الابداعي كقاص وككاتب لما استطاع ان يؤثر بحياتنا الاجتماعية والثقافية على هذا القدر الكبير، ذلك ان هناك اجماعاً شعبياً، قبل ان يكون نقدياً، على سعة المساحة التي غطتها قدراته المتنوعة: القصة القصيرة والمسرحية والرواية وأخيراً المقالة الصحفية. ومنذ مجموعته الاولى «أرخص ليالي» - عام ١٩٥٤، وبسرعة قياسية اصبح اسم يوسف ادريس متداولاً وتناولت مجالس الثقافة واقلام النقاد مجموعته باعجاب، غير ان وهج الشهرة الخاطف لم يدم طويلاً اذ سرعان ما أعتم في سجن (أوردي ليمان) أبو زعبل بتهمة ارتباط يوسف ادريس بـ «حدتو» (الحركة الديمقراطية للتحرير الوطني)، لكن هذا الارتباط - على ذمة الناقد المعروف رجاء النقاش - لم يتعد اقتراب الكاتب من الماركسية آنذاك، إن هذا الأمر متروك لمؤرخي الحياة الاجتماعية والسياسية في مصر. وما يعنينا هنا - وبهذه العجالة - هو ان الشعب المصري وجد صورته في أجمل ما انتجه يوسف ادريس، الكاتب الذي عبر عن الشخصية المصرية الكادحة، الطيبة، الساذجة، القادمة من الريف، المسحوقة تحت احذية المدينة الانيقة.

وفي معرض ردّه على متهميه ومنتقديه بسبب عزوفه عن الأدب ولجوئه إلى المقالة الصحفية قال: «... يا ناس... اتريدون من رجل يرى الحريق يلتهم بيته أن يترك اطفاءه للآخرين وان ينتحي ركناً من هذا البيت المحروق ويكتب قصة أو رواية عن هذا الحريق الذي بدأ يلتهم جلبابه؟ إني ادافع في مقالاتي تلك عن وجودي اليومي، وعن كل قيمي وكل ما أومن به، واذود عن عرضي وعرضكم، وشرفي وشرفكم، ولا أفعل هذا خارج دائرة

الكتابة».

إن حياة ونتاج ومواقف يوسف ادريس، كما هي العادة مع الكثيرين من أمثاله، مثيرة للالتباس والاسئلة والغموض وتدخلنا في التناقض.

إن طبيعة المجتمع العربي وسؤاله الحضاري المرتبك يجد انعكاساته على نتاج ابنائه من المثقفين والمبدعين رغم ما لهؤلاء من دور يتعدى حدود التلّقي إلى آفاق التغيير، أما التقلبات السياسية فهي مجرد محطات في طريق الابداع الطويل والشاق، والنتيجة النهائية بالنسبة لنا نحن القرّاء هي مدى أصالة الكاتب ويقظة ضميره الحر وإحساسه بالعدالة، وما يضيفه نوعياً ومعرفياً إلى وعي الناس وكمساهمة في تنوير الحياة وتطوير الوضع البشري والعناية بالانسان وجماله.

كم من كاتب «عقائدي» لم يبلُغ، ولم يبلِّغ. رسالة انسانية ابداعية، وكم ارتكب مثل هذا الكاتب من جرائم بحق قيم الجمال والحرية. إن الأدب السيء يعرقل مسيرة النضال على حد تعبير غابريل غارسيا ماركيز، لكن كلامنا هذا لا ينفي ان يكون الكاتب العقائدي مبدعاً كبيراً أيضاً. والتاريخ يزخر بأمثلة عديدة، غير اننا نشير إلى الوجه الواحد للأدب ومدى ضرره على ذوق الناس وتطور الابداع.

* * *

حملت، مرة، مجلة «البديل» وذهبت على موعد مع يوسف ادريس الذي كان حاضراً أحد المهرجانات المسرحية. وفي معرض حديثنا، معتقداً بأنني سوف أُسعده، قلت: أنت تشيخوفنا يا دكتور يوسف. وبدلاً من أي تعبير عن امتنان أو مجاملة امتعض الدكتور يوسف، وعلّق باقتضاب: تشيخوف في زمنه الذي انتهى، وأنا في زمني الذي لم ينتهي بعد، وعلى هذا فانني تجاوزته!

وعندما انتقل بنا الحديث عن العراق والمنفى والمثقفين العراقيين المنفيين قال: لنُظم زائلة والشعب هو الباقي ومبدعوه الحقيقيون هم الباقون. كان ذلك في أوج تعاطيه مع نظام بغداد، وذلك وجه صغير من أوجه التباسات الكاتب الذي أثار ما أثار من المعارك الأدبية والسياسية، شغباً وصراعاً ونقاشاً.

* * *

قال مواطنه الروائي الحائز على نوبل للآداب نجيب محفوظ بعد رحيل يوسف ادريس: «. . . إن العبرة، بالنسبة للكاتب، هي بالذي فعل عندما كان مبدعاً. . . هناك كتّاب لم يعش ابداعهم سوى بضع سنين، ولكنه أجمل وأثمن من كاتب ظل يكتب لأكثر من أربعين سنة».

آب/ ١٩٩١



مقدمة *

بقلم : الدكتور طه حسين

هذا كتاب ممتع اقدمه للقراء سعيداً بتقديمه أعظم السعادة وأقواها، لأن كاتبه من هؤلاء الشباب الذين تعقد بهم الآمال وتناط بهم الأماني ليضيفوا إلى رقى مصر رقياً وإلى ازدهار الحياة العقلية فيها ازدهاراً.

وكان كل شيء في حياة هذا الشاب الأديب جديراً أن يشغله عن هذا الجهد الأدبي وأمثاله بأشياء أخرى، ليست أقل من الأدب نفعاً للناس وامتاعاً للقلب والعقل.

فهو قد تهيأ في أول شبابه لدراسة الطب، ثم جد في درسه وتحصيله حتى تخرج وأصبح طبيباً. ولكن للأدب استئثاراً ببعض النفوس وسلطاناً على بعض القلوب لا يستطيع مقاومته والامتناع عليه إلا الأقلون.

وقد كلف هذا الشاب بالقراءة، ثم احس الرغبة في الكتابة، فجرب نفسه فيها ألواناً من التجربة. ثم لم يملك ان يمضي في تجاربه تلك، واذا هو أمام كتاب يريد أن يخرج للناس فيخرجه على استحياء. ويقرأ الناس كتابه الأول «أرخص ليالي» فيرضون عنه ويستمتعون به ويقرأه الناقدون للآثار الأدبية فيعجبون له ويعجبون به، ويشجعون صاحبه على المضي في الانتاج، فيمضي فيه ويظهر هذا الكتاب.

واقرأه فاجد فيه من المتعة والقوة ودقة الحس ورقة الذوق وصدق الملاحظة وبراعة الأداء مثل ما وجدت في كتابه الأول على تعمق للحياة وفقه لدقائقها وتسجيل صادق صارم لما يحدث فيها من جلائل الاحداث وعظائمها لا يظهر في ذلك تردد ولا تكلف وانما هو ارسال الطبع على سجيته كان الكاتب قد خلق ليكون قاصاً أو كأنه قد جرب القصص حتى استقصى خصائصه ونفذ إلى اسراره وعرف كيف يحاوله فيبرع فيه. وكنا نعجب فيما مضى بطائفة من الكتّاب المجودين في الغرب لم يتهيأوا للأدب عن عمد ولم يجعلوه لحياتهم غاية

* هي المقدمة التي كتبها د طه حسين لكتاب يوسف ادريس القصصي «جمهورية فرحات».

وانما انفقوا جهدهم كله في درس الطب والتخصص فيه وفرض الأدب نفسه عليهم فرضا. فبرزوا فيه أي تبريز. ثم رأينا هذه الظاهرة نفسها تمس بعض أطبائنا فينشأ منهم شاعر بارع كالدكتور ابراهيم ناجي رحمه الله وينشأ منهم الكاتب المتفوق الذي يتاح له من صفاء الذوق ونفاذ البصيرة وسعة العلم والفقه بأسرار الحياة فيخرج في اللغة العربية كتباً أقل ما توصف به انها تجمع بين الروعة والمتعة وتغنى حاجتنا إلى القراءة التي تلذ القلب والذوق والعقل جميعاً كالدكتور محمد كامل حسين.

وكاتبنا هذا يمضي في هذه الطريق ثابت الخطو، وما أشك في انه سيبلغ من الاصالة والرصانة والتفوق ما بلغ الذين سبقوه.

وهذه ظاهرة جديدة في أدبنا العربي الحديث، ان دلت على شيء فانما تدل على ان سلطان الأدب العربي ما زال قوياً، وقدرته على الاستئثار بالقلوب والنفوس ما زالت نافذة وعلى أن جذوة الأدب يذكيها ويقويها ان تجاور العلم في بعض القلوب والعقول فتستمد منه قوة وايدا ومضاء قلما يظفر بها الذين يفرغون لتنميق الكلام ويصرفون عن حقائق العلم صرفاً. وأي فنون العلم أجدر ان يفقه الناس بالحياة ومشكلاتها وما تكلف الأحياء من ألوان العناء من الطب. فالطبيب يخالط الانسان مخالطة لا تتاح لغيره من أصحاب العلم. يخالطه صحيحاً، ويخالطه عليلاً ويبلو ألم جسمه وآلام نفسه أصدق البلاء واعمقه ويفتح له ذلك أبواباً من التفكير تنتهي به أحياناً إلى الفلسفة العليا، وتنتهي به أحياناً أخرى إلى الأدب الرفيع الذي يحسن فيه الانسجام بين الحس الدقيق والشعور الرقيق والذوق المرهف والعقل المفكر. وتتيح له ذلك كله قدرة على التصوير الفني لحياة الناس وما يزدحم فيها من الألم والأمل، ومن السخط والرضى، ومن الحزن والسرور، قلما يتاح لغيره من الناس.

وربما منحه قدرة أخرى على فهم الملكات الانسانية ورد أعماله ومما يختلف عليه من الاحداث وما يكون لهذه الاحداث من تأثير فيه إلى أصولها ومصادرها التي انشأتها وصورتها تصويراً لا يحسن فهمه إلا من يعرف دقائق النفس والجسم جميعاً، وما يكون بينهما من توافق أحياناً ومن تخالف أحياناً أخرى. واذا أتيح الفن الأدبي للطبيب امتاز أدبه بالدقة والصدق وتجنب الألفاظ العامة المبهمة والعبارات التي تبهر الاسماع ولكنها لا تصل إلى القلوب ولا تحصل في العقول شيئاً.

وقد أتيح لكاتبنا من هذا كله الشيء الكثير فهو لا يحب التزيد في القول ولا يألف تبهرج الكلام ولن تجد عنده كلمة قلقة عن موضعها أو عبارة إلا وهي تؤدي بالضبط ما أرادها على تأديته من المعاني.

هو طبيب حين يكتب يضع يده على معناه كما يضع يده على ما يشخص من العلل

حين يفحص مرضاه، وينقل إلينا خواطره كما يصور أوصاف العلل وكما يصف لها ما ينبغي من الدواء.

ولـه بعـد ذلك خصلة تميزه من غيره من كتاب الشباب فالميل إلى تصوير الحياة الاجتماعية ظاهر عند ادبائنا من الشباب تختلف حظوظهم منه ويختلف توفيقهم فيه. ولكن كاتبنا لا يميل إلى تصوير الحياة الاجتماعية وما فيها من الآمال والآلام فحسب، ولكنه يحسن تصوير الجماعات ويعرض عليك صورها كأنك تراها.

فلم أر تصـويراً لشارع أو ميدان تختلط فيه جماعات الناس على تباين أشكالهم وأعمالهم وألوان نشاطهم كما أرى عند هذا الكاتب الشاب.

ثم لا يمنعه ذلك من ان يفرغ لفرد فيحسن فهمه وتصويره في دقة نادرة، كل هذه الخصال تبشر بأن كاتبنا جديراً أن يبلغ من فنه ما يريد، ولكني أتمنى عليه شيئين أحدهما ألا ينقاد للأدب ولا يمكنه من ان يشغله عن الطب أو يستأثر بحياته كلها. فالأدب يجود ويرقى ويمتاز بمقدار ما يجد عند الأديب من مقاومة له وامتناع على مغرياته وانصراف عنه بين حين وحين...

وما أشك في ان عنايته بالطب حين تتصل وتقوى ستمنح أدبه غزارة إلى غزراته وثروة إلى ثروته وستزيد جذوته ذكاء وقوة ومضاء.

والثاني أن يرفق باللغة العربية الفصحى ويبسط سلطانها شيأ ما على أشخاصه حين يقص كما يبسط سلطانها على نفسه، فهو مفصح اذا تحدث، فاذا انطق أشخاصه انطقهم بالعامية كما يتحدث بعضهم إلى بعض في واقع الأمر حين يلتقون ويديرون بينهم ألوان الحوار.

وما أكثر ما يخطىء الشباب من أدبائنا حين يظنون ان تصوير الواقع من الحياة يفرض عليهم ان ينطقوا الناس في الكتب بما تجري به ألسنتهم في أحاديث الشوارع والأندية. فأخص ما يمتاز به الفن الرفيع هو أنه يرقى بالواقع من الحياة درجات دون ان يقصر في أدائه وتصويره...

والأديب الحق ليس مسجلاً لكلام الناس على علاته كما يسجله الفونغراف، كما ان المصور الحق ليس مسجلاً لواقع الأشياء على علاتها كما يصورها الفونغراف، وانما الفـرق بين الأديب والمصـور وبين هاتين الأداتين من أدوات التسجيل انهمـا يصـوران الحقائق ويضيفان اليها شيئاً من ذات نفسيهما هو الذي يبلغ بها أعماق الضمائر والقلوب ويتيح لها ان تبلغ الأديب والمصور من نفوس الناس ما يريدان وإلا فما يمنع الكاتب من ان يصطنع أداة من هذه الأدوات التي تسجل الفاظ الناس ثم يضيف إلى أصواتهم صوته بلغتهم التي يتكلم بها هو حين يتحدث اليهم، ثم يعرض عليهم ذلك كما يعرض تسجيل

الأصوات لا يتهيأ له ولا يتأنق فيه.

ليصدقني الشباب من أدبائنا ان من الحق عليهم لمواهبهم وأدبهم ان معنوا فهم المذاهب الأدبية أكثر مما يفعلون . . وألا يخدعوا أنفسهم بظواهر الأشياء فيفسدوا مواهبهم ويفسدوا أدبهم أيضاً . .

أما بعد فاني اهنىء كاتبنا الأديب بجهده هذا الخصب واتمنى ان اقرأ له بعد قليل كتباً أخرى ممتعة امتاع هذين الكتابين وتمتاز عنهما مع ذلك بصفاء اللغة واشراقها وجمالها الذي لم تبلغه العامية وما أرى انها ستبلغه في وقت قريب أو بعيد.

المرتبة المقعرة*

قصة قصيرة بقلم: يوسف ادريس**

في ليلة «الدخلة»، و«المرتبة» جديدة وعالية ومنفوشة، رقد فوقها بجسده الفارع الضخم، واستراح إلى نعومتها وفخامتها، وقال لزوجته* التي كانت واقفة إذ ذاك بجوار النافذة:

ـ انظري . . . هل تغيرت الدنيا؟

ـ لا . . . لم تتغير . .

ـ فلأنم يوماً اذن . .

ونام اسبوعاً، وحين صحا، كان جسده قد غوّر قليلاً في المرتبة . .

فرمق زوجته وقال:

ـ انظري . . . هل تغيرت الدنيا؟

فنظرت الزوجة من النافذة، ثم قالت:

ـ لا . . . لم تتغير . . .

ـ فلأنم اسبوعاً اذن . .

ونـام عاماً، وحين صحا، كانت الحفرة التي حفرها جسده في المرتبة قد عمقت أكثر، فقال لزوجته:

ـ انظري . . . هل تغيرت الدنيا؟

فنظرت الزوجة من النافذة، ثم قالت:

ـ لا . . لم تتغير . . .

ـ فلأنم شهراً اذن . .

ونام خمس سنوات، وحين صحا، كان جسده قد غور في المرتبة أكثر، وقال كالعادة لزوجته:

ـ انظري... هل تغيرت الدنيا؟

فنظرت الزوجة من النافذة، ثم قالت:

ـ لا... لم تتغير..

ـ فلأنم عاماً اذن..

ونام عشرة أعوام، كانت المرتبة قد صنعت لجسده اخدوداً عميقاً، وكان قد مات وسحبوا الملاءة فوقه فاستوى سطحها بلا أي انبعاج، وحملوه بالمرتبة التي تحولت إلى لحد والقوه من النافذة إلى أرض الشارع الصلبة..

حينذاك وبعد ان شاهدت سقوط المرتبة اللحد حتى مستقرها الأخير، نظرت الزوجة من النافذة وأدارت بصرها في الفضاء، وقالت:

ـ يا إلهي... لقد تغيرت الدنيا..

* المرتبة: السرير.

** اخترناها من مجموعة «النداهة».



اللغة الكردية
اصولها.. وخصائصها

دحام عبد الفتاح

كثيراً ما نسمع ونقرأ عبارة «اللغة الحية»، فماذا تعني هذه العبارة بمدلوليها، الايحائي العام والبنيوي الخاص؟ وما المقاييس الموضوعية التي يجُسُّ بها نبض الحياة في اللغات المعنية؟

وعلى ضوء المدلولين المذكورين، أين تقع اللغة الكردية في دائرة الحياة تلك؟

قد يكون المختصون من علماء اللسانيات على قدر كبير من الحق في قولهم: إن اللغة كائن حي، تولد فتتطور، وتضمر فتموت، كما هي الحال عند الكائنات الحية تماماً وصفة الحياة هذه انسحبت بالعلاقة الانتمائية من الحي (الانسان) إلى الوسيلة (اللغة) فتشرّبت هذه الأخيرة من الكائن الحي سمات التطور الحيوي، فكأنها هو، أو جزء منه.

وبهذا المنظور تولد اللغة مع ولادة الأمة، وتتطور مع تطورها بعلاقة تلازمية. فهي حية بقدر حيوية الأمة وهيمنتها على الحياة، وهي ضامرة ضعيفة بالقدر نفسه من ضمور الأمة وتقهقرها ثم تموت عندما الأمة تموت.

هذا التعريف الايحائي العام للغة الحية يبقى بشكل تجاوزي صحيحاً إلى حد ما. فكم من لغة سادت بسيادة بنيها، ثم بادت عندما بادوا؟!.

وبهذا المنظور تكون بعض اللغات المعاصرة أكثر حيوية من بعضها الآخر، تبعاً لسيادة بُناها الثقافية والاقتصادية والسياسية... في إطار هذا المفهوم، تبقى اللغة الكردية متحلْزنة خارج الأقواس (الحية)، لا حول لها ولا قوة.

أما لو تناولنا اللغة الكردية في دائرة المدلول البنيوي الخاص، كوحدة دراسية، مستقلة عن كل العلائق التلازمية، وتغلغلنا في النسج الأساسية التي تقوم بها وعليها هياكل التعبير اللغوي، ثم تلمّسنا مقومات الحياة في بنيتها من منظور علم اللسانيات فقط لوجدنا أن اللغة الكردية تختزن في بنيتها عناصر حية تؤهلها لتكون في مصاف اللغات الحية، كما أهّلتها للصمود قروناً في وجه الاندثار والابادة عندما انبترت - إلا قليلاً - كل العلائق التلازمية بينها وبين موجبات الحياة!

فما هي أصول اللغة الكردية؟ وما هي أهم خصائصها وعناصر بنائها التي حصنتها في مواجهة الضياع والتضييع معاً؟

تنتمي اللغة الكردية إلى عائلة اللغات الهند - أوروبية، من أسرة الهند - آرية (الايرانية). وتمتد جذورها تاريخياً إلى اللغة (الأفِسْتائية). وهي اللغة التي دُوِّنت بها (الأفستا) كتاب زردشت المقدس، باسلوب شعري غنائي، على الوزن السيلابي (المقطعي) أو ما يسمى في الكردية (KÎTIKÎ).

وعلى أنقاض (الأفستائية) قامت (اليَهْلَوية)، فاحتفظت ببعض المفردات والتعابير الأفستائية، وبقيت اليهلوية محتفظة بمكانتها الأدبية حتى ما بعد ظهور اللغة الدَرية (الفارسية الحديثة). يشير عمر الخيام إلى ذلك بقوله:

بلْبِـلْ به زَبـانـى پَهْـلوي باگُـلِ زَرْدْ   فرْياد همَـي زَدُكـه مَن بايَدَ خورْدْ

ثم استقلت اللغة الكردية مع شقيقاتها، الدَرية والبلوجية وغيرها... بُعيد ظهور الاسلام، وبعد اندثار اليهلوية. وما زالت الكردية تحتفظ في معجمها بشواهد عديدة تؤكد انتماءها هذا، مع تباين يسير، هو نتيجة طبيعية لبعض حالات القلب والابدال، أو التحول الصوتي بفعل المشافهة على مدى الزمن. والمقارنة التالية توضح ما ذهبنا اليه[1]:

	الأفستائية	البهلوية	الكردية
١ - الدجاج:	(مِرغه)	(مُرو)	(مِرْ - مامِنْ)
٢ - حار:	(كِرم)	(گَرْم)	(گَرْمْ)
٣ - الذئب:	(وِهرْكْ)	(گُوْرگْ)	(گورگْ - گورْ)
٤ - طويل:	(دْارجه)	(دْراز)	(دْريَز - دِريژ)
٥ - عشرة:	(دسه)	(دَهْ)	(دَهْ)
٦ - الثلج:	(وَفْرْ)	(بَفْرْ)	(بَفرْ - بَرْف)

هذا، وتلتقي الكردية والدرية مع البهلوية في بنية قسم كبير من المفردات، لتؤكد على الأصول اللغوية المشتركة بينها[1].

	البهلوية	الدرية	الكردية
١ ـ الله :	(خْوَدْ ذاته)	(خْوَدْ داذْ)	(خْوَدا)
٢ ـ الدستور:	(دستور)	(دستور)	(دستور)
٣ ـ النوم :	(خْواب)	(خْواب)	(خَوْ)
٤ ـ الأشعة :	(تاپ)	(تاب)	(تاوْ ـ تاڤ)
٥ ـ النهار ـ الشمس :	(روچ)	(روز)	(روژ)
٦ ـ القائد :	(سَرْدار)	(سالار)	(سَرْدار)
٧ ـ اللغة :	(زَڤان)	(زَبان)	(زَبان ـ زمان)
٨ ـ التربية :	(فِرْوَرْدْ)	(پرْوَرْد)	(پَروَرْده)

وتتميز اللغة الكردية بأنها لغة تركيبية، لصقية. بمعنى أنها ـ اللهجة الكرمانجية مبنية من مقطع صوتي واحد (YEKÎTE) فاذا صادفتنا كلمة ذات مقطعين صوتيين أو أكثر فهي مركبة، ولابد من البحث عن جذور المفردات البسيطة، الداخلة في نسيج التركيب، فان لم نعثر على ما نريد، فهذا لا يعني أبداً ان الكلمة بسيطة، بل يعني أننا عجزنا عن إيجاد ما نريد. وتكاد اللغة الكردية تنفرد بهذه الميزة من بين اللغات التركيبية.

تتوالد المفردات الجديدة في الكردية بالتركيب من العناصر اللغوية التالية:

١ ـ أداة سابقة + مفردة = مفردة جديدة

٢ ـ مفردة + أداة لاحقة = مفردة جديدة

٣ ـ اسم + اسم = مفردة جديدة

٤ ـ اسم + صفة = مفردة جديدة

٥ ـ صفة + صفة = مفردة جديدة

٦ ـ صفة + اسم = مفردة جديدة

والمفردات الجديدة تشمل الأسماء والصفات والأفعال والمصادر... وهذه الميزة تضفي على اللغة الكردية مرونة شديدة، تسهّل على اللغوي تركيب أية مفردة غير واردة في معجم اللغة الكردية من قبل. وفي الاتجاه نفسه ـ مع مراعاة قواعد الصوتيات ـ يستطيع اللغوي الكردي أن يسميّ كافة المصطلحات والمسميات الحضارية المعاصرة، حيث يتعرف على المسمّى الثقافي أو العلمي الحديث، ويتمعن في أبرز صفاته (الصوتية ـ

الحركية ـ الأدائية) ثم يأخذ المفردة الكردية التي تقابل تلك الصفة البارزة فيه فيلحقها، أو يُلحق بها ما يستوجب من أدوات أو اسماء أو صفات. . مراعياً قواعد التركيب الدقيقة في مثل هذه الحالات.

فمثلا، عندما نريد استحداث الكلمات التالية في الكردية: (الغواصة-البحر العروضي ـ القافية)، وقد استحدثت على الشكل التالي:

1 - (Noq الغوص + av الماء = Noquv) : الغواصة

2 - (PÊL الموجة + awaz اللحن = PÊLawaz) : البحر العروضي

3 - (RÊZ السطر ـ البيت + bENd القيد = RÊZbENd) : القافية

ومن ميزات المفردات الكردية كونها معرفة في حالتها الطبيعية المجردة، حتى اذا لحقتها علامات التنكير صارت نكرات:

- SaL: السنة ـ العام

- SaLek: سنة ـ عام

- SaLiNe: سنوات ـ أعوام

إلا أن أهم ما يميز المفردات الكردية هو خضوعها الشديد لقواعد الإمالة (verês, Tewang). حتى ليكاد أن يصح القول فيها: إنها لغة الإمالة.

والإمالة تلحق ـ حسب قواعدها الدقيقة ـ الاسماء والمصادر والضمائر وأسماء الاشارة والاستفهام. . .

والجملة في الكردية تأتي بشكلها السياقي، الطبيعي على الترتيب التالي:

١ ـ الفاعل: kirar

٢ ـ المفعول به: bireser

٣ ـ الفعل: Lêker

واذا احتوت الجملة على الظرف أو الجار والمجرور، فان ترتيبهما بعد الفاعل مباشرة. غير أن هذه الصيغة الترتيبية غير واجبة الثبات، فالتقديم والتأخير يتمّان حسب المقتضيات البلاغية والضرورات الشعرية. واللغة الكردية خاضعة لنظام نحويّ دقيق وشامل، يحتل فيه القياس مكانة بارزة، والاستثناءات الشاذة عن القياس القواعدي نادرة جداً، إن لم تكن شبه معدومة. وأهم أبواب القواعد في اللغة الكردية: بابا الإمالة والتصريف (veguhezTiN) . فالإمالة ـ كما ذكرنا ـ باب واسع، وحالاتها دقيقة ومتشابكة. والتصريف بأزمنته المتعددة المتقاربة، كثيراً ما يخلق إشكالات والتباسات لدى المتعامل معه. ومثلما تتحكم القاعدات النحوية بالتراكيب والعلاقات التعبيرية، كذلك تتحكم القواعد الصوتية (FONêTÎK) في صيغ المفردات في حالات الإمالة والابدال وما يسمى في

العربية (النحت اللغوي). وهذه القواعد الصوتية تتناسق بشكل طبيعي منظم في أنسجة لغةٍ قائمةٍ على (٣١) حرفاً، منها (٨) حروف صوتية، و(٢٣) حرفاً غير صوتي. و(٥) من الصوتيات تعطي مقاطع صوتية عالية النبر، و(٣) منها تعطي مقاطع صوتية منخفضة النبر. إذ لابد ـ والحالة هذه ـ من قوانين صوتية تنظم العلاقة بين هذه المجموعة من الصوتيات، وهي تتداخل مع غير الصوتيات في أنسجة التعبير اللغوي بشكل سليم.

إن هذا النظام الدقيق الذي تنتظم بموجبه اللغة الكردية، لهو حصنها الحصين الذي حمـاها منذ قرون طويلة، تعرضت خلالها لعوامل الضياع والتضييع معاً، ولولا حصنها هذا، لاندثرت في قرون الحصار، حيث أزاميل الهدم والاستلاب كانت تطال كل ما من شأنه أن يبقي منها على أثر. . . !

ومـرة أخـرى نعود من حيث بدأنا، إلى التعبير (اللغة الحية) بمدلوليها الايحائي التجاوزي العام والبنيوي الخاص، فنتساءل:

غلبت روما أثينا، ولكن هل احتوت اللغة الرومانية لغة الاغريق بكل ما كانت تملك من مقومات الحياة؟!

وسيطر العثمانيون على العرب، فهل قدَرت اللغة التركية (العثمانية) أن تقف على أقدامها أمام اللغة العربية بكل ما تختزنه من عناصر الحياة؟

إذن، في كل وجهة نظر، وجهة نظر أخرى. ولنا في بنية اللغة الكردية وجهة نظر، فإن لم تُعتبـر اليوم، من منـظور العلاقة التلازمية بين الحيّ (الانسان)، والأداة الوسيلة (اللغة). . . أقول إن لم تُعتبر من اللغات الحية، فلا شك في أنها تحتفظ في مخزونها البنيوي بأصفى عناصر الحياة. فإذا الشمس ابتسمت لها ذات يوم، فسوف تكون هناك وجهة نظر أخرى، ربما تقول: إن الكردية من اللغات الحية.

عامودا ٢٥/ ٥/ ١٩٩١

(١) مقارنة المفردات عن مجلة المجمع اللغوي الكردي ـ بغداد «حسن قزلجي». نعتذر عن عدم عثورنا على تاريخ ورقم عدد المجلة.

(٢) المصدر نفسه.



رواد المقاومة في الشعر الكردي

د. كمال مصطفى معروف

لعب شعر المقاومة دوراً بارزاً من حيث ديناميكيته الابداعية أو من حيث ارتباطه الخاص بالجمهور. فالشعر صار، حسب حلم قديم، فعلاً من نمط خاص. أما اصطلاح شعر المقاومة فقد تم اكتشافه فيما بعد من أجل تسمية ظاهرة شعرية تمت خارج إطار الشعر الحقيقي[1].

إن شعر الكفاح أو المقاومة وُجد ضمن الأدب الكردي انطلاقاً من كردستان أو من تلك المنطقة الكردية التي تعرضت دوماً للغزو ثم للاحتلال الدائم سواء من طرف الأمبراطورية الفارسية أو العثمانية. وتعود جذور هذا الشعر إلى قديم الزمان. ولذلك كانت بعض أشعار أحمدي خاني وحاجي قادر كويي بمثابة الأساس الذي قام عليه بناء شعر المقاومة في أيامنا هذه.

وبهذا الصدد، يمكن القول أن الكلمة، سواء كانت مكتوبة أو شفوية، لعبت دوراً مهماً في كل معارك التحرير ومناهضة الظلم والاستعباد، وكان لوجودها أثر بارز في تعبئة الجماهير واستفزاز الحس القومي والوطني ورفع معنويات المقاتلين، كما كانت، وما زالت، عنصراً فعالاً في تحقيق الهدف الأسمى: أي النصر والتحرر.

بشكل عام، يمكن القول أن شعر المقاومة هو ذلك الشعر الذي يدعو إلى التحرر ومناهضة التسلط والهيمنة والاحتلال من جهة، ويشيد بقيم الشجاعة والبطولة والتضحية والاتحاد.

إن المرحلة عصيبة نواجه خلالها ظروفاخاصة حيث لم يعد أحد يلوم الشعر لانخراطه في المقاومة ودخوله ميدان الكفاح من أجل الحرية والتحرر جنباً إلى جنب مع الثوار والفدائيين.

هكذا إذن، ومع تصاعد حدة الثورة والمقاومة الشعبية، تشتد صعوبة المهمة المناطة بالأديب عامة وبالشاعر خاصة. كما تكثر أخطارها وتتعدد مزالقها ومطباتها، إذ توجَّه الدعوة إليهم هم، وليس إلى كتاباتهم أو أشعارهم، من أجل الانخراط جسدياً وروحياً في ميدان النضال والاندماج كلياً مع الجماهير التي يجسدون منارها المضيء وروحها المنيرة وعقلها المفكر. مطلوب منهم أن يعيشوا عن قرب وبكل أحاسيسهم الفياضة المأساة التي تجتازها شعوبهم حتى يستطيعوا التعبير عنها بشكل صادق وأصيل.

إن لكل شعب أدب مقاومته. وقد تأثر أدب المقاومة كثيراً بالخصائص والانعكاسات التي تمخضت عن الحرب العالمية الثانية والفترة التي تبعتها، كما تأثر كذلك بالشعر الفرنسي والروسي والفيتامي والجزائري... الخ. شعراء من أمثال نيرودا ولوركا وآراغون مازالوا بمثابة المنار في ميدان الأدب وشعر المقاومة.

فالشاعر الفرنسي الشهير لويس آراغون، الذي عُرف بالتزامه الوطني والقومي إبان الحرب العالمية الثانية وفترة الاحتلال الألماني لفرنسا، يصف تلك الأيام التي قضاها ضمن صفوف المقاومة المناهضة للاحتلال الألماني قائلاً: «لقد عانينا الكثير، وبصفة خاصة من الناحية الروحية، فلا يمكنك ان تعرف معنى ان تعيش كل يوم وأنت تجهل ما سيأتي به الغد، فربما يختفي أحباؤك أو أهلك أو تختفي أنت نفسك... أو عندما تعرف أن كل كلمة وكل فكرة، وكل عمل في سبيل وطنك وأي احتجاج في سبيل حرية التعبير قد يكون جواز سفرك إلى الآخرة»[٢].

من أولى الخصائص التي يتميز بها شعر المقاومة يمكن أن نذكر صدقه وسلاسته وسهولته والأسلوب المباشر الذي يتوجه به إلى جمهوره. «وقد يكون على الأدب المعبر عن المقاومة أو حروب التحرير أن يميل إلى البساطة في فترات تاريخية ضرورية لأنه بذلك يلبي حاجة هذه الفترات إلى التنوير والتعليم وشحذ الهمم والتحريض على الانتاج والبذل والتضحية»[٣].

إن ما يكتبه رجالات الأدب والشعر خلال هذا النوع من الحقب والفترات يجب أن يُصاغ بأسلوب سهل سلس يستهوي ويجتذب الأغلبية الساحقة من الجماهير كما يسهِّل استيعابه وفهمه على ذوي العقول البسيطة، حتى يتم جرّهم بمحض إرادتهم إلى ميدان المقاومة والكفاح من أجل المبادىء السامية والتفاني في خدمة الوطن والحرّية. فالشعب المكافح بحاجة لأدب وشعر المقاومة كما هو محتاج للأكل والشرب. والأدب يجب أن

يكون في خدمة القضايا السامية والتطلعات المشروعة التي تسعى إلى تحقيقها الشعوب المناضلة.

وبهذا الصدد يقول المفكر الشهير والقائد السياسي الروسي المعروف، لينين[٤]، ما يلي: «.... ليس المهم ما يعد الفن لبضع مئات، بل ولا حتى لبضعة آلاف من المجموع العام للسكان الذين يعدون بالملايين. فالفن ملك للشعب ويجب ان يرسل جذوره عميقاً في صميم جماهير الشغيلة الواسعة... ويجب ان يكون مفهوماً من قبل هذه الجماهير، ومحبوباً لها. ويجب أن يوحد شعور هذه الجماهير وفكرها وإرادتها، أن ينهضها. ويجب ان يوقظ من بينها الفنانين، ويطورهم. هل ينبغي علينا ان نقدم لأقلية صغيرة أنواعاً حلوة مصفاة، من البسكويت بينما جماهير العمال والفلاحين بحاجة إلى خبز أسود وأنا أفهم ان ذلك بديهي ليس بمعناه المباشر فقط، بل والمجازي أيضاً: يجب أن نضع العمال والفلاحين نصب أعيننا، دائماً، ومن أجلهم يجب أن نتعلم تسيير الأمور والحساب، وذلك ينطبق أيضاً على حقل الفن والثقافة».

غير أن ما يمكن قوله هو أن الشعر السياسي عامة وشعر المقاومة خاصة يعاني من بعض الثغرات من الناحية الفنية والتركيبية. لكن لا أهمية لذلك حيث أن الهدف الأساسي من شعر المقاومة يكمن أساساً في الخطاب والقيم السامية التي يدعو إليها. فكل كلمة وكل جملة تزن ثقلها من المتفجرات. فليس هناك أي اعتبار للجانب الفني هنا، بل الذي يهم هو الانفعالات والاحاسيس التي تحدثها تلك الكلمات في قلب ووعي الجمهور. ولذا، فان شعر المقاومة لا يهدف إلى احداث التغيير على أرض الواقع فقط بل وفي ذات الشعر نفسه وفي الأدب كله عامة. «ذلك ان الشعر الثوري لا يكون ثورياً بمقدار ما يحدث، فقط من ثورة داخل الشعر، بل أيضاً وخصوصاً، بمقدار ما يؤدي من تأثير ثوري، من إضاءة للوعي، داخل حركة الجماهير، أي داخل حركة التاريخ... وثورته لن تكون متكاملة، حتى على صعيد حركة الشعر، اذا لم يكن متفاعلاً، حقاً، مع مهمات الثورة ومع الجماهير... وهو كذلك لا يمكن ان يمارس تأثيراً ثورياً داخل الجماهير اذا لم يكن فناً أصيلاً بالأساس... والفن الأصيل هو دائماً ـ كما مر معنا ـ ثورة داخل حركة الفن نفسها»[٥]

وهكذا فان شاعراً مثل الشاعر حاجي قادر كويي (١٨٧ ـ ١٨٩٧) كان يؤمن فعلاً بالقيم والمبادىء التقدمية. ولذلك فقد أقام رابطة وثيقة بين حركة التحرر المسلحة من جهة والفكر كوسيلة لتحرير بلاده من التسلط والهيمنة من جهة أخرى، فهويقول في إحدى قصائده:

«تحركوا كالنحل.... !

ودبروا أموركم بسكوت .
واحصلوا على عتاد الحرب .
المدفع والبندقية والهاون»[٦]

ثم يدعو شاعرنا المظلومين والمستضعفين في الأرض إلى الوحدة والاتحاد والكفاح معاً من أجل طرد المحتلين الأتراك من أرض كردستان .

«بائسو أرض كردستان .
من راعي البقر، إلى راعي الغنم .
ليفيقوا من غفوة الجهل والسكر والغفلة .
ولينقذوا أنفسهم من حال لا تليق بهم .
وليهزموا الروم إلى أسفل السافلين»[٧]

أما شاعرنا فائق بيكس (١٩٠٥ ـ ١٩٤٨)، فقد اهتم كثيراً بمناهضة الامبريالية التي ما انفكت عن توسيع الفجوة بين الشعبين العربي والكردي بالعراق بغية استتباب هيمنتها على هذا البلد واستغلال خيراته وثرواته . ولذا فقد ركّز الشاعر فائق بيكس على مبدأ الاخوة العربية ـ الكردية والتضحية من أجل توحيد صفوفهما وتحررهما مهما كلف ذلك من ثمن باهظ :

«لن تزهر شجرة الحرية
اذا لم تسقى بالدماء
ولن يتحقق الاستقلال أبداً
دون تضحيات
فليس للانسان أن يهاب الموت
من أجل انتزاع حقوقه»[٨]

لقد استغل بيكس مناسبة الاحتفال الذي أقيم سنة ١٩٤١ على شرف مستشار وزارة الداخلية البريطاني بالعراق، إيدموندس، ووجّه نقداً لاذعاً لسياسة الحكومة البريطانية بكردستان معتبراً إياها مجرد خدعة وخيانة تجاه الشعب الكردي . وقد تركت هذه الصرخة دوياً وصدى كبيراً بين الجماهير الكردية شدّا عزمها وهمّتها .

«سبع وعشرون سنة مضت
وما فتأت تتعبني
وتخادعني بأكاذيب
وتستعملني كدمية بين يديك

وتلوي عنقي من أجل أهدافك أنت
وترميني بعيداً عنك
عندما لا تعود لك حاجة بي
ماذا جنيتُ حتى تعاقبني هكذا
ولماذا رميت بي إلى هذا الدرك الأسفل؟»[9]

أما الشاعر دلـدار (١٩١٨ ـ ١٩٤٨) فقد اشتهر هو كذلك باشعاره الثورية ذات النفس النضالي الأصيل التي تدعو الشعب إلى النهوض ورفع السلاح من أجل التخلص دفعـة واحدة من جلاديه الذين يسومونه العذاب والهوان. ومن بين أبرز أشعاره في هذا المضمـار قصيدة «أي رقيب» (أيهـا العـدو) التي يتغنى فيها الشاعر بتاريخ أمته العريق وأمجادها الغابرة قائلاً:

«أيها العدو، إن الشعب الكردي حي أبداً
مدفع الزمن لا سلطة له عليه
نحن أبناء اللون الأحمر والثورة
أنظر ماضينا الدموي
آلاف الأسود الأكراد الفتية
ذهبت قرباناً لهذه الأرض
واليوم مستعدون من جديد
للفداء أن يذهبوا فداءً للوطن»[10]

أما شاعرنا الكبير عبد الله كوران (١٩٠٤ ـ ١٩٦٢) فكان له باع طويل في ميدان الشعر السياسي وشعر المقاومة، خصوصاً ما يتعلق بالأناشيد الوطنية الحماسية والثورية التي ألّف منها العديد. ونذكر هنا بشكل خاص قصيدته «آن وقت النهوض» حيث يدعو أبناء شعبه إلى القيام من سُباتهم والتخلص من كسلهم وتقاعسهم بغية شق طريق النضال والثورة والكفاح قبل فوات الأوان:

«آن وقت النهوض!
إلى متى يسود اليأس والفراغ
أهجم أيها الكردي
دع عرقك يسيل على الجبين
طهر روحك من جرثومة الانشقاق
بتوحيد جهود الجميع
بجمع الشمل وتقوية الصفوف

يتقدم شعبك»[11]

شاعرنا دلزار (الذي ولد سنة ١٨٢٠ ولا يزال على قيد الحياة في المنفى)، فان نشوءه داخل وسط قروي وانتماءه فيما بعد إلى الحزب الشيوعي العراقي، جعلاه ينخرط منذ نعومة أظفاره في ميدان النضال من أجل الدفاع عن مصالح العمال والطبقات الكادحة وتعرض بالتالي للقمع والتعذيب والاعتقال. وقد انعكس كل ذلك في أشعاره التي كُرِّست في غالبيتها لامتداح الطبقة العاملة العراقية وطليعتها الثورية التي سعت إلى توحيد الكادحين، عرباً واكراداً، ودفعهم إلى ساحة الكفاح من أجل تحقيق أهدافهم والقضاء على الاستغلال والظلم والهيمنة. وهكذا يقول في قصيدته «من نحن؟»:

«نحن طبقات الكادحين
المكافحون الشجعان
نحن فئة المخلصين الحقيقيين
خُدَّام الشعوب الأوفياء
نحن بركان ونار الموت»[12]

إن القمع والتسلط أينما وجدا لا يولدان سوى العنف والثورة والرفض والمقاومة. أما الابداع الفني فانه يجد مصادر إلهامه في الصورة التي يعكسها، هذه الحالة الصراعية التي يعيشها الشاعر نفسه. فالاعتقال والقمع والتسلط تستفزُ عنده الرغبة في رد الفعل والانفعال مع هذا الواقع المأساوي. فهو يختلق لنفسه من داخل الزنزانة فضاءً حراً يُهدد به جلاديه فعلاً. فقناعاته الثورية والتقدمية تجعله يتحمل المعاناة تلو المعاناة ومحنة الاعتقال. لكن هذه التجربة لا تشكل سوى حلقة ضمن السلسلة الطويلة من العطاءات بشتى أنواعها من أجل الانعتاق وانتصار الحرية والديمقراطية.

إن النماذج الشعرية التي تعرضنا لها بايجاز شديد هنا لا تشكل سوى جزءاً يسيراً من ذلك البحر الغزير الذي سميناه شعر المقاومة الكردي.

المصادر والهوامش:

(١) Jacques Gaucheron, La poesie, La resistance, Ed. Reunis, Paris, 1979. f.17

(٢) غالي شكري، «أدب المقاومة»، دار نشر المعارف، القاهرة ١٩٧٠، ص ٣١٢.

(٣) نجاح العطار وحنا مينا «أدب الحرب»، دار نشر الأدب، بيروت ١٩٧٩، ص ٣٩

(٤) لقاء مع لينين أعده كلار زينكتين، ضمن «خالد إلى الأبد» الطبعة العربية، دار نشر التقدم، موسكو، ص ٣٦٨.

(٥) محمد دكروب، «الأدب الجديد والثورة» كتابات نقدية، دار نشر الفارابي، بيروت، ١٩٨٤، ص ١٠٠

(٦) الدكتور عز الدين رسول «الواقعية في الأدب الكردي»، دار المكتبة العصريه، بيروت ١٩٦٦، ص ٧٥

(٧) نفس المصدر، ص ٨٤.

(٨) محمد ملا كريم «ديوان بيكس»، (باللغة الكردية)، دار نشر الأديب، بغداد ١٩٨٠، ص ص ٢٨ ـ ٢٩.

(٩) نفس المصدر، ص ص ٧٥ ـ ٧٨.

(١٠) كيومي موكرياني «ديوان دلدار» دار نشر كردستان. أربيل ١٩٧١، ص ١٧.

(١١) كوران «سه رجه مى به رهه مى كوران» (الأعمال الكاملة لكوران)، دار نشر كوري زانياري كورد، بغداد، ١٩٨٠، ص ص ٤٠٣ ـ ٤٠٤.

(١٢) دلزار«خه بات وزيان» (النضال والحياة)، دار نشر الوفاء، بغداد ١٩٦٠، ص ٣٠.



رسالة برلين :

ايام الثقافة الديمقراطية العراقية في المنفى

أقيمت في برلين الغربية أيام الثقافة الديمقراطية العراقية في المنفى، بحضور نوعي مميز من خلال أدباء وفنانين ومفكرين حضروا لأول مرة، بخلاف المهرجان السابق الذي أقيم قبل عام في المكان ذاته، وبدعوة من قصر الثقافات الاجنبية.

استمر المهرجان للايام من ٣٠ تموز لغاية ٥ آب ١٩٩١ بفعاليات ثقافية وفنية متنوعة، وكان للثقافة الكردية، هذه المرة، حضور ملموس لولا غياب الفنانين الموسيقيين لأسباب قاهرة.

قدمت في المهرجان أكثر من أمسية شعرية شارك فيها الشعراء سعدي يوسف، شيركو بيكه س، بلند الحيدري، بتقديم من الشاعر فوزي كريم، وقامت الفنانة المعروفة زينب بتلاوة الترجمة العربية للشاعر شيركو بيكه س، وتلى الترجمة الالمانية ممثل مسرحي الماني معروف.

وفي الأماسي الباقية شارك الشعراء محمد سعيد الصكار، عواد ناصر وفاضل السلطاني ومنعم الفقير وشوقي عبد الأمير وفوزي الاتروشي وفرياد.

وبعد تردد، غير معروف الأسباب، قدم الشعراء فاضل العزاوي وسركون بولص ومؤيد الراوي (الذي لم يلق شعراً منذ سنوات عدة) وكاظم جهاد وهاشم شفيق قصائدهم في أمسية خاصة مع مرافقة غنائية وعزف منفرد قدمها الفنانان كوكب حمزة وفلاح صبار.

أما محاور البحوث فقد شملت عناوين متنوعة، أيضاً، تناولت «المثقفون والانتفاضة» شارك فيها كل من سعدي يوسف وفلك الدين كاكه ئي وسامي شورش. وقدم اسماعيل زاير مداخلة مشتركة مع المخرج السينمائي قاسم حول.

بينما اقتصرت الأمسية التشكيلية على عرض سلايدات لفنانين عراقيين مع تعريف موجز لكل فنان قدمه الفنان التشكيلي جبر.

الأمسية الغنائية أحياها الفنانان كوكب حمزة وفلاح صبار، كما تم عرض افلام سينمائية واشرطة فيديو للمخرجين العراقيين قيس الزبيدي وقاسم حول وليث عبد الأمير.

هذا وكان لحضور الشخصية الثقافية المعروفة علي الشوك ترحيب وارتياح لما تتمتع به من تأثير في ميدان الثقافة العراقية والعربية.

ومن الجدير بالذكر ان عدداً من الصحف الالمانية والبرلينية غطت بعضاً من جوانب المهرجان على شكل ريبورتاجات وتعليقات، كما جرى بيع عدد من نتاجات الأدباء العراقيين ومجلة «البديل» على هامش الفعاليات.

لقد كانت أيام الثقافة العراقية في المنفى، التي عقدت في برلين، مناسبة طيبة لتبادل المواقف والحوار واغناء المداخلات من قبل الحضور والاستماع مباشرة إلى أفكار وابداعات أدباء وفناني الوطن الذين اضطروا إلى اختيار المنفى اضطرارياً بفعل الدكتاتورية وحروبها وعسفها.

كانت الفعالية فرصة لتعريف الأدب والفن العراقيين المناهضين للدكتاتورية والحرب رغم محدودية الحضور غير العراقي.

واذا ما أشرنا إلى ضرورة هذه الفعالية الثقافية وتنوعها فعلينا ان نذكر حاجتها إلى التنظيم الأفضل، حيث شاب بعض جوانبها الارتجال بسبب تشتت المثقفين والفنانين العراقيين في عواصم المنفى وصعوبة الاتصال والتنسيق بين المعنيين بالاعداد والتحضير لهذه الأيام الثقافية فجاءت مكثفة ومزدحمة (ثلاث فعاليات في اليوم الواحد أحياناً!)، ومن ناحية أخرى لم يخرج المنتدون والمشاركون بنداءات أو توصيات أو مذكرات ضرورية سواء على صعيد الثقافة العراقية في المنفى أو على صعيد معاناة شعبنا جراء التطورات القاسية والحادة التي مرّ بها مؤخراً من حرب عقيمة وغير عادلة اسفرت بعد احتلال الكويت عن تدمير منجزات شعبنا وتشريده وتجويعه. ولم يقدم ادباؤنا وفنانونا مقترحات ملموسة تخص ثقافة المنفى وطبيعتها عدا الندوة اليتيمة التي كان عنوانها «المثقفون الديمقراطيون العراقيون والانتفاضة» حيث جرى استعراض وقائع الانتفاضة والقمع الوحشي الذي تعرضت له على يد نظام بغداد المهزوم أمام قوى التحالف الاجنبي.

اننا اذ نسوق هذه الوقائع فبدافع تجاوز العثرات والتفكير بالوسائل الافضل لانجاح هكذا فعاليات واستثمارها ابداعياً وتنظيمياً من أجل توخي النجاح الأكثر تأثيراً بعد تحديد الهدف الأساسي منها.

إن رابطة الكتّاب والصحفيين والفنانين الديمقراطيين العراقيين تتحمل الجزء الأكبر

في انجاح مثل هذه الايام، خصوصاً وان الرابطة انفقت الكثير من المال، قياساً بفقرها المستديم، رغم ان أغلب الحاضرين جاءوا على نفقتهم الخاصة، وبعضهم جاء على نفقة قصر الثقافات العالمية بدعوة خاصة.

ضابط الماني

عندما ُوقف صديقنا سيارته، ثم ترجلنا منها، اوقفنا ضابط شرطة الماني - برتبة عقيد - ليتفحص اوراق السيارة.

ساورتنا ظنون عدة، ابرزها خوفنا، ذلك ان اثنين منا لم يحملا جوازي سفرهما، ربما بالغ أحدنا بالخوف لأنه «عادة» عراقية في المنفى.

جرى حديث قصير بين ذلك الضابط وصديقنا العراقي المقيم في برلين والذي يتحدث الالمانية.

كان الضابط في ستينات عمره، رجلاً هادىء الملامح والنبرة، الأمر الذي خفف من مخاوفنا، وما ان انتهى الحديث حتى سألنا صاحبنا عن الأمر، بعد ان أعاد له أوراقه فقال:

يقول هذا الضابط، بعد ان عرف بأننا عراقيون، ارجو ان تتقبلوا تضامني الشخصي مع شعبكم الصبور الذي دفع في حرب «عاصفة الصحراء» ثمن حماقات دكتاتور قذر. كما انني آسف لما جرى لأنني جرّبت أيام الحرب عندما كنت شاباً وعرفت مآسيها الدموية. اتمنى لكم اقامة سعيدة في برلين!

«أحد المشاركين»

سلطة مهترئة

منذ بضعة أسابيع، يشاهد العراقيون باستغراب كل مساء تقريباً على شاشة التلفزيون رؤوساء العشائر يمرون أمام رئيسهم ليؤكدوا له ولاءهم وليقدموا اعتذارهم عن «السلوك التمردي لبعض المخربين الاجراء» في مناطقهم. ان هذا المشهد يبدو طبيعياً في العراق لو لم يكن ممنوعاً في العراق، منذ بضع سنوات، استخدام الالقاب أو الانتماء العائلي. أو القبلي. ولكن منذ اضطرابات آذار وافلاس الحزب العفلقي، لعدم التنبؤ بها أو احتوائها والردّ عليها، يبدو ان صدام حسين بات يعتقد ان الولاء والوفاء القبلي يمثل دعماً أقوى من الارتباط الحزبي.

وقد ذهب إلى أبعد من ذلك، مؤخراً عند استقباله لوفد من منطقة الكوت، حيث اعتذر جهاراً، مؤكداً بأن نظامه «اخطأ عندما حرّض الشعب ضد الاقطاعيين». فمنذ بدء الاضطرابات الشعبية في جنوب وشمال البلاد، شرع الرئيس بتجميع القبائل السنية، عاقداً الاجتماعات في كل من الموصل وديالى، وتكريت والرمادي، أي المناطق التي تؤلف «المثلث السني»، وذلك ليقنعهم ويبين لهم بأنه «أمام التجاوزات الشيعية والكردية». وليس أمام هذه العشائر خيار آخر سوى اسناده.

ان هذا الخطاب العشائري لا يجوز التقليل من شأنه وتأثيره في بلد حيث لا يزال الانتماء القبلي قوياً جداً رغم قبضة الحزب. ان العلاقات مع القبائل، وهي من المعطيات الجديدة التي يجب أخذها بالحساب، اصبحت أحد العناصر التي يتوجب على النظام تنظيمها مستقبلاً، هذا ويقال ان الزوار الجدد يجري جزل العطاء لهم في القصر الجمهوري.

ثلاثة وعشرون عاماً بعد انتصار حزب عفلق وحضوره الطاغي في جميع مراتب المجتمع، فان الاقرار بافلاس الحزب ربما هو أمرٌ يتسم بالمرارة ولكن السلطة تسعى لمعالجته.

ان هذا الجهاز الذي كان يجند ١,٧ مليون شخص، أي ما يعادل ١٠٪ من السكان، كشف عن عدم فعاليته في مواجهة الخصوصية الدينية الشيعية في الجنوب أو الخصوصية القومية الكردية في الشمال. وكما يشرح أحد الكوادر السابقة «فان عدداً من المسؤولين قد فرّوا وآخرين لا يزالون مختفين. أما اولئك الذين تمكنوا من البقاء أحياءً فيجب عليهم الآن تقديم اجابات عن مواقفهم أثناء الاضطرابات».

واذا كان عدد الاعتقـالات من بين الاعضاء الحزبيين لا يزال مجهولاً، فان هذه الاعتقالات تشمل، في جميع الأحوال، بكل المستويات ولم يفلت منها المسؤول السابق للبعث لمنطقة الفرات-الاوسط (وتشمل بابل، كربلاء، النجف والحلة) عضو القيادة القطرية عبد الحسين راهي فرعون، اذ يُقال انه تحت الاقامة الجبرية وجرى استبداله. من ناحية أخرى، فان مسؤولي الحزب، في المناطق التي شهدت اضطرابات، قد جرى نقلهم، بعد الاحداث، إلى مناصب أخرى أو إلى محافظات أخرى.

والعلاج الثاني يتمثل في اجراء «انتخابات» داخل الحزب، لأول مرة منذ عشر سنوات، في الوقت الذي يجب ان تجرى كل ثلاث سنوات. ويجري تنظيم هذه الانتخابات حالياً بهدف إعادة هيكلة الحزب ومحاولة اعطائه نَفَساً جديداً تحت اشراف هيئة مؤلفة من أربعة اعضاء: عزة ابراهيم وطه ياسين رمضان ومحمد حمزة الزبيدي وعلي حسن المجيد وزير الداخلية، وقد كُلِّف الأخير بمهمة اعادة تقييم سلوك الاعضاء، وبشكل خاص دورهم أثناء الاضطرابات الداخلية.

ان هذه الدراسة سوف تؤدي إلى تقليص مهم في عدد المنتسبين (يقال ما بين ٣٠٪ إلى ٤٠٪)، اذ يقدّر النظام من الأفضل ان يضم الحزب عدداً أقل ولكن أكثر ولاءً بدلاً من كثيرين يصعب السيطرة عليهم. من المفترض ان تؤدي هذه «الانتخابات» إلى تشكيل قيادة قطرية جديدة للحزب، مما يسمح بتصفية بعض الوجوه المعروفة جداً، أو يمكن ان تستخدم ككبش فداء (مثل الوزير السابق للاعلام السيد لطيف الجاسم). كما يجري الحديث عن ادخال «وجوه جديدة»، مثلاً حسين كامل حسن، صهر الرئيس القوي ووزير الدفاع، الذي يعتبر أكثر تأهيلاً للسيطرة على المستقبل وللتفاهم مع الاحزاب الجديدة، التي سيجري انشاؤها، طوعاً أو قسراً من أجل تجسيد «التعددية»: أي الاحتفاظ بنفس المسرحية، ولكن بديكور جديد بمعنى ما.

ان قانون التعددية لا يزال ينتظر المصادقة بعد ان جرى التصويت عليه في البرلمان، ولكن القانون بصيغته الحالية يُمثل تحدياً للديمقراطية، حيث ان القيود والقواعد المفروضة على تشكيل الاحزاب الجديدة هي على درجة من التحديد بحيث يقول العراقيون «من أجل الظهور بمظهر «الديمقراطية» ستقوم السلطة، بالقسر أو بالمال، بتعيين المسؤولين الذين سيكونون على رأس هذه الاحزاب، وسوف لن يكون أمامهم خيار آخر سوى لعب الدور المنتظر منهم».

ويقر أحد السجناء السابقين بأن «الديمقراطية والعراق هما اليوم كلمتان متناقضتان» ويعلق باقتضاب على اعتقاله: «في السجون العراقية، في كل دقيقة تفضِّل الموت.» أما ازاء العفو الأخير عن السجناء السياسيين وعن الهاربين من العسكرية، فتراه متشككاً جداً

شأنه شأن عدد من مواطنيه، اذ يقول: «بالتأكيد، سوف لن يكون هناك سجناء سياسيون حسب فقرة قانون الجزاء التي تعاقب تنظيم المجموعات السياسية، ولكن المتهمين سوف يقعون تحت طائل المادة ١٩٣ على سبيل المثال التي تعاقب الجواسيس. فاعضاء الحزب السابقون يمكن ان يتهموا بأن لهم علاقة بسوريا، أما المعتقلون المنتسبون إلى حزب الدعوة فيتهمون بالتعاون مع ايران، والشيوعيون بالتعاون مع الاتحاد السوفييتي. فكل ذلك لن يغير شيئاً».

الجيش لم يعد موضع ثقة تامة:

ان العشرين الف شخص (رقم ذكره في احدى المرات عدي ابن الرئيس) اضافة إلى الآلاف من المفقودين الذين تم اعتقالهم أثناء اضطرابات آذار متهمون على سبيل المثال بجرائم القتل والاغتصاب والسرقات والتخريب، وهي جميعاً «جرائم» لا يشملها قرار العفو باعتبار معركتهم كانت سياسية حقاً. كما ان الدعوة الأخيرة إلى حرية الصحافة قد أدت إلى توقيف أحد صحفيي الجريدة الرسمية جداً التابعة للجيش (القادسية) وهو السيد ضرغام هاشم الذي تم اعتقاله منذ ما يقارب الشهرين أمام وزير الاعلام لأنه كتب مقالاً انتقادياً بخصوص القانون الجديد للصحافة قيد الاعداد، ومنذ ذلك الحين لم يسمع أحد أخباره.

ان مشروع الدستور الجديد قد اكمل اعداده منذ تموز ١٩٩٠ ولا يزال تحت الدراسة. ولكن باستثناء بعض المجموعات، كالاحزاب الكردية أو القادة الدينيين المسيحيين، فانه لا يثير سوى اهتمام ضئيل لدى العراقيين الذين يعرفون ان كل ذلك سوف لن يغير شيئاً جوهرياً، من قبضة قوى الأمن على حياتهم اليومية، بل على العكس.

واذا ما كان العراقيون يواصلون فعلاً ادانة النظام، ولكنهم يفعلون ذلك بمزيد من الخشية، حيث أن فسحة «الحرية» التي برزت فوراً ما بعد الحرب، تنغلق شيئاً فشيئاً بقدر ما تستعيد السلطة السيطرة على الشارع. ولكن هذه السلطة قد فقدت، مؤقتاً، بانهيار الحزب أحد اعمدتها التقليدية.

أما السند الآخر للنظام، الجيش، فانه لم يعد مؤتمناً تماماً، وكما يقول أحد الضباط «لم يعد هناك اليوم سوى ١٠٪ من الجنود على استعداد للقتال في حين بلغت نسبة الغياب ٢٥٪ بين المراتب.» ان الظروف المادية للجنود في حالة سيئة جداً وروحهم المعنوية منخفضة جداً رغم ان التسريح الذي يتسارع لأجل التخفيف من أعباء الدولة يقلق الجندي الذي يستلم، على كل حال، حداً أدنى من الغذاء في وحدته ليعيش.

غير ان المزايا المهمة التي يتمتع بها الضباط، الذين ارتفعت رواتب المستحقين منهم مؤخراً، تدعو مع ذلك إلى الحذر بشأن ردود الفعل المحتملة للجيش، الذي تعرض بلا شك إلى الاذلال بسبب الهزيمة، ولكنه تحت الرقابة الشديدة. فليس من باب الصدف ان لا يسمح قانون التعددية سوى للحزب العفلقي بالعمل داخل الجيش وقوى الأمن.

أما الحرس الجمهوري، الذي يجري تدليله أكثر من الجيش والذي يبلغ تعداده مئة الف شخص موزعين على عشر فرق، فانه يبقى جهازاً أميناً. ولكن ينبغي التمييز بين منتسبي الجهاز الذين تم اختيارهم على أساس انتمائهم العشائري والعائلي بالمفهوم الواسع، أي بسبب ولائهم، وبين اولئك الذين يجري تعيينهم من بين جميع الطوائف والفئات على أساس انجازاتهم العسكرية. فالروح المعنوية لدى الأخيرين تختلف عما هي لدى المجموعة الأولى، اذ شهدت صفوفهم حالات هروب. واحد هؤلاء الهاربين من صفوف الحرس الجمهوري الذين التقينا بهم في بغداد، شرح لنا بان في وحدته عدداً من زملائه هربوا أيضاً بسبب الانهاك الذي يتعرضون له نتيجة وضعهم في الصفوف الاولى أثناء قمع الاضطرابات الداخلية. ففي كربلاء، دفع الحرس عدة آلاف من القتلى ثمناً للاسترداد الدموي للمدينة.

•

«الشعب ليس جيداً بما فيه الكفاية»:

في الوقت الحاضر، تعزف قوى الأمن عن البحث عن الهاربين خوفاً من استثارة حركات معادية في المدن. ولكن مع ذلك ولاعتبارات أمنية، وزعت فرق الحرس الجمهوري على عموم البلاد، وحسب أحد الدبلوماسيين، انها تنتقل كثيراً. ويضاف إلى الحرس الجمهوري، القوات الخاصة التي تتألف من أربعين إلى خمسين رجلاً يجري اختيارهم من بين صفوف هذا الجهاز، وهم مسلحون جيداً ومدربون ومكلفون خصيصاً بمحاية أمن الرئيس.

وتبقى قوى الأمن، التي يقودها اقارب صدام حسين، والتي يصعب تقدير تعدادها، أحد العناصر الأكثر ولاءً للنظام، بل لا شك انه الجهاز الذي يستند اليه اليوم الرئيس العراقي. وحسب تقديرات البعض، فان الوضع الدقيق الذي يعيشه العراق لا يمكن ان يقلقهم لانهم يعرفون أن مصيرهم مرتبط بمصير الرئيس. ويقول أحد السياسيين: «ادرك اعضاء الحزب أثناء الاضطرابات، بانهم كانوا الضحايا الأولى، لذلك فان هؤلاء الوكلاء، أكثر تورطاً بكثير من الاعضاء الحزبيين، يعرفون بانه ليس لديهم منجى بعد صدام». ان هذا الرأي ينطبق على كل القادة العراقيين القريبين من السلطة مما يحدّ من احتمال حل

داخلي طالما ان النظام ككل ككتلة يرفضه الشعب.

رغم طابعها الوهمي، فهل يمكن ان تقلق الديمقراطية على المدى البعيد، أعمدة النظام هذه لأنها ترى فيها علامة ضعف؟ «بالتأكيد ليس الآن» يجيب أحد العارفين جيداً بالنظام، «لأنه تم الشرح لهم بأن كل ذلك ليس سوى مجرد رياح وأنه ليس هناك ما يخشوه».

فاذا كان الرئيس صدام حسين اليوم يبدو وكأنه قد شدد الامساك بمقاليد السلطة، فهذا لا يمنع بأن على النظام حل مسألتين داخليتين مهمتين: القضية الكردية، التي تبقى إلى حد كبير مشروطة بموقف الحلفاء وبمدى أهمية الدعم الذين هم على استعداد لتقديمه للاكراد، وكذلك المعادلة الشيعية هذه الطائفة التي تشكل الأكثرية وتشعر بأنها مضطهدة أكثر من أي وقت مضى.

ولكن شيئاً أكيداً رغم كل ذلك، هو ان الرئيس العراقي ليس لديه أدنى نيّة للتخلي عن السلطة، وكما يقول أحد السياسيين بمرارة «انه يفكر ولا شك ان العراقيين خونة لأنهم لم يستطيعوا تحقيق احلامه بالمجد وبالقوة، وبشكل من الأشكال، فانه يعتقد بأن شعبه ليس جيداً بما فيه الكفاية، ولا يمكنه ان يتصور بانه هو قد اخطأ».

فرانسوا شيبو

عن (اللوموند) باريس ٤ ـ ٥/ آب

نتحمل المسؤولية الأخلاقية

أجرى الصحفي بيتر مقابلة مع گالبريث*، رئيس مستشاري لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ الاميركي، حول موقف الولايات المتحدة الاميركية قبل وما بعد الحرب، وفيما يلي ترجمتها:

● هل فشلت السياسة الاميركية؟ ما توقعه معارضو الحرب قد تحقق:- الكويت تحترق، ملايين من اللاجئين، هذا بغض النظر عن اوضاع الشيعة في جنوب العراق، أكثر من ١٠٠ الف قتيل وفوق كل ذلك تم تنصيب عائلة اقطاعية في الكويت.

ـ أنا لا اعتقد ان الولايات المتحدة الاميركية قد خططت لسياسة فترة ما بعد الحرب. لم

أكن مضطراً أن أكون ضد الحرب. ولكن من يتخذ قراراً بخوض حرب يجب ان يكون متمكناً من التعامل مع نتائجه. الانتفاضة ضد صدام حسين كانت متوقعة تماماً. الشعب العراقي يحتقر صدام حسين لنفس الاسباب التي نحتقره أنا وأنت. أعتمدوا علينا لتحريرهم وقد خيبنا أملهم، ان جزءاً من النقد الموجه ضد السياسة الاميركية هو ان هذه السياسة نجحت جزئياً وهو يتمثل بتحرير الكويت وفشلت. . .

وهنا يقاطعه الصحفي: إعادت النظام غير الديمقراطي. . .

. . . وفشلت بتحرير العراق ويتمثل هذا الفشل ببقاء الرجل والنظام الذي تسبب بالأزمة في السلطة. اعطيك الحق هناك مليونان من اللاجئين، ١٠٠ الف قتيل ربما كنتيجة للحرب الأهلية. واعطيك الحق أيضاً في تشخيصك لمشكلة الشيعة. ٥٥٪ من السكان العراقيين هم من الشيعة، لقد كانت هناك حقاً انتفاضة شاملة وقمعت بشكل عنيف ولا نعرف الكثير عن الانتفاضة لحد الآن لأننا لم تكن لدينا بعثات تلفزيونية في جنوب العراق، المنطقة غير جبلية لكي يستطيع الناس اللجوء اليها لحماية أرواحهم.

كان المنتفضون في المدن قد طوّقوا جميعاً وحصدوا بمختلف أنواع الاسلحة. وبالتأكيد يجب ان تحظى قضية الشيعة باهتمام أكبر، وهنا لابد من القول ان الحرب قد حققت جزءاً من الاهداف المرسومة.

● انكم ما زلتم تطالبون باقامة مناطق أمنية للاكراد في شمال العراق. وكانت الولايات المتحدة الاميركية قد اسندت الاكراد بشكل مباشر في أوقات سابقة ثم تركتهم فجأة لوحدهم. لماذا تغيرت هذه السياسة فجأة باتجاه تقديم دعم وعون دائميين للاكراد؟

ـ دعمت الولايات المتحدة الاكراد كوسيلة لتحقيق هدف آخر، كانوا جزءاً من اللعبة التي خطط لها نيكسون وهنري كيسنجر ولم يعلم الاكراد بانهم جزء من هذه اللعبة. ولذلك اعتقدوا ان الولايات المتحدة الاميركية تدعمهم فعلياً.

● والآن تلعبون انتم نفس اللعبة؟

ـ طبعاً لقد خدعوا الاكراد، ليس هناك حالياً أية صلة مباشرة بين الاكراد والولايات المتحدة. ولكن الرئيس الاميركي قد شجع الشعب العراقي على ان ينتفض ضد صدام، وطبيعي أن الاكراد يشكلون ٢٥٪ من مجموع سكان العراق. اعتقد الاكراد من انهم سوف يُدعمون من قبل الولايات المتحدة الاميركية، وجاءت تصريحات قادة الجيش الاميركي في المنطقة تأكيداً لهذا الاعتقاد حيث نوهوا إلى انهم سيتدخلون عسكرياً ويسقطون أي طائرة عسكرية تستخدم ضد المُنتفضين، ولكننا لم نفعل ذلك. وهكذا هناك شعور كبير بين الاكراد بأن الولايات المتحدة الاميركية قد خيبت آمالهم مرة أخرى.

● ان اعتقـاد الاكراد بأن الاميركان يضمنون لهم الأمن والحماية تدخل ضمن نطاق الموقف الاخلاقي ولكن الاخلاق لم تكن يوماً من الأيام احدى أعمدة السياسة الخارجية الاميركية. لماذا هذا التغيير المفاجىء في هذه السياسة؟

ـ يجب ان نتحمـل المسؤولية الأخلاقية لنتائج الحرب، والتراجيديا الكردية احدى هذه النتائج والجزء الآخر من الحُجج هو كما ذكرتم لأسباب أخلاقية، ويمكن النظر إلى الأمور بشكل واقعي لقد كنا واقعيين جداً في المرحلة التي احتل فيها صدام حسين الكويت أو كانت تبدو سياسة واقعية. عندما هاجم العراق ايران لم نفعل أي شيء ضده، وعندما خرق العراق القانون الدولي واستخدم الاسلحة الكيمياوية ضد الايرانيين لم نفعل شيئاً، وحين استخدمها ضد الشعب الكردي ليس فقط ضد البيشمركة وانما السكان المدنيين الابرياء أيضاً لم يفعل الرأي العام العالمي شيئاً. الحكومة الاميركية عرقلت وبكل قوة أي اجراء لمقاطعة العراق استجابة لطلب عدد كبير من أعضاء الكونغرس الاميركي.

وهنـا لابـد أن أقول لو كنا آنذاك منطلقين من موقف اخلاقي واتخذنا الاجراءات الـلازمـة ضد صدام حسين عنـدما استخدم الغاز الكيمياوي وذبح الشعب الكردي في العراق، لما تمكن صدام حسين لاحقاً من احتلال الكويت، كما اعتقد.

واعتقد ان صدام حسين استنتج الكثير من السياسة «الواقعية» التي انتهجناها، وكما ذكـرت اعلاه، ولاسيما اعتقاده ان الرأي العام العالمي سوف يقف مكتوف الأيدي ازاء أفعاله باستثناء القيام باحتجاجات سطحية. ولكنه استبعد أي رد فعل مادي، ولهذا التقدير الخاطيء لصدام حسين كلف الشعب العراقي الكثير وكذلك الكويتيون دفعوا ثمناً باهظاً. ولكن الغرب أيضاً دفع ثمناً باهظاً، فالالماني الذي يواجه تكاليف الوحدة الالمانية الباهظة يستـطيع ان يُقدر ماذا تعني بالنسبة له تخصيصُ مبلغ ٥٤ مليار دولار انفقت على هذه الحرب وكيف كان من الممكن ان يكون وضعه لو أنفق هذا المبلغ على الوحدة الالمانية.

أقول مثلاً لو خصص هذا المبلغ كمساعدة لبناء الديمقراطيات في اوربا الشرقية أو للقضاء على مشاكل البيئة. بهذه السياسة «الواقعية» قد الحقنا الضرر بمصالحنا واثبتنا ان سياستنا تكلف بلداننا الكثير. ولو انطلقنا من موقف اخلاقي وتعاملنا اخلاقياً مع الاحداث لكان ممكناً ردع صدام حسين عن احتلال الكويت والكوارث التي نجمت عن ذلك.

● كيف تنظر إلى نتائج المفاوضات بين الاكراد والحكومة العراقية خاصة بعد ان كُشف النقاب عن بعض تفاصيل خطة للحكم الذاتي؟

ـ النتائج التي كشف النقاب عنها على الورق جيدة ومقبولة مثلاً اجراء انتخابات حرة في منطقة الحكم الذاتي خلال فترة ثلاثة أشهر وانتخابات ديمقراطية في كل أنحاء العراق في

فترة أقصاها ستة أشهر وتعويض المصابين بالاسلحة الكيمياوية واعادة سكان القرى المهدمة إلى ديارهم وتعويضهم وتخصيص اذاعات البث المرئي والسمعي للاكراد، كل ذلك شيء جميل ولكن المشكلة تكمن في حقيقة ان صدام يُجري المباحثات عندما يكون ضعيفاً كما حصل في عام ١٩٧٠ ، نفس الشيء حصل عند بدأ الحرب العراقية ـ الايرانية، وهو الحال اليوم أيضاً، وفي كل مرة يُعيد بناء قوته ويمزق كافة الاتفاقيات ويبدأ من جديد بقتل الاكراد. وهكذا عند كل اتفاق يقول شيء والواقع شيء آخر، وفي هذه الحالة على الغرب ان لا يعتمد على اتفاقيات صدام حسين.

● ما هي مصلحتكم المفاجئة في ان تجرى في العراق انتخابات حرة أو انتخابات في منطقة الحكم الذاتي، وما هي مصلحة الاوربيين والأمم المتحدة وبالأخص من تخصيص مناطق حماية للاكراد في شمال العراق، وخاصة اذا أخذنا بنظر الاعتبار أنكم كنتم تخافون من هكذا تطور ديمقراطي في المنطقة وتراهنون على رجل قوي من بغداد، ليس بالقوة الكافية للاعتداء على جيرانه ولكن بالقوة الكافية للقضاء على معارضيه؟

ـ انني اتفق معك ان الولايات المتحدة الاميركية والبلدان الأخرى تفضل رجلاً عربياً وسُنياً للحكم في بغداد ولكننا يجب ان ننظر إلى ثمن هذه السياسة، لقد كانت هناك حرباً كلفت اضطهاداً وحشياً للسكان العراقيين وكان الثمن أيضاً تعذيب الأطفال والقتل الجماعي. واعتقد ان هذا الثمن باهض جداً. وهنا لابد من البحث عن بديل آخر والبديل لا يمكن إلا ان ندع الشعب العراقي يحكم بنفسه. ولما كانت نسبة ٥٥٪ من سكان العراق من الشيعة ونسبة ٢٥٪ من الاكراد فهذا يعني ان يجري القبول بوضع آخر وبطريقة حكم أخرى غير ما ساد في بغداد حتى الآن.

● هل هناك من الحكومة الاميركية من يشاركك رأيك هذا، واعتقد ان هذا الرأي يختلف عن ما هو سائد في الحكومة الاميركية؟

ـ اني أقول ذلك بصفتي موظفاً في الحكومة الاميركية وموظفاً في الكونغرس. لقد كان هناك ضغط كبير من الكونغرس على الحكومة ان تغير سياستها في نيسان. فبعد ٢٧ شباط لم تكن لدى الحكومة الاميركية الرغب في الاهتمام بشؤون العراق وارادت ان تدير ظهرها عن الموضوع. ولكن الرأي العام الاميركي وضغط الكونغرس دفعا الرئيس الاميركي لمساعدة الاكراد أولاً ومن ثم في ١٦ قبلت التدخل في العراق مُجدداً.

وما زالت مناقشة هذه المواضيع مستمرة وآمل ان ترتفع أصوات كافية تدعو إلى انتهاج سياسة تدعم عملية الديمقراطية في العراق، وبذلك يجري التعبير أيضاً عن القلق على مصير ومستقبل الاكراد. وربما تتغير السياسة الاميركية بهذا الاتجاه.

● ألا يجب ان تتوافق كافة القرارات بخصوص حماية الاكراد مع مصالح عضو الناتو تركيا آخذين بنظر الاعتبار ان هناك في تركيا قضية اسمها القضية الكردية؟

ـ هناك مخاطر جدية بهذا الخصوص ولكن الحقيقة هي ان الوضاع الذي نتج من الاضطهاد الوحشي لأكراد العراق صار عاملاً لزعزعة استقرار تركيا أو كان من الممكن ان يتطور بهذا الاتجاه، وعليه فان اتفاقاً ما لأكراد العراق وخلق وضع أمني جديد هو في الحقيقة من مصلحة تركيا، واذا تركنا صدام حسين يفعل ما يريد بالاكراد فسوف يلتجأون مرة أخرى إلى تركيا وهذا يشكل عامل ضغط على الحكومة التركية ولهذا اعتقد من اتفاق الحكم الذاتي وحماية الاكراد هما بالفعل من مصلحة تركيا. واعتقد ان الحكومة التركية تنظر لهذه القضية بنفس المنظار، فالرئيس التركي أوزال قد دخل أيضاً بمفاوضات مع أكراد العراق وهذا يعني انه ينتهج سياسة واقعية جديدة.

● ألا يبدو ان الاميركان كانوا يخططون لاقامة قواعد عسكرية دائمية وتثبيت اقدامهم هناك في المنطقة، فهل تعتقد وبحجة حماية الاكراد سيحققون هذا الهدف والعالم سوف يصفق لذلك؟

ـ اعتقد ان الحكومة الاميركية كانت تنوي فعلاً مغادرة المنطقة بأسرع وقت ممكن باستثناء ابقاء الاسطول الموجود أساساً منذ عام ١٩٤٧ وليس هناك من يطالب بانشاء قواعد عسكرية في المنطقة.

ان تكاليف انشاء قواعد عسكرية أصبحت باهظة الثمن بعد انتهاء الحرب الباردة، المشكلة القائمة الآن في شمال العراق هي ان القوات الاميركية تنسحب بسرعة من المنطقة دون ضمانات كافية للاكراد، فعلى الولايات المتحدة الاميركية ان تبقى في شمال العراق إلى حين انشاء قوات عسكرية أخرى أو إلى حين تنظيم قوات من الأمم المتحدة، فالمشكلة تكمن ليس في مخاطر بقاء الاميركان في المنطقة وانما في سرعة خروجهم منها.

---

* بيتر. و. گالبريث استاذ للعلاقات الدولية في عدة جامعات في فيرمونت بعد عام ١٩٨٠ كان عضواً في الوفد الاميركي لاجتماع الهيئة العامة للأمم المتحدة وعضواً عاملاً في لجنة العلاقات الخارجية التابعة لمجلس الشيوخ الاميركي ورئيس قسم تحري الحقائق في هذا المجلس الذي أجرى تحريات حول استخدام العراق للاسلحة الكيمياوية ضد الاكراد. واصدر تقريراً عن النتائج وطبعت كتاباً وثائقياً حول استخدام العراق الاسلحة الكيمياوية ضد السكان المدنيين الاكراد. عام ١٩٩١ كان في كردستان أثناء انتفاضة الشعب الكردي وتمكن من الهرب إلى سوريا.

عن صحيفة (فرايتاك)

الواجب الآن ترجمة النوايا الحميدة

تمر حركة المعارضة العراقية في الوقت الحاضر بمرحلة حرجة وهامة قد تقرر وبشكل جذري مصيرها المستقبلي. فهي الآن على مفترق طريق قد يؤدي إلى شد ازرها وتقويتها بشكل يجعلها في موقف يمكنها من الاطاحة بنظام صدام الدكتاتوري القمعي وبالسرعة التي تتطلبها مأساة الشعب العراقي وأوضاعه الكارثية في الوقت الحاضر أو قد ينتهي بشلها وتفرقها مما يؤدي إلى اضعافها بشكل خطير. إلا ان الدلائل تشير إلى ان المعارضة العراقية بدأت الآن بالدخول في مرحلة ايجابية جديدة تبعث الكثير من الأمل في نهاية نظام القهر والطغيان. وهذا ما استشفه بالفعل وفد المجلس العراقي الحر ولجنة الاتصال المنبثقة عن المؤتمر التداولي الذي عقد مؤخراً في لندن بدعوة من المجلس العراقي الحر والوفاق الوطني واتحاد الديمقراطيين العراقيين، خلال الزيارات التي قام بها إلى الجمهورية العربية السورية والمملكة العربية السعودية والجمهورية الاسلامية في ايران.والتي التقى خلالها بمسؤولي تلك الدول وقادة الحركات العراقية المعارضة المقيمةهناك، بالاضافة إلى الاتصالات التي جرت بالحركات العراقية المعارضة المقيمة في اوربا وامريكا.

لقد لمس الوفد روحاً جديدة في التعامل بين قوى المعارضة تتمثل في المرونة وتناسي الخلافات الايديولوجية والعقائدية وارتفاعاً بمستوى التعامل فوق تلك الخلافات، وادراكاً شاملاً لخطورة المرحلة التي يمر بها الوطن والشعب، ولجسامة المسؤوليات الملقاة على عاتقها، وتفهما لأهمية المتغيرات الدولية ودورها في تقرير مصير صدام ونظامه.

كما لمس الوفد أيضاً روحاً ايجابية وتجاوباً صادقاً يصل حد الاجماع تجاه ضرورة اتخاذ موقف موحد إزاء النظام بشكل يضمن الدعم الدولي للاطاحة به بعد ان ادركت ولمست أهمية كسب ذلك الدعم في سبيل ذلك وبعد ان أدركت ان في فرقتها وتباعدها إكسير الحياة لصدام ونظامه.

وبالرغم من كون الروح الايجابية تجاه التنسيق بين المعارضة وتوحيد صفوفها، بالرغم من كون هذه الروح أساسية وضرورية لتحقيق اهداف المعارضة، فان المصداق الحقيقي لتلك الروح يكمن في العمل الحقيقي والسريع والفعال لتحقيق تلك النوايا.

ان خطورة المرحلة الراهنة تحتم على كافة قوى المعارضة العمل وبأسرع وقت ممكن لعقد مؤتمر عام يؤدي إلى توحيدها لتقدم نفسها إلى الشعب العراقي وإلى العالم بصوت واحد باعتبارها البديل السياسي الحقيقي لصدام ونظامه.

كل الدلائل تشير إلى صدق النوايا والواجب الآن ترجمتها، تلكم مسؤولية المعارضة العراقية وقادتها أمام الله وأمام الشعب وأمام انفسهم.

افتتاحية (العراق الحر) ٨/١٩

الانتفاضة:

الخطة الناقصة والحسابات غير الدقيقة

مع ان عوامل تفجير الثورة أو الانفجار الشامل كانت كثيرة وقوية وعريقة إلا ان شواهد عديدة تدل على ان ثمة خطة ناقصة أو غير ناجحة وضعت لاشعال فتيل الثورة، ونقول ناقصة أو غير ناجحة لأنها اما ان كانت مقتصرة على اشعال فتيل الانفجار ولم تشتمل على ما يعقب ذلك من متطلبات فهي ناقصة واما انها وضعت لتشمل ذلك ولكنها لم تكن مبنية

على حسابات صحيحه وواقعية فهي غير ناجحة. واما ما يخص الحسابات فإننا كنا نشعر بأن اخواننا المعنيين بأمر الانتفاضة لم يدققوا حساباتهم الموضوعية والذاتية فهم لم يدققوا في دراستهم للاوضـاع في العراق وفي المنطقة ولم يدققوا في المستجدات التي طرأت عليها ولم يدققوا كذلك في حساباتهم وامكانياتهم الذاتية واوضاعهم الخاصة. ان التعامل مع القضية العراقية بعد وقف اطلاق النار بين العراق وايران بنفس الذي كان سائداً قبله لم يكن مبنياً على حسـابات دقيقة والاستمرار على نفس النفس بعد احداث غزو الكويت وحضور القوات الاجنبية في المنطقة واتخاذها الصفة الدولية وتخريبها للعراق وقدرتها على التحكم بمصيره هو الآخر لم يكن مبنياً على حسابات دقيقة.

ان وضع العراق اليوم يختلف عن وضعه في السبعينات وبداية الثمانينات ووضع التيار الاسلامي في العراق وفي تحركه السياسي خارج العراق يختلف أيضاً. لذلك لابد من تغيير في المنهج العام للتعامل مع القضية هذه مبني على انه لم يعد بمقدور الحركة الاسلامية ان تقيم في العراق دولة اسلامية في الوقت الحاضر كما هو اعتقاد الحركات الأخرى ذات الاهداف المختلفة.

والغريب من بعض الاخوة انهم يسلكون مع غير اخوانهم على هذا الأساس ولكن يبقى سلوكهم مع اخـوانهم على أساس التصورات السابقة التي تنتظر الفتح بين لحظة وأخرى مما جعلهم وكأنهم يتنافسون على قيادة الأمة أو الثورة أو استلام الحكم فيما بينهم بينما هم مع الأطراف الأخرى يظهرون وكأنهم يريدون حصة وموضع قدم معهم فقط وان تعامل الاسلاميين فيما بينهم وانشغالهم بأمور جانبية جعلهم يتآكلون وتقل قدراتهم فيجب أخذ هذه المتغيرات بنظر الاعتبار عند دراسة الواقع وتقييم الموقف اضافة إلى أخذ طبيعة العراق، ومن الخطأ الذي وقع فيه البعض انهم قادرون على حكم العراق أو ضبط الثورة أو قيادتها بمفردهم وهذا كان واضحاً على الكثير من التصرفات سواء على مستوى العمل الميداني أم على مستوى التنظير في الوقت الذي كانت فيه الأمة غير مستعدة تلقائياً للانقياد إلى أي فصيل من الفصائل والانضباط بتوجيهاته، ان احداث هذه الثورة الشعبية اثبتت وبالارقام صحة مقولتنا السابقة بأن الحركة الاسلامية لم تصل بعد إلى المرحلة القيادية لا من جهة البناء الداخلي للحركة ولا من جهة انقياد الأمة لها.

فهل الى خروج من سبيل؟؟!!

افتتاحية (الاعتصام) ٨ آب

الديمقراطية ومحاولات الوصاية

تطالب فصائل المعارضة العراقية باجمعها بالديمقراطية والتعددية السياسية واحترام حقوق الانسان. وهذه مطالب لا يختلف عليها اثنان من معارضي الدكتاتورية الجاثمة على صدر الشعب العراقي الآن. وتثار الآن وبشكل جدي دعوات لتوحيد المعارضة العراقية في كيان مرحلي واحد لمواجهة الدكتاتورية، وتحت شعار الدعوة للديمقراطية والتعددية السياسية. وهذه قضية لا نختلف عليها. ولكن تظهر بين الحين والآخر محاولات من هذا الطرف أو ذاك لفرض موقف أو احتواء مجموعة. وهذا ما نريد ان نناقشه هنا

ان من المبادىء الأساسية ان ندعو لأن يكون عراق المستقبل غير خاضع لأي ضغط خارجي وان نرفض أي محاولة لفرض أي نوع من الوصاية عليه أو أي تدخل بشؤونه الداخلية. وان من أهم المبادىء الديمقراطية التي ننادي بها ان تتمتع كافة فصائل المعارضة باستقلالية كاملة في اتخاذ قرارها بعيداً عن كل فرض أو وصاية أو أي استغلال لظرف أو لآخر. هذه قضايا يجب ان نقرها حتى عندما نناقش الدعوة لوحدة المعارضة. واننا في الوفاق الوطني العراقي عندما ندعو لوحدة المعارضة فاننا نشترط أساساً عراقية القرار واستقلالية فصائل المعارضة بعيداً عن أي تأثير أو ضغط أو وصاية من هذا أو ذاك. لأننا نعتقد ان العراقيين أدرى بشؤونهم وأمورهم. وأن للآخرين مساعدتنا ومعاونتنا لا فرض الشروط أو الوصاية علينا.

ولأننا نعتقد ان موضوع القبول بوصاية طرف سوف يؤدي حتماً إلى قبول وصاية أخرى، وهذا يجر إلى كارثة. ولأننا نعتقد ان الدعوة الصادقة للديمقراطية تنبع أساساً من استقلالية القرار وعدم الرضوخ للضغوط من أي جهة كانت. لذلك نطالب برفض هذه الوصاية.

اننا في الوقت الذي نثمن ونعتز بكل الدعم والاسناد الذي تلقاه أطراف واسعة من المعارضة من أطراف عربية واقليمية فاننا نفترض ان تلك الأطراف لا تريد التدخل بشؤون العراق أو بشؤون أطراف المعارضة وانما مساعدتها ومعاونتها تنبع عن عطفها على الشعب العراقي الذي يعاني من كارثة جلبها عليه صدام حسين بسلوكياته الهوجاء والرعناء. ولذا فقد ذكرنا في ما كتبناه في (بغداد) منذ اعدادها الأولى اننا نطالب بالمساعدات غير المشروطة من الاطراف العربية شقيقة الشعب العراقي والتي تحرص على العراق ومستقبله والتي تريد ان تعاون العراق في اجتياز المرحلة الصعبة التي يعاني منها.

هذه أسس واضحة نعتمد عليها في دعوتنا لوحدة المعارضة وفي الدعوة إلى عقد الدورة الثانية للمؤتمر العام لقوى المعارضة العراقية. وهي من المتطلبات الأساسية للعمل الديمقراطي السليم.

لذلك فان من المتطلبات الأساسية لما بعد اسقاط صدام ونظامه واقامة الديمقراطية والتعددية ودولة الدستور ان يتمتع العراق بكامل استقلاله السياسي، وان تمارس كافة الاطراف السياسية العراقية استقلالية غير مثلومة، وان يحل الحوار الديمقراطي بشكل فعلي وصادق محل الفرض والوصاية.

أن احترام الرأي الأخر وسماعه ومناقشته ديمقراطياً هو أساس رئيسي في عملية الديمقراطية والتعددية. ونحن نعتقد ان احترام الرأي الآخر بعيداً عن كل وصاية هو ميزة أساسية للمؤمنين فعلاً بالديمقراطية والتعددية وفي غيرها فان الادعاء يكون أجوفاً وغير صادق.

والله من وراء القصد.

عن (بغداد) ٢/٨

ميثاق ٩١ (مسودة أولية)

نحن، رجال العراق ونساؤه . . من مختلف القوميات، والطوائف الدينية والمعتقدات الفكرية، نعلن في هذا الميثاق ما يلي:

١ ـ ان البشر يتمتعون بحقوق لا لسبب إلا بحكم وجودهم. ان هذه الحقوق لا يمكن ضمانها إلا بدستور يجب ان يسبق تشكيل السلطة السياسية المشروعة. ان تأسيس دولة هو وضع مثل هذه الوثيقة التأسيسية التي تتضمن بمادىء هذا التأسيس والقيود المفروضة عليه. ان كل سلطة سياسية تسبق تبني دستور قائم على حقوق الانسان تعتبر مؤقتة أو انتقالية أو غير مشروعة.

٢ ـ ان التحرر من الخوف هو المطلب الأساسي لتحقيق الكرامة المتأصلة في الانسان. وعلى وجه التحديد، يتطلب التحرر من الخوف ان يتضمن الدستور العراقي الجديد ما يلي:

٢ ـ ١ لا يشك بهوية أي عراقي أو عراقية بسبب المذهب أو المعتقد أو الولاء.

٢ ـ ٢ ان الجنسية هي حق غير قابل للالغاء اطلاقاً لكل شخص ولد في العراق، أو ولد لأبوين عراقيين، أو منح الجنسية من قبل دولة عراقية.

٢ ـ ٣ لا يتعرض أي عراقي للتوقيف أو الاعتقال التعسفي.

٢ ـ ٤ لا يتعرض أي عراقي للتعذيب أو المعاملة القاسية أو اللاانسانية أو المهينة.

٢ ـ ٥ لا يعتبر مقبولاً في محكمة قانونية عراقية أي اعتراف بالذنب بغض النظر عن كيفية الحصول عليه.

٢ ـ ٦ لا تجرد سلطة عراقية أي انسان من حقه في الحياة كضرب من ضروب العقاب.

٢ ـ ٧ تقع وطأة العقاب على الفرد دائماً وليس على المجموعة اطلاقاً.

٢ ـ ٨ ان حرية السفر ضمن حدود العراق وخارجها هو حق مطلق غير قابل للانتزاع لكل مواطن.

٢ ـ ٩ يعتبر الاعلان العالمي لحقوق الانسان الذي تبنته واعلنته الجميعة العامة للأمم المتحدة في قرارها المرقم ٢١٧ أي (الثالث) في العاشر من كانون الاول/ ديسمبر ١٩٤٨ ملزماً للنظام القانوني للعراق وجزءاً منه.

٢ ـ ١٠ يفصل من وظيفته فوراً أي مسؤول عراقي يدان بانتهاك أي من المباديء اعلاه وتتخذ أشد الاجراءات ضمن الحدود القانونية.

٣ ـ ان المجتمع المدني هو حيز الارتباط الانساني المتحرر من الاكراه والمنفصل عن الدولة. بهذا المعنى، يعتبر المجتمع المدني هدف نظام سياسي قائم على حقوق الانسان. ان التمدن الخلقي هو مجموعة العلاقات التي يشكلها الاشخاص لملء ذلك الحيز من أجل الأسرة أو المعتقد الديني أو المعتقد الفكري أو المصلحة. ان عملية الاختيار الشخصي المتحرر من الاكراه هي بحد ذاتها، وبغض النظر عن موضوع الاختيار، تشكل المجتمع المتمدن وتحقق خير البشر.

لقد انتهك المجتمع المتمدن في العراق من قبل الدولة بأسم الايديولوجية أو المذهب السياسي. وقد اسفر ذلك عن تدمير العلاقات التي من خلالها يتولد التمدن الخلقي. إن الشر الأعظم يكمن في افساد الاواصر الاجتماعية التي تجمع ضحايا ذلك العنف. لقد حدث انهيار للقيم في العراق يتوافق مع تدمير المجتمع المتمدن. ان أول مهمة للسياسة هو رفض البربرية واعادة بناء المجتمع المتمدن.

٤ ـ ان اعادة بناء المجتمع المتمدن يعني الارتقاء بالتسامح إلى قاعدة عامة جديدة تعلو على المذهب السياسي والاجتماعي. ان التسامح في قضايا السياسة والدين والعرق والقيم الاخلاقية الشخصية هو البديل الحقيقي الوحيد للعنف وحكم الخوف. ان

الامكانيات الخلاقة الكاملة للعراقيين، التي نؤمن بها ايماناً صادقاً، لن تظهر في الوجود إلا عندما تشتعل جذوة التسامح في القلوب والعقول مثل اشتعالها في بنيان النظام السياسي العراقي.

ان التسامح هو الحل لمشكلة الاختلاف العرقي والديني والسياسي. ان الحرية هي حرية التفكير بشكل مختلف، والعيش بشكل مختلف، والتعبير بحرية في مختلف الاتجاهات.

ان التسامح هو ايجاد طرق لتحمل هذه الاختلافات. فهو الصبر على الاشياء التي لا يحبها المرء، بل وحتى قد يعتبرها منافية للقيم الاخلاقية. فلا يتحمل المرء ما يتمتع به أو يرضى عنه تمام الرضى.. لذلك يعتبر الاختلاف العامود الفقري لمبدأ التسامح. اننا نختار تحمل الاشخاص الآخرين والاديان والمجموعات العرقية المختلفة لأننا ندرك ان للتسامح قيمة أكبر من محاولة ازالة الاختلافات.

إن التسامح يمجّد الوضع البشري. فهو يضع أعلى قيمة ممكنة لحياة الانسان في جميع وجوهها المتنوعة السامية، ان الانسان المتسامح يمقت الموت ويعشق الحياة بحد ذاتها، الحياة الخالية من أي اعتبار آخر.

ان التسامح هو قيمة أرقى من الولاء بحكم روابط الدم، أو من أجل نقل تراث مشترك إلى الاجيال القادمة. انه أرقى من التوكيد القومي الشعائري. ان التسامح هو أعلى قيمة متمدنة خلقتها البشرية.

إلا ان للتسامح حدود، ان القيد الوحيد المقبول على التسامح هو استعداد كل فرد للتصرف وفقاً لنفس القواعد. ان التسامح لن يشمل اولئك الذين يبطلون حكمه عن طريق العنف.

٥ ـ ان التمثيل البرلماني الديمقراطي هو النظام الأساسي في جمهورية التسامح.

ان الديمقراطية هي تنسيق عملية تمثيل الاختلافات بين أفراد الشعب عن طريق المؤسسات، وليس الحكم بأسم هذا الشعب. ان الديمقراطية هي مجموعة الحقوق التي يضمنها الدستور والتي تحمي الجزء، أو الأقلية، من طغيان المجموع، أو الأكثرية، وعندما يتم هذا الضمان تصبح الديمقراطية حكم الأغلبية. ان الفكرة الأساسية هي ان الأغلبية لا تحكم إلا بسبب كونها أغلبية، وليس لأنها تحتكر الحقيقة.

إن الجزء المصان قد يكون مجموعة عرقية كاملة أو أقلية دينية أو طائفة دينية معينة، أو حتى مجموعة من الاشخاص الذين يريدون التعبير عن رأي سياسي يمثل أقلية. وفي نهاية المطاف يصبح هذا الجزء الفرد الواحد، عندما تعني الديمقراطية حماية حق هذا الفرد في ان يعيش كيف يشاء وان يكون مختلفاً عن الآخرين.

ان الـديمقراطية هي ضمان حرية كل فرد في المشاركة في تحديد مصير سياسي مشترك. اننا نحقق معرفتنا بانفسنا أفضل تحقيق كأفراد يقترحون ويناقشون ويقررون. إن المهم هو النشـاط السياسي المنـظم من خلال المؤسسـات، وليس النتيجـة السياسية النهائية. ومن جهة أخرى، فان من الرائع حقاً ان الديمقراطية هي أيضاً حق ترك الفرد وشأنه وحقه في عدم التدخل في السياسة.

٦ ـ لم يعد بالامكان بعد الآن الدفاع عن الفكرة القائلة بأن القوة الحقيقية تكمن في جيوش كبيرة قائمة واسلحة دمار متطورة. ان الجيوش في البلدان النامية تهدد الديمقراطية وتضعف المجتمع المتمدن. ان القوة تنبع دائماً من الداخل، وتكون متمثلة في امكانيات الشعب الخلاقة الثقافية المنتجة للثروة. إن القوة تكمن في المجتمع المتمدن، وليس في الجيش أو في الدولة. ولهذا السبب، فعلاوة على الضمانات الدولية والأقليمية الخاصة بوحدة اراضي العراق، فان الدستور العراقي الجديد ينبغي ان:

٦ ـ ١ يحرم التجنيد الالزامي إلا في أقصى حالات الطوارىء في البلاد.

٦ ـ ٢ يضع حداً أعلى للانفاق لاغراض الدفاع والأمن الداخلي مساوٍ للانفاق في أوطأ ميزانية سواء أكانت ميزانية الصحة أو التعليم أو الاسكان.

٦ ـ ٣ تنص مادته الأولى على ما يلي:

«إن الشعب العراقي، في طموحه الصادق لتحقيق سلام دولي مستند على العدل والنظام، يتخلى إلى الأبد عن الحرب كحق سيادة للأمة، وعن التهديد بالقوة أو استخدامها كوسيلة لتسـوية النزاعات الدولية. ومن أجل تحقيق هذا الهدف يتخلى وإلى الأبد عن القوات البرية والبحرية والجوية وغيرها من امكانيات الحرب. ولن يتم الاقرار بحق الدولة العراقية في المشاركة في الحروب».

٧ ـ ان قرار وقف اطلاق النار رقم ٦٨٨ الصادر عن مجلس الأمن للأمم المتحدة مجحف بحق الشعب العراقي. فالتعويضات عن أضرار الحرب التي يفرضها القرار تسلب الكثير من الموارد المطلوبة عن عملية الاعمار المدني. وينبغي التفاوض على مضمون القرار نظراً لأن العراق بحكم دستوره الجديد لن يكون خطراً يهدد اقطار المنطقة.

٨ ـ ان ميثاق ٩١ هو ليس منظمة،فليس له قواعد أو اعضاء رسميين. إنه حملة لجمع التواقيع تدعو إلى وضع دستور مكتوب للعراق ينبع من تجربة جماعية في المناظرة والنقاش.

إن ميثاق ٩١ يشمل كل شخص يتفق مع فحوى أفكاره ويرغب في التوقيع عليه. ان الميثاق يلزم نفسه بنشر آراء الموقعين عليه الخطية على شكل كتيب وتوزيع هذه على جميع

الموقعين الآخرين بكلفة الاصدار. لا يعتبر أي بند في هذا الميثاق ملزماً لأية إتفاقية دستورية للعراق في المستقبل، ويجب على جميع الموقعين الادلاء باسمائهم الكاملة والحقيقية، ويمنح كل موقع اذناً بنشر اسمه دون تقييد كجزء من الجهود الرامية إلى ترويج الميثاق.

٩ ـ يرمز الميثاق في عنوانه إلى عام رهيب في تاريخ العراق.

إن ١٩٩١ هو عام حرب مدمرة غاشمة قضت على البنى الأساسية في البلاد واسفرت عن مجاعة وامراض لم يسبق لها مثيل في تاريخ العراق الحديث. انه العام الذي انتفضت فيه أعداد كبيرة من العراقيين ضد الشر الذي أصبح المعيار السائد في بلادهم. كما انه العام الذي سُحقت فيه تلك الانتفاضة عن طريق التدمير الوحشي التام للمدن والخسائر الفادحة من الارواح.

إن ميثاق ٩١ هو سبب مختلف لتذكر عام ١٩٩١، فبوجوده يبرهن هذا الميثاق على تحطم حاجز الخوف. فبعد اليوم، لن ننكس نحن العراقيون رؤوسنا خجلاً ولن ندع العنف يحكم بأسمنا.

أنا الموقع ادناه أؤيد الميثاق ٩١

الاسم

العنوان

التوقيع

«بسم الله الرحمن الرحيم»

ـ بيان تأسيس الهيئة العراقية المستقلة ـ

بعد الاتكال على الله وانطلاقاً من رغبة الملايين من أبناء شعبنا العراقي المناضل المستقلين وهم الكثرة المناضلة الصامتة والصامدة مع بقية أبناء شعبنا العراقي. ولغرض تنظيم صفوفنا جميعاً لاسقاط النظام الخائن في العراق والتخلص منه ومن كافة اجهزته الارهابية المقيتة وبشكل نهائي.: هذا النظام الذي أوصل العراق إلى حالة البؤس والشقاء الذي هو عليه الآن والمعاناة التي لم تحدث لأي من شعوب العالم.

فقد قررنا متوكلين على ارادة الباري عز وجل وعلى ارادة شعبنا العراقي الخيرة القيام بعمل سياسي مشترك وفق الأهداف والمبادىء الكفيلة بانقاذ شعبنا.

لقد قمنا نحن الموقعين على هذا البيان اللواء الركن حسن مصطفى النقيب والسيد طالب حسين الشبيب نيابة عن الاخوة المؤسسين لهذا التنظم السياسي حفظاً على أمنهم من جهة وتواضعاً كريماً منهم حيث خولونا الاعلان مشكورين على البيان، ونحن بدورنا نمد ايدينا إلى كافة اخواننا المناضلين من أبناء شعبنا العراقي من شماله إلى جنوبه احزاباً وتنظيمات وتجمعات وافراداً مستقلين للعمل وفق ما يلي:

بعد الاتكال على الله اتفق الموقعون ادناه على عمل سياسي مشترك وفق الأهداف والمبادىء التالية أساساً لبرنامج مستقبلي تحت عنوان (الهيئة العراقية المستقلة):

١ ـ الاهتداء بمبادىء الاسلام وتراثه في تشريع الدستور وسن القوانين.

٢ ـ الالتزام بمصلحة الأمة العربية والحفاظ على الواقع التاريخي والجغرافي للعراق.

٣ ـ الالتزام بحق الشعب الكردي في الحكم الذاتي الصحيح لمنطقة كردستان حقاً غير قابل للنقض.

٤ ـ اتخاذ الديمقراطية اسلوباً للحكم وفقاً لمبدأ صوت واحد للفرد الواحد رجلاً كان أم امرأة بطريقة الانتخاب الحر المباشر يسبقه احصاء سكاني جديد على أسس علمية، مع الالتزام المطلق بالاعلان العالمي لحقوق الانسان والحريات التي أقرها.

٥ ـ اعتبار الولاء للوطن في المكان الأول وانهاء الولاءات الجغرافية والفئوية واعتماد ذلك أساساً في التقييم دونما نظر إلى معيار مذهبي أو جغرافي أو فئوي سواء في بناء الهيئاة التشريعية أم التنفيذية أم الادارية أم العسكرية.

٦ ـ اعادة تنظيم القوات المسلحة على أسس وطنية لاداء مهمتها الآساسية والوحيدة في الدفاع عن الوطن وعدم استخدامها في غير هذا المجال وعدم اخضاع الانتساب اليها إلى أي تمييز عنصري أو طائفي وتحريم استخدامها أداة لأي عمل فئوي أو سياسي.

٧ ـ تحرير المناهج التربوية والتعليمية والثقافية من كل ما يتعارض وهذه المبادىء لاشاعة الوعي الديمقراطي بين أفراد المجتمع.

٨ ـ الأخذ بنظام الاقتصاد الوطني الحر والسوق المفتوحة ومنع أي عمل من أعمال المصادرة والاستحواذ تحت أية ذريعة ايديولوجية أو سياسية، واحترام حق التملك وحق الارث وفقاً لنظام ضرائبي تصاعدي.

٩ ـ توجيه الثروة القومية وعائدات النفط لرفاه المواطن العراقي ولاكتساب أدوات الحضارة والمدنية وانتهاج سياسة نفطية في الاوبك والاوابك وسواهما تخدم استقرار

الاقتصاد الوطني والعربي والعالمي.

١٠ ـ تعزيز العمل العربي المشترك بما يحقق للأمة العربية في المجتمع الدولي مكانتها الحضارية والانسانية.

١١ ـ السعي لجعل العراق عاملاً فاعلاً في بناء وتعزيز الأمن العربي والاقليمي والمشاركة في صنع التعاون والوفاق الدولي وفقاً لميثاقي الجامعة العربية والأمم المتحدة.

١٢ ـ وباعتبارنا جزء من التيار القومي العربي فاننا نسعى إلى تعزيز الكيان الاقتصادي العربي الموحد وبطريقة أقرب إلى الطريقة الناجمة في السوق الاوربية المشتركة.

١٣ ـ الايمان بحق الشعب الفلسطيني بتقرير مصيره واسناد كفاحه العادل ضد الصهيونية وممارساتها في الأرض المحتلة. وندعو إلى حل عادل للمشكلة الفلسطينية وفقاً لقرارات الأمم المتحدة.

١٤ ـ تعزيز الثقة بأهمية العلاقات العربية وعلاقات حسن الجوار بعد أن تعرضت هذه العلاقات إلى اضرار بالغة الحقتها سياسة صدام حسين العدوانية في المنطقة.

١٥ ـ وعلى صعيد الاصلاح الاداري فاننا ندعو للأخذ بنظام الادارة المحلية وانهاء المركزية وما الحقته من أضرار في توزيع الثروة وفي حصص التنمية القومية.

١٦ ـ وفي هذا السياق ندعو إلى تقليص الجهاز الحكومي عددياً وجغرافياً بعد ان استحوذت مؤسسات حكومية تحت غطاء الاحتياط الأمني على مدن ومحلات شعبية وبساتين وحولتها إلى مستوطنات أمنية أو حكومية والعمل على اعادة تلك المدن والمحلات إلى أوضاعها الطبيعية وتحديد مراكز ومجمعات لاجهزة الدولة للقضاء على امتدادها السكاني المخيف.

١٧ ـ ندعو في الختام إلى مؤتمر فكري وسياسي للتيارات السياسية والفكرية ولاعادة النظر في الفكر القومي العربي على ضوء التطورات الفكرية والسياسية والاجتماعية في الوطن العربي وفي العالم بما يكفل عدم الوقوع في اخطاء التجارب السابقة وبغية قيام نظام فكري على أسس التقارب والتفاهم وبروح الديمقراطية التي ندعو اليها ونتمسك بها.

والهيئة تؤكد اعتزازها بكافة أطراف المعارضة العراقية وببرنامجها الديمقراطي الموحد.

آملين من أبناء الشعب العراقي الالتفاف حول هذه المبادىء والأهداف. ومن الله التوفيق.

أفكار أولية للمناقشة

نحو نادٍ فكري للاقتصاديين العراقيين في الخارج

مقدمة :

ان الحاجة إلى اقامة مثل هذا التنظيم ذي الطابع الفكري الثقافي المتخصص تنبثق :

أولاً :

من ضرورة ايجاد أفضل الصيغ لتجميع الطاقات العراقية العلمية والفنية المتخصصة والمشتتة في أنحاء العالم المختلفة، وكذلك تحفيز وتطوير عطائها بالاتجاه الذي يسهم في تحقيق فهم أفضل للواقع العراقي وبلورة الحلول المناسبة للمشاكل والمسائل العقدية التي تؤمن تطوره اللاحق. ومن هذه الزاوية، فان هذه المبادرة ليست سوى تطبيق ملموس للتوجه العام الهادف إلى تجميع وتوحيد العراقيين المناهضين للدكتاتورية، بالنسبة لقطاع ولشريحة معينة، كما انها تندرج أيضاً في إطار الجهود التي يجب ان تبذل لتطوير تنظيم التيار الديمقراطي في المجتمع العراقي، ولتكريس صيغ التعامل الديمقراطي ولاسيما في الميادين الفكرية، حيث تعتمد مبادىء المحاججة العلمية في تصارع وتفاعل الآراء.

ثانياً :

من التحديات الجسيمة التي يواجهها العراق اليوم في الميدان الاقتصادي، اثر الدمار الهائل الذي اصابه نتيجة الحرب، أو بالاحرى الحربين وكذلك بسبب القيود القاهرة المفروضة على اقتصاده بسبب الحظر الاقتصادي والعقوبات المزمع فرضها عليه، فضلاً عن الوضع الاقتصادي المتردي أصلاً قبل نشوب الأزمة والحرب الأخيرة. وينبغي ان نضيف على ذلك، ان «النموذج الدولتي للتنمية» المعتمد في العراق والذي يميز معظم البلدان النامية يعيش الآن أزمة شديدة تجد مظاهرها في اشتداد المديونية، انهيار القطاع الزراعي، ضعف كفاءة الصناعات التي نشأت، وعدم قدرتها على مواصلة نشاطها دون دعم الدولة المتواصل، افلاس الدولة واضطرارها إلى اللجوء إلى التمويل التضخمي لنشاطاتها مما يتسبب في الضغوط التضخمية وانهيار قيمة عملاتها، وكذلك اختلال ميزان المدفوعات نتيجة الاعتماد المتزايد على الاستيرادات لتغطية احتياجات السوق.

الوطني . . . الخ مما يؤدي على الصعيد الاجتماعي ـ السياسي إلى تضخم البيروقراطية وانتشار الفساد وازدياد الفوارق الاجتماعية وتعمق الاختلال بين المدينة والريف وتكرس الطابع التسلطي والدكتاتوري لنظام الحكم.

ازاء هذه الأزمة يتكثف اصطراع الآراء حول مجموعة من الموضوعات الأساسية ذات الأهمية الحاسمة في تحديد وجهة السياسات الاقتصادية الواجب اتباعها أو في اعادة هيكلة الاطار المؤسسي للنشاط الاقتصادي ومن بين هذه المواضيع على سبيل المثال لا الحصر، دور الدولة في الاقتصاد، آلية السوق وما يترتب على اطلاقها أو تقييدها، كيفية تعبئة الموارد المالية والمادية الداخلية ولاسيما الادخار الداخلي ومن ثم كيفية تنظيم توجيهه نحو التوظيفات والاستثمارات التنموية، استيعاب البطالة، دور السياسات النقدية والمالية في تحقيق الاستقرار الاقتصادي والتطور المتوازن، تحقيق العدالة الاجتماعية عن طريق تطوير نظم فعالة لاعادة توزيع الثروة واستحداث صيغ جديدة لتأمين الضمان الاجتماعي. . . الخ. وبالنسبة للعراق حيث تبرز مشاكل اعادة البناء واستئناف مسيرة التنمية في ظل مديونية مرهقة، وقيود وعقوبات اقتصادية مجحفة، وهياكل ارتكازية محطمة، فان الاقتصاديين العراقيين، ولاسيما الوطنيين والتقدميين مطالبون بمضاعفة اسهاماتهم في دراسة الاقتصاد العراقي بصورة موضوعية وشمولية، لكي تكون مادة يرتكز عليها النضال السياسي للحركة الوطنية لبلورة البرامج والشعارات الاقتصادية الأنسب للمرحلة، كما تكون هذه الدراسات والاسهامات عموماً، عنصر تبصير للجماهير بواقعهم المعاشي وآفاقه وتعبئتهم في بلورة مطاليبهم.

ثالثاً:

من الصعوبات العملية في دراسة الاقتصاد العراقي بصورة جادة وموضوعية التعتيم والحجب الواسع للبيانات والمعلومات الاقتصادية الذي يلجأ اليه النظام. ولعل هذا العامل هو الأبرز في تفسير ضآلة عدد الدراسات العلمية الجادة المخصصة للاقتصاد العراقي. واذا استثنينا بعض الاطروحات العلمية والبحوث التي تتناول قطاعات محدودة من الاقتصاد العراقي تتوفر عنها سلاسل زمنية طويلة نسبياً من مصادر رسمية عراقية وأخرى عالمية (قطاع النفط) فان أغلب الدراسات المتوفرة حالياً تعتمد على الاحصائيات الحكومية غير الدقيقة، أو على ما تقدره بعض مراكز البحث العالمية المهتمة بالاقتصاد العراقي من خلال الاحصائيات التي توفرها الدول المقرضة للعراق أو المصدرة له أو المتعاملة معه، وكذلك من خلال بعض البيانات والمعلومات الاقتصادية التي تستحصل عن طريق البعثات الدبلوماسية الاجنبية أو الجهود الخاصة لبعض المراقبين أو الصحفيين الاقتصاديين. وفي هذه الحالة تكون هذه الدراسات موجودة بصورة مبعثرة في شتى أنحاء العالم (من نشرات

أو تقارير يصدرها بعض مراكز البحوث الاقتصادية العالمية، مقالات في صحف دورية متخصصة، تقارير خاصة تصدرها بعض الشركات، اطروحات علمية يصعب الحصول عليها). ومن هنا تبرز ضرورة تعاون المختصين بشؤون الاقتصاد المنتشرين في البلدان المختلفة لتجميع هذه المصادر وتوثيقها ووضعها في متناول الباحثين. فضلاً عن ان الاقتصاديين العراقيين اذا ما التقوا ونسقوا جهودهم يمكن ان يشكلوا قوة ضاغطة تطالب السلطات العراقية بنشر الاحصائيات الخاصة بالاقتصاد العراقي ويعتبر عندئذ هذا الصراع كجزء لا يتجزأ من الصراع العام من أجل الديمقراطية واشاعة العلنية في البلاد.

النادي الفكري:

العضوية: ينبغي ان يضم بالدرجة الأساس حملة الشهادات في الاقتصاد أو في المواضيع القريبة منه ممن مارسوا مهمات في الميدان الاقتصادي سواء في جهاز الدولة (وزارة التخطيط، وزارة التجارة، المالية، المصارف... الخ) أم في القطاع الخاص (ادارة وشركات ومصانع، نشاطات تجارية هامة، بحوث اقتصادية...) أم ممن مارسوا التعليم الجامعي والبحث في ميادين الاقتصاد وادارة الاعمال وغيرها من المواضيع ذات الصلة بالاقتصاد والادارة الاقتصادية.

من النشاطات: - اصدار النشرات والتقارير الاقتصادية.

- تنظيم السيمينارات واللقاءات العلمية وتنظيم مختلف النشاطات حول مواضيع تخص الاقتصاد العراقي.

- تأمين الصلة بين المهتمين بشؤون الاقتصاد العراقي، وتوفير وسائل الاتصال وتبادل المعلومات والآراء فيما بينهم. وتعميم نتاجاتهم وتطوير سبل التعاون المتبادل فيما بينهم تسهيلاً لمواصلة بحوثهم ولتكامل دراساتهم.

- تنظيم مختلف النشاطات الاجتماعية بهدف تعزيز أواصر الصلة فيما بينهم.

- اقامة الصلات مع المنظمات المشابهة العربية والاجنبية واقامة العلاقات مع مراكز البحوث واوساط الاعلام الاقتصادي للتعرف على كل ما يمس الاقتصاد العراقي، أو ان يكون ذا فائدة له، وكذلك للتعريف بواقع الاقتصاد العراقي وبمتطلبات تطوره ومشاكله.

- تشجيع البحوث المتعلقة بالاقتصاد العراقي.

ويمكن التفكير بنشاطات أخرى ذات طابع فكري واجتماعي وتنظيمي.

خطوات الشروع بتنفيذ الفكرة:

١ ـ اجراء جرد أولي لتشخيص من تنطبق عليه المواصفات من مختلف أنحاء العالم ـ وبشكل خاص ـ دمشق، المانيا، النمسا، فرنسا، بريطانيا، الولايات المتحدة، دول الخليج ، الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية السابقة.

٢ ـ تشكيل لجنة تحضيرية تضم أعضاء في بلدان مختلفة ـ من الأفضل متقاربة ـ تتولى اعداد مسودة النظام الداخلي للنادي، والاتصال بمن تنطبق عليهم شروط الانتساب.

٣ ـ التحضير للقاء واسع يضم أكبر عدد ممكن من الاقتصاديين.

وان يجري في هذا اللقاء مناقشة الأمور المتعلقة بتشكيل النادي (هناك مصاعب ذات طابع عملي تتعلق بجلب المدعوين من بلدان مختلفة، ولكنها ليست مستعصية اذا ما تمت هذه النشاطات في اوربا وجرى التمهيد لها قبل فترة طويلة نسبياً).

٤ ـ عقد مؤتمر تأسيسي واختيار أحد البلدان ليكون مركزاً للنادي مع ركائز في البلدان المختلفة.

ويمكن دعوة وجوه اقتصادية وفكرية واجتماعية وسياسية عراقية وعربية لفعاليات اللجنة التحضيرية، ولفعاليات النادي، وطبعاً للمؤتمر.

من الضروري التأكيد بأن هذا النادي سيكون محفزا لطرح الآراء والنظريات ومناقشتها بصورة علمية بغض النظر عن طبيعة هذه الآراء والطروحات ومهما كانت منطلقاتها السياسية، طالما انها تحترم قواعد العمل في النادي وتخضع لشروط المناقشة والمحاججة ولتبادل الآراء الموضوعي والعلمي.

التمويل:

من خلال الاشتراكات والمساعدات (غير المشروطة)، ووارد المطبوعات والفعاليات والتبرعات.

ابو رواء
٤/٦/١٩٩١

ترحب (الثقافة الجديدة) بمبادرة الزميل ابو رواء إلى طرح هذه «الأفكار الأولية» وتناشد الزملاء المعنيين مناقشتها وموافاتنا بارائهم سواء أرادوا نشرها أم اطلاع الزميل ابو رواء والهيئة التحضيرية إذا ما تشكلت.

تبرعوا لحزبنا دعماً لكفاحه
من اجل
العيش الكريم لشعبنا في
ظل حقوق الانسان وحرياته

الاشتراك السنوي:

٢٥ دولار أو ما يعادلها
يدفع مقدماً بشيك أو حوالة مصرفية
إلى رقم الحساب:
282243 - 54
Banque Libano - Francaise
Bar Elias - Libanon

المراسلات:

الثقافة الجديدة
سوريا ـ دمشق
ص. ب ٧١٢٢٠



لا تنفق كلمتين اذا كفتك كلمة

السعر ثلاثة دنانير